السنة الثالثة (صفر سنة ١٣٥٦ هـ — ابريل سنة ١٩٣٧ م) العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

ع ط ١٩٣٤ م

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» فى جميع مدارسها

رئيس التحرير	المدير
محمد على مصطفى	محمد نجيب حتاتة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق
السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	لغير الطلبة	٢٠ قرشا
	للطلبة ومدرسى المدارس الأولية	١٢ «
خارج القطر		٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد		٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر

منهج السنة التوجيهية

يرى القراء فى هذا العدد مقالات فى منهج الأدب للسنة التوجيهية دبجتها أقلام أبناء دار العلوم ، فجاءت دليلا جديدا على مالهم من جليل الأثر والاطلاع والمقدرة على البحث الشامل والإلمام بشتى المباحث فى الأدب وتاريخه

وإنا لنشكرهم على ما بذلوا من همة وجهد ، ونرجو أن يوفقهم الله إلى أسمى المقاصد ، وأن يجزيهم أحسن الجزاء بما قدموا من خدمة للغة والأدب

والمنهج الذى أشرنا إليه هو المنهج الجديد الذى اعتزمت الوزارة تنفيذه فى السنة التوجيهية ابتداء من العام الدراسى الآتى . ولسنا الآن بصدد إبداء الرأى فيه أو فى غيره من مناهج الأدب بالمدارس الثانوية ، بل نترك هذا إلى فرصة أخرى . وحسبنا الآن أن ننشر مقالات الإخوان فى المنهج الحالى ونسأل الله التوفيق والسداد

بسم الله الرحمن الرحيم

العيد المئوى لوزارة المعـــارف

مائة عام كاملة على إنشاء ديوان المعارف فى مصر ، وقد رأت الحكومة المصرية ووزارة المعارف أن تحتفل بالعيد المئوى السعيد ، وأعدت لذلك العدة ، وأقيمت حفلة الافتتاح فى تلك القاعة الرائعة ، قاعة الجامعة المصرية ، وحضرها صاحبا المقام الرفيع عضوا مجلس الوصاية الموقر ، وتخلف عن شهودها حضرة صاحب السمو الملكى الأمير محمد على ولى العهد ، لمرض طرأ على صحته الغالية ، وغصت القاعة بأصحاب المعالى الوزراء والشيوخ والنواب ورجال التعليم وصفوة أبناء الأمة ، وخطب حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة المصرية وتبعه حضرة صاحب المعالى وزير المعارف ثم حضرة صاحب السعادة أحمد لطفى السيد باشا رئيس الجامعة المصرية ، وأذيعت هذه الخطب من مكان الاحتفال واستمع إليها الشعب المصرى فى جهات القطر البعيدة والقريبة ، وكان عيد المعارف عيدا قوميا تجلت فيه مظاهر السرور

تناولت الخطب حديث الماضى وما قامت به الأجيال المتتابعة من جهود شاقة مضنية فى سبيل نشر العلم بين طبقات الشعب ، وأبانت نمو المعاهد وتفرعها والمراحل التى مرت بها ، وكان من ذلك للناس فكرة تاريخية صادقة عن الماضى القريب

ولقد كان يسر الأمة وهى تلج باب عهد جديد ـ عهد الحرية الواسعة والاستقلال الكامل ـ أن تسمع من قادتها وأصحاب الرأى فيها مايقدرون لها فى مستقبلها القريب مما تطمح إليه النفوس وتصبو إليه الآمال

مرت مائة عام على إنشاء ديوان المعارف ، ومع هذا مازال الشعب المصرى شعبا أميا ، عدد أفراده الذين يعرفون القراءة والكتابة لا يتجاوز ٢٠ فى المائة من سكانه على أنه لا ينبغى أن يدخل كل من يعرف القراءة والكتابة فى عداد المتعلمين ، فإن القراءة والكتابة وسيلتان من وسائل العلم لا ينبغى الوقوف عندهما واتخاذهما غاية لتعليم شعب نابه ناهض يعتز بقوميته ويعتبر نفسه منبع الحضارة ومبعث العرفان فى جميع أنحاء العالم

ومن الخير فى هذا الصدد أن نعقد الموازنة بين مصر وغيرها من بلاد أوربا ، لعلنا

نستطيع أن نقدر تقديرا دقيقا ما قامت به وزارة المعارف المصرية ، وما أدته من خدمات فى سبيل تعليم أبناء الشعب ، وما يجب عليها أن تبذله من جهود ، حتى تحقق الغاية التى ترقبها البلاد

كانت ألمانيا من أسبق الدول الأوربية إلى إدراك قيمة العلم، ولذلك جعلت من تعليم أبناء الشعب وسيلة إلى ما تبغيه من رفعة ومجد ، وسبقت مقاطعة بروسيا غيرها من المقاطعات الجرمانية إذ لم تجىء سنة ١٦٨٧ حتى اعتبرت المدارس جميعها معاهد مدنية تابعة فى إدارتها والإشراف عليها للحكومة بعد أن كانت تابعة للكنائس وتحت إشراف رجال الدين ، وجاء فريدريك وليام الأول وعنى بنشر العلم بين طبقات الشعب ، وفى سنة ١٧١٧ جعل على كل طفل ، متى وجدت المدرسة ، أن يذهب إليها شتاء ، أما فى الصيف فقد فرض عليه أن يذهب إلى المدرسة مرة فى الأسبوع على الأقل إذا لم تتعارض ذلك مع مصلحة أهله ، وفى سنة ١٧٣٥ أنشأ أول مدرسة لتخريج المعلمين وأنفق عليها من ماله الخاص ، ولم تمض إلا سنة من هذا التاريخ حتى فرض على كل طفل بين الخامسة والثانية عشرة من العمر أن يذهب إلى المدرسة ليتعلم ، وسارت فى أثر هذه المقاطعة بقية المقاطعات الألمانية تتسابق فى إنشاء المدارس وتمهيد سبيل التعليم للناشئين حتى كانت سنة ١٨٠٧ ؛ وفى هذه السنة أنشىء ديوان خاص بالنظر فى شئون التربية وجعل قسما تابعا لوزارة الداخلية ولكنه انفصل عنها بعد عشر سنوات وسمى وزارة المعارف

أما فى انجلترا فإن تدخل الحكومة فى شئون التعليم يرجع إلى سنة ١٨٣٢ حين توسعت فى الانتخاب وجعلته حقاً لكثير من الناس ، وإذ ذاك رأت أن تعلم الناخبين حتى لا يسيئوا استعمال حقوقهم الانتخابية ، وكان أول ما عملته فى هذه الناحية أن قررت ٢٠ الفا من الجنيهات لإعانة المدارس الأهلية ، ثم زادت الإعانة تدريجا حتى بلغت ثلاثين ألفا من الجنيهات فى سنة ١٨٣٩ وكان من الضرورى أن تؤلف لجنة للنظر فى توزيع هذه الإعانة وتقرير القواعد التى توزع على مقتضاها ، فألفت اللجنة من بين أعضاء مجلس البلاط ، ثم رؤى بعد ذلك أن توزع الإعانة على حسب نتائج الامتحان وأن تتولى هذا الامتحان لجنة حكومية ، وسارت الأمور على هذا النحو حتى كانت سنة ١٨٧٠ وفيها أنشىء ديوان المدارس . وجرت الأمور على هذا أو ما يقرب منه فى فرنسا ؛ فإن أحد ملوكها نظم التعليم القانونى والعالى وضم بعضه إلى بعض فى سنة ١٨٠٨ وجعله تابعا للحكومة وسماه جامعة فرنسا ، وجاء عهد لويس فيليب فجعل على كل مقاطعة أن تنشىء مدرسة ، وعين المفتشين وأنشأ مدارس للمعلمين وجعل الإشراف عليها للحكومة

هذه نظرة عاجلة فى تاريخ التعليم فى ثلاث دول أوربية ، ومنها نعلم أن ديوان المعارف فى مصر طويل العمر ، وأننا إذا وازنا بين ماوصل إليه من النتائج وما وصلت إليه نظام التعليم فى البلاد التى ذكرنا لايسعنا إلا أن نقول إن وزارة المعارف المصرية قد سارت الخطوات بطيئة ، وإن مجال العمل ما زال فسيحا أمامها . ولسنا نوجه اللوم إلى وزارة المعارف المصرية فقد اعترضها كثير من العقبات فيما مضى ، فقد كان أمرها بيد الأجنبى مدة تقرب من نصف قرن . فأما وقد استقلت مصر وظهرت فيها علامات النهوض فى كل مرافق الحياة ، وتسابق أبناء الشعب إلى ورود العلم فى مناهله ، فإنا نرجو مخلصين أن توفق البلاد وذوو الرأى فيها ، وأن تمحو عار الأمية عن الشعب المصرى فى القريب العاجل إن شاء الله ، والمأمول أن يتم ذلك فى عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول حفظه الله وأيد ملكه إنه سميع الدعاء

إن صحيفة دار العلوم لتبتهج بالعيد المئوى لوزارة المعارف ، فإنها تنتسب إلى معهد من أقدم معاهد العلم فى مصر ، ساير النهضة وأدى رسالته كاملة ، وكان لأبنائه المخلصين أثر واضح فى الحركة الأدبية فى البلاد عامة ، ويكفى ذلك المعهد فخرا تقدير رجالات مصر له كلما جدت مناسبة . وإن أبناء دار العلوم ليفخرون بشهادة معالى الوزير فى معهدهم ، ويشكرون له الشكر الجميل ، ويرجون من الله أن يوفقهم لخدمة اللغه والدين

ولا يفوتنا أن ننوه فى هذا المقام بتلك القصيدة الرائعة التى ألقاها صاحب العزة الأستاذ على بك الجارم المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف . فقد كانت تاج حفلة الأبرا واستحقت الإعجاب

قصيدة صاحب العزة الشاعر الكبير

الأستاذ على الجارم بك

أخرج الروض أطيب الثمراتِ هات ماشئت من قريضك هاتِ
زهرات تتيه بالغصن زهوا وغصون تتيه بالزهرات
صيّرت صفحة الرياض سماءً وتجنّت فيها على النيّرات
لم تفارق كِمامَها ، وشذاها ينشر الطيب فى جميع الجهات
ترهب الريح أن تخدّلَها خدّ اً فتجرى فى خشية وأناة
مصغيات إذا الحمائم رنّت بين تلك الخمائل النضرات
ضاحكات إذا بكى عابس الغيـث وفاضت عيناه بالعبرات
وإذا ماجرى الغدير تدانت لتحيِّ الغدير بالقُبُلات

٭٭٭

إن للروض فى معانيه حسنا فوق حسن الملامح الفاتنات
كم من الزهر فيه من سحر عين ومن النبت فيه من قسمات
فانظر الروض لا ترى غير تبر من تراب ودرة من حصاة
حبة أنبتت سنابل سبعا ثم ملءَ الفضاء من سنبلات
ونواة جادت بنخل ونخل وارفِ الظلِّ دائم الثمرات
يرسل الطير فى مداه نشيدا مَوْصِلِيَّ الأداء والنبرات
يملك النفس أينما نظرته فهو قيد النفوس والنظرات
كم تهادى مع النسيم اختيالا كالعذارى يَمِسْنَ فى الحبرات
تتناءى به الظلال لجمع ثم تدنو مُدِلةً لشتات
مثل كف الرسام جاءت وراحت بين قرطاسه وبين الدواة
أو كوجه الحسناء يبدو ويخفى بين ميل الهوى وخوف الوشاة

كلما رمت منه قطف جناة — سبقت راحتيك ألفُ جناة
وإذا بارك الإله بأرض — جعل التبرَ فى مكان النبات
وحباها خصبا إذا مسّ صخرا — ترك الصخر جنةَ الجنات
رُبّ أرضٍ للغافلين مواتٍ — وهى للعاملين غير موات
إن تطلعت للرغائب فابذل — تلك فى الدهر سنةُ الكائنات
لك كفان : تلك تعطى وهذى — تتلقى مثوبةَ الحسنات
ترتجى الحصد ثم تقعد فى الشمـ — ـس ! لك الله يا أخا التُّرّهات...!
ضلة تطلب الزلال من النا — ر ، وتبغى غضارة من فلاة
ليس يُجنى من السُّبات سوى الأحـ — ـلام ، فانهض وُقيتَ شرَّ السُّبات

٭٭٭

قد غرسناه روض علم فأزرى — حسنُه بالحدائق الباسقات
وبذرنا به القلوب صغارا — وكرام النفوس والمهجات
وسقينا ثراه ماء من الأذ — هان أحلى من كل ماء فرات
وغذوناه طيبا بجهود — ضاعفت من ثماره الطيبات
وحميناه أن تعيث به الأيـ — ـدى وتجنى عليه كفُّ الجناة
وجعلنا له من الخُلق العا — لى سياجا موثق اللبنَات
وحفظنا من الرياح جناه — ووقيناه شِرّةَ الحشرات

٭٭٭

إيه يا روضة المعارف ، لا زلـ — ـتِ مثاب الخيرات والبركات
أنت أنبتِّ فى ثرى النيل شعبا — نافذَ الرأى طاهرَ النزعات
أعجز الغربَ همة وذكاء — وكذا الشرقُ موطن المعجزات
خطوات نحو المعالى فِساح — لا عداها السدادُ من خطوات

سلكت أوسط الطريق وجازت كل ما فى الطريق من عقبات
وجهود تمضى وتأتى جهود محكمات موصولة الحلقات
نسجت من جهادها لبنى مصـرَ دروعا حصينةً سابغات

٭٭٭

إنما مولد المعارف فى مصـر دبيبُ الحياة بين الرفات
جل ربى ! آمنت بالله ربى ! فالق الحب باعث الأموات
أرسـل الله للكنانة ندبا هِبْرِزِىَّ الأعراقِ والعـزمات
فأتاها محمد جدُّ إسما عيل بالخصب مورقا والحياة
هل رأيت النجم الذى يبهر العـين ويمحو دياجر الظلمات ؟
هل رأيت الغدير ينساب فى القفـر فيهتز مخصب الجنبات ؟
هل رأيت الحياة تسرى إلى الجسـم فتحيي عظامه النخرات ؟
هل رأيت الآمال بعد نفار ؟ واقتبال الشباب بعد فوات ؟
لقيت مصرُ قبلَه ما يلاقى غرضٌ جاء فى اتجاه الرماة
جهلوا داءها الدفـينَ ، وشرٌّ من دفين الأدواء جهل الاساة
نَـكَئُوا جرحها فسالت دماها قطراتٍ تجرى إلى قطرات
لا ترى فى الظـلام للعلم إلا مقفرات من دوره دارسات
يكره الظلمُ كلَّ شىء من الضو ء ولو كان فى ابتسام الفتاة
لم يكن منه غير ومض من الأز هر يبدو مفزَّعَ اللمحات
كذبال المشكاة قد جف إلا أثرا من بُلالة المشكاة
فأتى منقذُ البـلاد فأحيا ها برأىٍ وعـزمةٍ وثبات
لو دعا أنجم السماء لَلَبَّتْ مهطعاتٍ لأمره صاغرات

٭٭٭

شاد فى مصر للمعارف ديوا　نا منبعَ الأعلام والشُّرُفات
وَبَنَى للعلوم خير بناء　عَلَوِىٌّ فكان خيرَ البُناة
نهضت مصر بعده نهضات　تستحث الخطا إلى نهضات
أرسل العلم نوره فسرى الر　كبُ يقود المنى إلى الغايات
ورأَيْنا بكل أرض رياضا　دانياتٍ قطوفُها زاهيات

***

كلَّ يوم عند الصباح ترى جيـ　ـشا من النشء صادقَ الوثبات
جعلوا كُتْبَهم مكان المواضى　ويراعاتِهم مكانَ القناة
طلعوا أولَ الغداة فزانوا　بسَنَى ضوئهم جمالَ الغداة
مثل سرب للطير همَّتْ خِفافا　ثم راحت لوكرها مثقلات
نثروا جمعَهم فأبصرتُ فيهم　أنجماً فى الفضاء منتثرات
ورأيت الفلْذات تمشى على الأر　ض فخلُّوا الطريقَ للفلذات
هم أمانى مصرٍ ، هُمُ مرتجاها　هم حنايا ضلوعِها الخافقات

***

مائةٌ من سِنِى المعارف مَرَّتْ　زاهياتٍ بما حوت حافلات
بلغت مصرُ فى مَدَاهُنَّ شأوا　فوق شأو الكواكب السابحات
وغدا مجدها الحديثُ وقد شا　ع شذا عطره حديثَ الرُّواة
أصبحتْ كعبةً يحجّ إليها الـ　ـشرقُ بين الخشوع والإقنات
تتهادى وحق أن تتهادى　بين ماضٍ زاهى الجبين وآت
كلُّ تاريخها كتاب من المجـ　ـد كريمٌ مطرَّزُ الصفحات
بعثتْ دارسَ الفنون وأحيتْ　بعد يأس الزمان أمَّ اللغات
وأعادت إلى العلوم منارا　كان صبحَ الدجى وهَدْىَ السُّراة

أنجبت للبلاد أبطال عزم هم دروع البلاد فى الأزمات
دَعُوا الشعب للعلا فرأينا خيرَ شعب أجاب خيرَ الدعاة
أنجبت كلَّ عالم بهر الكو نَ بآيات علمه البينات
أنجبت كلَّ شاعر عبقرى صادقِ الحس بارعِ اللفتات
تتمنى الأزهارُ لو كنَّ يوما فى قوافيه موضعَ الكلمات
أنجبت كل كاتب يملك السمـ ـعَ بآثار فنه الخالدات
أنجبت كل مِدْرَهٍ وخطيب ساحر القول صادق الحملات
وحَمَتْ شِرعةَ الخلائق أن يغـ ـبَرَّ صافى نميرها بقذاة
قد ولجنا الحياةَ من كل باب فرأينا الأخلاقَ بابَ النجاة
أصبحت مصرُ معهداً لشباب الـ ـشرق ، يسعَوْن نحوها بالمئات
عقدت بيننا الليالى صلاتٍ محكمات أحْبِبْ بها من صِلات

٭٭٭

إن عيد المعارف اليومَ عيد للنهى والجهود والذكريات
عيدُ يُمْنٍ لمصر فالدهر دان خاضع لرأس ، والزمان مواتى
بلغتْ مصرُ ما تُرَجِّى وفازت بعد طول الأسى وذُلِّ الشكاة
وأطاحت قيودها فاستقلت وامَّحى ما تركن من ندبات
واستعزت بطلعة الملك الفا روق زين الحمى وفخر الحُماة
يشرق الملك بالمليك ويزهى بمجالى آلائه المشرقات
تجتليه العيونُ بدرا وتفديـ ـه عيونُ الزمان بالحَدَقات
عهده فى العهود أنضرُ عهد كجمال الربيع فى الأوقات
بهرَ الشعر أن يحيط بمعنى من معانى صفاته الباهرات
عاش للعلم والبلاد هماما أرْيَحِيًّا ، وعاش للمكرمات

الأدب

للأستاذ الدكتور أحمد ضيف
أستاذ الأدب بدار العلوم

١ — الأدب بمعناه العام

الأدب بمعناه العام هو كل ما يتأدب به الإنسان ، أى ما يدعوه إلى الكمال العلمى أو النفسى ، فيطلق على ما يهذب العقل ويربى ملكة التفكير والفهم والبيان بالقراءة والدرس ، والاطلاع على مسائل مختلفة فى الفنون والعلوم ، والإحاطة بجملة صالحة من أثر الكتاب والباحثين والمؤلفين ، فهو يرادف التعبير الشائع الآن بكلمة « ثقافة » . فكل ما يدعو إلى تثقيف العقل وتقويم الفكر وسعة الاطلاع يدخل في باب الأدب .

ولا شك فى أن كل علم من العلوم الرياضية أو الطبيعية أو الفلسفية أو الاجتماعية أو اللسانية ، أو فن من الفنون الجميلة كالموسيقى والتصوير والنحت والحفر والشعر والكتابة البليغة ، يدعو إلى تثقيف العقل وتقويم الفكر ، وسعة الاطلاع ، ومجموع مسائلها يدخل فى باب الأدب ، وإن كان بعضها لا يدخل فى الأدب بالذات ، كالعلوم الرياضية والطبيعية . وعلى هذا يشمل الأدب كل ما أنتجه عقل الإنسان وكان أثراً من آثار تفكيره .

وهذا ماذهب إليه أدباء العرب ، لأن الأدب عندهم جامع للإحاطة بالفنون والعلوم المختلفة والصناعات وضروب اللهو والتسلية ، فقد أطلقوه على الفروسية وعلى ضرب العود ولعب الشطرنج ، وعلى الطب والهندسة ، وعلى علوم اللغة العربية والأحاديث والمسامرات ، مما جمع فى الكتب بأقلام الكتاب ، حتى قال ابن قتيبة فى كتابه « أدب الكاتب » : إن من لوازم الأديب أن يعرف طرفاً من الرياضيات والصناعات .

وقد أطلقوا الأدب على الكتب المشتملة على الحكم والأمثال والتهذيب

النفسى والاجتماعى ، وواجب المجاملة والمعاملة بين الصغير والكبير ، والعالم والجاهل ، والحاكم والمحكوم ، وكل الوسائل المؤدية إلى ذلك ، مما يقوم الفكر ويهذب الذوق وألفوا فى هذه الفنون المختلفة وأسموها أدباً .

ولعل أول الكتب التى أطلق عليها هذا اللفظ هي « الأدب الصغير والأدب الكبير » لابن المقفع فى القرن الثانى الهجرى ، وهى تشتمل على نصائح وحكم فى الاجتماع وتهذيب الأخلاق ، ثم كُتب ابن قتيبة وهى : « أدب الكاتب وعيون الأخبار » المحتوية على كثير من مسائل اللغة ، وكتَب ابن مسكويه « المتوفى سنة ٤٢١ » كتابه المسمى « أدب الفرس والعرب » ، وكتب ابن الطقطقى كتابه « الآداب السلطانية » وهو فى التاريخ وآداب السلطان ، وكتب ابن حجة الحموى « خزانة الأدب » المحتوى على كثير من تراجم القراء وشرح أبيات من الشعر وقواعد فى النحو والصرف والبلاغة .

وناهيك بكتب الأدب الأخرى « كالبيان والتبيين » للجاحظ « والكامل للمبرد » و « الأمالى » لأبى على القالى و « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، و « الاغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، وغيرها مما هو معروف مشهور . وكلها تحتوى على مسائل من فنون اللغة العربية وأيام العرب وأخبارهم ومسائل فى التاريخ العام والخاص ؛ وكل هذه الكتب الأدبية الغرض منها تربية ملكة الفهم والإحاطة بكثير من مسائل اللغة والفنون المختلفة .

وقد قال ابن خلدون فى كلامه عن الأدب : « هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف (يقصد علوم العربية وما يتصل بها) للتوصل إلى فهم العبارات وأساليب الكلام . . . وأن يجمعوا لذلك من كلام العرب ما عساه أن تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الإجادة . ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها فى الغالب معظم القوانين العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع فى أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة . »

وجعل ابن خلدون هذا الاطلاع خاصاً بفنون اللغة ، ليكون وسيلة لفهم

كلام العرب . إذ قال : « والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم . »

والغرض من هذا كله تربية ملكة الفهم بالعلوم والفنون المختلفة للوصول إلى فهم الأشياء فهما صحيحا ، فأدباء العرب يرون أن الغرض من الأدب هو الإحاطة بالعلوم والفنون المختلفة للتوصل إلى فهم كلام العرب ، أو إلى تربية ملكة الفهم . وذلك مانسميه الآن « ثقافة عامة » ونطلقه على الإحاطة بالعلوم العربية وغيرها .

ويلزم التنبيه هنا على الفرق بين الأديب والعالم ، وبين العلوم والآداب .

فاطلاع الإنسان اطلاعا مجملا على العلوم الطبيعية والرياضية وعلم النبات والحيوان لايضعه فى صف علماء هذه الفنون ، وهم الذين يدعون الآن علماء ؛ فإن المعروف الآن فى الاصطلاح الجامعى أن علوم الأدب أو فنونه تطلق على علوم الفنون وهذه الموضوعات هى التى تدرس فى كليات الآداب . والمشتغلون بها يسمون أدباء أو فنيين ، وليس معنى هذا أنهم لا يدرون شيئاً فى العلوم الأخرى كالطب والرياضة وغيرها .

أما الطب والكيمياء والرياضة والطبيعة وعلم النبات والحيوان وأمثالها فتدرس فى كليات العلوم ، والمشتغلون بها المختصون يسمون علماء ، وليس معنى هذا أيضاً أن ثقافتهم خالية من المسائل الأدبية السالفة .

وقد فرقوا بين هذين القسمين فقالوا : آداب وعلوم .

٢ — الأدب بمعناه الخاص

المصور والموسيقى والنحات والشاعر والكاتب ، أو بعبارة أجمع : الفنيون جميعاً ، غرضهم من فنونهم كشف المعانى النفسية والخلقية ؛ من آلام وأحلام ، وسعادة وشقاء ، وحقائق كامنة فى هذه الحياة ظاهرة أو خفية ، حسية أو معنوية ، مما يجول بالنفس أو يدركها الحس ، وذلك للوصول إلى ماعساه أن يطمئن النفوس ويهذبها بإدراك الجمال المادى والمعنوى ويكشف أسرار هذا الكون التى لا يمكن أن يصل إلى معرفتها كل مفكر أو باحث بالدليل أو بالبرهان .

والفنيون من كتاب وشعراء وموسيقيين ومصورين يختلف إدراكهم عن إدراك العالم النباتى أو الرياضى أو الفيلسوف ، لأن هؤلاء العلماء يبنون إدراكهم وإظهار آرائهم على البرهان والدليل والتجارب العلمية ، لتقرير مسألة أو وضع قانون عام فى علم من العلوم ، وعمدتهم فى ذلك الدليل القاطع ، غير ناظرين إلى وسائل التعبير من حسن العبارة وجودة الأسلوب لأنهم يتجهون إلى مخاطبة العقل بالدليل .

أما الفنيون فإدراكهم مبنى على الفطرة والإلهام وهم يعتمدون فى إظهار آرائهم على براعتهم فى حسن البيان وبلاغة الكلام ، أو على تناسق الألوان أو رنات الأصوات ، وليس من غرضهم إقامة الدليل أو إقناع الناس ، وإنما غرضهم إعجاب القارئين أو السامعين أو الناظرين بتحريك عواطفهم وإيقاظ الشعور بالجمال فى نفوسهم ، ووجهتهم مخاطبة الأفئدة والقلوب ، وكل ما يمت بصلة إلى الإحساس النفسى فى الظاهر والباطن ويدعو إلى الاستمتاع بمظاهر الجمال الحسى والمعنوى .

فإذا رسم لك المصور منظراً يسرك أو يحزنك ، مالت إليه نفسك وأيقظ فيها الشعور بحب الجمال ، وإذا أسمعك الموسيقى أو غناك صوتاً عذباً أو مشجياً تملكتك هزة الطرب ، وإذا قرأت قصيدة فى الغزل أو الرثاء ، أو قطعة منثورة تمثل لك السعادة أو الشقاء ، ارتحت إلى سماعها ، وتذوقت جمال التعبير فيها ، وتسليت بها عن حبك وغرامك ، أو عن آلامك وأحزانك .

فالأدب من بين هذه الفنون هو الشعر والكتابة البليغة ، وهو ما يدعو إلى الإعجاب بما فيه من روعة القول ، ونظم المعانى ، وقدرة الكاتب أو الشاعر على بث ما يريد فى ذهن القراء أو السامعين بلا كد فى الفكر ، ولا عناء فى التحصيل ؛ بل يدفع القارىء أو السامع وراء روعة أسلوبه وجمال قوله ، فيشعر بالاستمتاع بما فى هذا الكلام من أخيلة جميلة وصناعة مستملحة وارتياح إلى ما فيه من معان وآراء .

وهذا الأدب هو الذى نشر فى طياته بلغاء الأمم وحكماؤهم صور النفوس

وطبائع البشر : من حب وبغض ، ولذة وألم ، وسعادة وشقاء ، وحق وباطل ، وصدق وكذب ، وأخيلة وحقائق ، وعقائد وأوهام وأساطير ، وقبح وحسن ، بما سطروه فى أشعارهم وكتاباتهم وقصصهم ، فكشفوا عن كثير من الحقائق الخفية فى حياة الإنسان النفسية والخلقية ، بروعة وبلاغة خصهم الله بهما .

ولكن ليس من غرض الكتاب أو الشعراء أو الفنيين أن يهبوا للناس علماً صحيحاً ، أو يعلموهم تعليما خاصا ، بل غرضهم متعة العقل وشحذ الفكر بروعة الافتنان.

فاذا جاءت هذه الروعة بفائدة علمية أو تاريخية أو فلسفية فإنما تجىء تبعاً لا قصداً ؛ ولعل أجمع وصف الأدب هو أنه سحر البيان . هذه الجملة المأخوذة من الرواية المشهورة عند ما سأل النبى (عليه الصلاة والسلام) عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر فقال : مانع لحوزته ، مطاع فى أذنَيه . فقال الزبرقان : أما والله لقد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى لشرفى . فقال عمرو : أما لئن قال ما قال ، فوالله ماعلمته إلا ضيق الصدر ، زمن المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى ! فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار فى عين رسول الله ، قال : يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ماعلمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الآخرة ، فقال النبى (عليه الصلاة والسلام) عند ذلك : « إن من البيان لسحراً » .

فمن أخص صفات الأدب بلاغة العبارة وامتلاك أذهان القراء وعقولهم بروعة القول بدون نظر إلى صدق أو كذب أو إلى صحة أو خطأ ، قال الجاحظ متهكما ومحتقراً رأى من عاب عليه كتبه :

« . . . ولكن لم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ؟ ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ، ورأيت أن سب الأولياء أشفى لدائك ، وأبلغ من شفائك ، ورأيت أن إرسال اللسان أخطر لذة ، وأبعد من النصب ومن إطالة الفكرة ، ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة ، ولو كنت فطنت لعجزك ، ووصلت نقصك بتمام غيرك ، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ،

وحبيس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين فى العاجل ، وأحق بالمثوبة فى الآجل ، وكنت إن أخطأتك الغنيمة ، لم تخطئك السلامة ، وقد سلم منك المخالف ، بقدر ما ابتلى منك الموافق ، وهل كنت فى ذلك إلا كما قال العربى : هل يضر السحابَ نبحُ الكلاب ؟ وإلا كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر ؟

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حلمنا عندك إلى الخوف منك ؛ ولو شئنا أن نعارضك لعارضناك فى القول بما هو أقبح أثراً ، وأبقى وسما ، وأصدق قيلا ، وأعدل شاهداً ؛ وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح ، كما أنه ليس كل من عارض فقد انتصر » .

فهذه صفحة من الكتابة الأدبية الفنية التى قصد منها الكاتب أن يتغلب على مناظره ، وأن يخذله بكلامه وأسلوبه ، أكثر من أن يقيم له الدليل أو البرهان على صحة قوله .

وليس معنى هذا أن بلاغة الأسلوب وحدها أو روعة القول لا غيرهى الأدب بدون نظر إلى المعنى ، لأن هذا لا يكون ، فلا يكون الكلام بليغاً إلا إذا أفهم ، بل لا يكون كلاما بدون معنى ، ولكن صدق المعنى أو مدلوله — كما قلنا — ليس مقصوداً بذاته فى الكتابة الأدبية .

فقد يكون الأدب خيالا صرفاً منتزعاً من حوادث الحياة والاجتماع ، ومع ذلك تجده يؤثر فى النفس أشد تأثيره ، لقوة بلاغة الكاتب وتفننه فى صناعته وامتلاء نفسه بالمعنى الذى تخيله والقصة التى ابتكرها ، فينال من نفس القارئين أو السامعين ما تناله الحقيقة الحقة والقصة الواقعة ، وآية ذلك ما نراه ونقرؤه من القصص التى يخترعها الكتاب فتحدث فى نفوسنا أثراً أشبه بما تحدثه المشاهدات الحقيقية لمثل هذه الحوادث .

فهذه أغراض أدبية لا يقصد منها الكاتب أو الشاعر إفادة القراء فائدة علمية أو فنية لأن حوادثها خيالية ، ولكنه يرمى إلى بث بعض الآراء فى الحياة والاجتماع

مصوراً فى هؤلاء الأشخاص الخياليين ، وممثلا فى تلك القصة المبتكرة ؛ لأن حوادثها وأشخاصها صحيحة فى ذاتها تشبه ما يقع فى الحياة العامة أو الخاصة ، لذلك لا تخرج القصة عن أنها صورة حقيقية لبعض صور الحياة ولبعض الأشخاص الذين نعرفهم ونعيش معهم .

وقد تكون المعانى الأدبية أخيلة ورموزاً لبعض المعانى النفسية ولشعور الإنسان وإحساسه يجسمها الشاعر أو الكاتب فى أسلوبه البليغ ، فالذى يقول :

حدّثونى عن الصباح حديثاً وصفوه ، فقد نسيت الصباحا

لا يريد منك حديثاً عن الصباح أو وصفاً له ، وانما يريد أن يرمز بذلك عن قلقه من طول الليل الذى تنتابه فيه الآلام ، وليس حقيقة أنه نسى الصباح ، وانما أراد أن يؤثر فى نفسك بألفاظه وقوة خياله ويستولى على شعورك ، ويعجبك بحسن بيانه . وعند ما مدح البحترى بلاغة ابن الزيات بقوله :

وبديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد

لم يرد أن يخبرك بحقيقة من الحقائق ، وإنما أراد أن يجسم وصف بلاغة ابن الزيات ويجعلها فى خيالك جميلة رائعة كجمال الزهر وروعته فى أيام الربيع .

وعند ماقال أبو تمام :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة دما ، ضحكت عنه الأحاديث والذكر

لم يرد أن يخبرك هو أيضاً بشىء صحيح أوحقيقة من الحقائق ، وإنما أراد أن يحمل القراء والسامعين على الإعجاب بحسن بيانه ، وقدرته على التعبير ، وهو مع ذلك يتغالى فى مدح صاحبه .

وهذا مصداق مارواه الجاحظ عن بعض الأدباء :

« أنذركم حسن الألفاظ ، وحلاوة مخارج الكلام ؛ فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً ، وأعاره البليغ مخرجا سهلا ، ومنحه المتكلم قولا متعشقا ، صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملأ ، والمعانى إذا اكتسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرقيقة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر مازينت ، وعلى حسب مازخرفت . . . . . . »

ولقد تقرأ صحيفة لعالم رياضي أو نباتي يقرر كل منهما في كلامه مسألة علمية، فتحسبها من صحف الأدب، لبلاغة أسلوبها وجمال صناعتها، لا لأنها تقرر قاعدة علمية أو مسألة رياضية. من أجل هذا قد يعد بعض الفلاسفة أو العلماء الرياضيين أو الكيميائيين أو المؤرخين أو الاجتماعيين من بين الأدباء والكتاب لأثرهم الأدبي في الكتابة الفنية.

ونعود فنقول: الأدب هو دراسة للعقول البشرية ولعواطف الإنسان وشعوره ومظاهر التفكير لديه، في أسلوب فني بليغ؛ فقارئ الأدب لا يفتأ يقف في أثناء قراءته - وهو منغمس في الإعجاب بفن الكاتب ومفتون ببلاغته - على حركات النفوس والأفكار وصور الحياة، وتهذيب ذوقه وتحريك عواطفه وإحساسه بروعة القول.

أحمد ضيف

الكتابة الفنية وأنواعها

والمؤثرات التي تعمل في رقيها وانحطاطها

بقلم محمد أحمد برانق
المدرس بالمدرسة الناصرية

تقديم

خلق الإنسان متفاهما بالكلام ، والأصل فى التفاهم بالكلام أن يكون من متكلم يشافه مخاطباً حاضراً فى مكانه أو زمانه ، وقد غبر الإنسان دهورا طويلة وهو عاجز عن مخاطبه الغائب عن مكانه أو زمانه إلى أن عُـلِّم الخط بالقلم ، فاتخذ من الخطوط والنقوش أشكالا يرمز بها عن الكلام الذى يريده ، فيطلع عليها الغائب عن مكانه أو زمانه ، فيتفهم منها مراده فسمّت العرب الرمز عن الكلام بالخطوط والنقوش « كَتْباً أو كتابة » ، وسمت تفهم الكلام من هذه الخطوط والنطق به « قراءة » أو « تلاوة » .

ولما اتسعت حضارة الإنسان استعمل الكتابة فى عدة أنواع : فى التراسل وتقييد الحقوق ، والمداينات ، والمشاركات ، والعهود ، والوصايا ؛ ثم فى تدوين العلوم والأخبار ؛ وأصبح رقى كل أمة فى أوج الحضارة يقاس بمعرفة أفرادها للكتابة والقراءة والعلوم .

أطوار الكتابة الفنية فى الممالك العربية (١)

تعلمت العرب فى جاهليتها الأولى الخط المسند فى جنوب اليمن ، والآرامى فى الشمال ، وبقى أواسط بلادها أمية لبداوة أهلها ، ثم تولد من فروع الآرامى

(١) هى الكتابة المنسقة الأفكار والمعانى ، التى يتأنق كاتبها فى تحرير عبارتها ، ويلبسها ثوبا من الجمال الفنى ، الذى يؤثر فى قارئها تأثير الشعر ، إذا استثنيت جرس الوزن والقافية وهى تسمية حديثة ، يقصد بها ما كنا نسميه من قبل : الكتابة الإنشائية

الخط الحيرى أو الأنبارى ، فانتشر فى شرقى الشام ، وسقى الفرات ، ثم هبط مكة قبل الإسلام ، ومنها انتشر فى الحجاز ونجد ، وسمى الخط الحجازى ، حتى غلب على مسند اليمن ، ونسخه من الوجود (١)

فاستعملت العرب الكتابة فى بعض شئونهم التجارية والاجتماعية ، من مثل وثائق الأحلاف ، ومشارطات الصلح ؛ ووضعت للكتابة وأدواتها أسماء كثيرة كالقلم ، والمحبرة ، والدواة ، والليقة ، والمداد ، والحبر ، والصحيفة ، والقرطاس والمصحف ، والكتاب ، والكتابة . وكثيراً ما شبهت فى أشعارها أطلال الديار بالخط فى الصحف والمهارق (٢) ، وكذلك أتى ذكر الصحائف والعهود المكتوبة على المهارق فى كثير من أشعارها (٣)

غير أن من المأسوف عليه أن الزمان لم يعثر نا على شىء منها مكتوب فى عصر الجاهلية كتابة فنية . نعم ؛ إن الكتابة ما كانت شائعة عندهم لأن قبائلهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، فلما اختلطوا بغيرهم ، وكثرت مطالب الحياة عندهم ـ اضطروا إلى تعلم الكتابة .

جاء الإسلام والذين يقرءون ويكتبون قليلون ؛ لذلك لم يكن للعرب فى جاهليتهم كتابة فنية ، وإن كانت لهم خطابة فنية ، أثِر منها القليل .

---

(١) وقيل . إن أبا سفيان بن أمية تعلم الكتابة من رجل حيرى ، وأهل الحيرة أخذوها من الأنبار ، وأدخلها حرب بن أمية مكة ، وقيل : إن بشر بن عبد الملك هو الذى تعلمها من أهل الأنبار ، ثم أدخلها مكة ، أما فى المدينة فقد أدخلها اليهود وتولوا تعليم الصبية هناك (راجع الأعشى ج ٣ طبعة دار الكتب سنة ١٩١٤ . والعقد الفريد ج ٣ ص ٣)

(٢) ومن ذلك قول الطائى فى مطلع قصيدة طويلة له مذكورة فى ديوان شعراء النصرانية .

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما كخطك فى رق كتاباً منمنما ؟

(٣) راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢ وما بعدها تجد أوصافا كثيرة للقلم والحبر

الكتابة الفنية فى صدر الاسلام

جاء القرآن حاثاً على تعليم القراءة والكتابة معظما شأنهما ؛ يدل على ذلك أن أول سورة نزلت منه كانت فى هذا المعنى . وهى : « بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . وجعل القلم والكتابة من المنن التى أقسم بها ، فقال : « ن ، والقلم وما يسطرون » ولذلك كانت عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيمة بتعليم الأنصار الكتابة . فلما كانت موقعة بدر ، ووقع بعض كتاب قريش أسرى فى أيدى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعل فدية الكاتب منهم أن يعلم عشرة من الأنصار القراءة والكتابة .

ثم كان لرسول الله عدة كتاب يكتبون له القرآن والرسائل ، التى يبعث بها إلى القبائل والملوك ، منهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، ومعاوية بن أبى سفيان . (١)

وكانت كتبه عليه السلام فى أعلى درجات البلاغة والإيجاز ، وكانت كذلك كتب الخلفاء الراشدين وولاتهم ، لأنهم كانوا يملونها بأنفسهم على كتابهم ، أو يكتبونها بأيديهم ، وهم كانوا أئمة فى اللسن والبيان ، كما كانوا أئمة فى الحكم والسلطان ، وربما استعانوا بكبار خاصتهم فيها .

هذا النوع من الكتابة كتابة فنية ، من حيث بلاغته وإيجازه ، وسهولة تفهمه ، والاقتناع به ، والتأثر بمغازيه ، حتى هان على قارئه حفظ عبارته بنصه ، وليس كل أهل زمانهم فى مكنتهم الإتيان بمثله ، لا من حيث قصد كاتبها إلى جمال الفن الصناعى ؛ وهى كتابة يجد فيها القارىء ما يثير عواطفه ووجدانه ، فيحس منها لذة أو ألماً ، وفرحاً أو حزناً ؛ ولأن كتاب الأولى إنما أرادوا بها

---

(١) يراجع الكامل لابن الأثير ج ٢ ، وتهذيب الأسماء واللغات للإمام النووى نقلا عن الحافظ أبى القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق ، ومطالع البدور فى منازل السرور لابن عبد الله البهائى ج ٢ وكتاب إنسان العيون ص ٤٣٤ ج ١

إقناع من يكتبون إليه بأن ما يرسلون به هو الحق ، وأن ما عداه هو الضلال . والكتابة الفنية الصناعية المكتسبة بالمرانة والتلقين لا تظهر ولا ترقى ، إلا مع ظهور وارتقاء أمثالها من الصناعات العقلية ، والفنون الرفيعة .

فكتب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكتب الخلفاء الراشدين من بعده كتابة فنية ، ولم يأتها الجمال الفني من جهة الصناعة ؛ لأنهم لم يقصدوا إلى إظهار نوع خاص من هذا الجمال ، ولكنه كان يجيء عفواً في كتبهم ، فهم أمراء البلاغة ، ومالكو ناصيتها ، والماسكون بضبعها ؛ فلا يكتبون ولا يملون على كتابهم إلا ما يعتبر في درجة عليا من درجاتها ، والكتابة إذا كانت في درجة عليا من البلاغة ، كانت من غير شك كتابة فنية ، لها روعة وفيها جمال ؛ وهل تستطيع أن تقنع غيرك بكلامك إلا إذا صغته صوغاً جميلا بليغاً ، يملك عليه شعوره ووجدانه .

بمثل ذلك اعتبر ما صح من الحديث نثراً فنياً ، واعتبر ما صح من الكتب النبوية المرسلة إلى الملوك نثراً فنياً (١) لأنه مصوغ في صورة بلاغ يمكن ترجمته إلى أي لغة بعبارة وجيزة ، وجمل قصيرة سهلة ، فهو فني في بابه ، وكذلك كتبه التي بين بها قواعد الإسلام وأحكامه ـ كتابة فنية في بابها ، لا عهد للعرب بمثلها ، وخاصة ما تعمد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم محاكاة المرسلة إليهم في لهجتهم ككتبه إلى أقيال اليمن .

وأزيد فأقول : إن ما نقرؤه في الكتب من أخبار العرب ، وأيامها ، ومغازيها ، ومفاخراتها ـ ليس إلا نثراً فنياً خاصاً بصور تمتاز غالباً بالأمور الآتية :

١ ـ قصر الجمل أو توسطها .

٢ ـ الميل إلى الإيجاز من غير إخلال بالمعنى .

٣ ـ استقلال كل جملة بمعنى مستقل عما قبلها وما بعدها ، في نحو الحكم

---

(١) تراجع كتبه صلى الله عليه وسلم إلى الملوك في كتاب إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون ، المعروفة بالسيرة الحلبية ج ١ من ص ٣٣٣ إلى ص ٣٥٥ ، وسيرة الزبير المكي ص ٦١ المطبوع على هامش السيرة الحلبية .

والوصايا ، بحيث تكون الرسالة أو الوصية من جمل متقطعة ، قليلة الاتصال فى المعانى الجزئية لا فى المعنى الكلى .

٤ — قلة تعمقهم فى استخراج المعانى التى تحتاج إلى كد خاطر ، أو درس علم .

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ، واتسعت أعمال الدولة ، وشغل الخلفاء والولاة عن أن يلوا الكتابة بأنفسهم — عهدوا بها الى كبار كتابهم ، فتوفروا عليها ، حتى أوشكت فى أواخر دولة بنى أمية أن تكون صناعة عتيدة ، وبرع فيها كثير من الموالى ، وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية ، أو اليونانية ، أو الفارسية أو السريانية .

وبدأت الكتابة فى هذا العصر يتعمد فيها الى الجمال الفنى ، ويقصد إليه ؛ أى أنه لم يكن ليأتى عفوا فى كتابة الكتاب ، كما كان ذلك فى السنين الأولى للإسلام .

وكانت وظيفة الكاتب فى عصر الخلفاء الراشدين ، وعصر بنى أمية — أشبه بوظيفة كاتم السر (السكرتير) فى زماننا ، إذ ليس ثمة دواوين منظمة يختص كل منها بعمل ، وليس هناك وزراء ، ولا رئيس وزراء (١)

وكانت الكتابة فى عصر الخلفاء الراشدين ، وأوائل عصر بنى أمية — جارية على سنن الفطرة كما أسلفت ، فليس فيها تكلف سجع ، ولا مراسيم فى بدء وختم ، ثم روعى فيها الإجمال أحيانا ، والإسهاب أخرى ، على حسب مقتضيات الأحوال .

وأول من تنوق فى الكتابة ، وأعمل فيها الصنعة — هو سالم مولى هشام ابن عبد الملك ، أستاذ عبد الحميد الكاتب . ونُسى سالم ، وعرف عبد الحميد ؛ لأن الثانى وضع للكتابة أصولا وقواعد اشتهرت عنه ، وذاعت بين الناس ، منسوبة إليه ، وأشاد الكتاب بذكرها من بعده .

وهذه هى الكتابة الفنية الصناعية ، أو ماسمى منذ أواسط الدولة العباسية بفن الإنشاء ، وهى كتابة لا تكتسب ، كما قدمت ، إلا بالثقافة والمرانة والإلمام بكثير من العلوم والفنون .

---

(١) يراجع كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ، وكتاب مطالع البدور فى منازل السرور لابن عبد الله البهائى .

ومن حيث إن الكتابة بمعناها المتقدم لم يقصد إليها قصداً ولم تظهر واضحة الصورة، متعددة الأغراض، إلا ابتداء من العصر العباسى رأيت أن أسوق فى صدر البحث نماذج يمثل كل منها عصرا من عصور تاريخ الأدب العربى أصدق تمثيل وأوضحه، حتى يتضح ما أذكره بالموازنة بين هذه النماذج:

النموذج الأول

كتب الحسن بن وهب (١) يشكر:

من شكر لك على درجة رفعتَه إليها، أو ثروة أفدْته إياها، فإن شكرى لك على مُهجة أحيَيْتَها، وحشاشة أبقيتَها، ورَمق أمسكته، وقمت بين التّلف وبينه، ولكل نعمة من نِعمَ الدنيا حد يُنْتَهى إليه، ومدّى توقف عليه، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرْف، خلا هذه النعمة التى فاتت الوصف، وطالت الشكرَ، وتجاوزت كل قدْر، وأتت من وراء كل غاية، وردّت عنا كيدَ العدو، وأرغمت أنف الحسود، نلجأ منها إلى ظل ظليل، وكنَف كريم، فكيف يشكر الشاكر! وأين يبلغ جهد المجهود! (٢)

النموذج الثانى

قال ابن العميد (٣) يصف السفن فى البحر:

وكأن العُشارِياتِ وقد رُدّيت بالقار، وحليت باللجين والنضار ــ عرائس

---

(١) كان صاحب ديوان الرسائل للمتوكل العباسى، وهو الحسين بن وهب بن سعيد بن عمرو الكاتب، وله شعر جميل ولكنه استشهر بالكتابة ــ (فوات الوفيات ص ١٣٦)

(٢) نهاية الأرب ج ٣ ص ٢٥٢ . وتراجع رسالة سهل بن هارون فى البخل فى كتاب العقد الفريد ج ٤ وفى كتاب البخلاء للجاحظ . وفى ج ٣ ص ٣١٧ من نهاية الأرب .

(٣) هو أبو الفضل محمد بن الحسن، عماد ملك آل بويه، وصدر وزرائهم أيام ركن الدولة، كاتب بليغ حسن الترسل، جزل الألفاظ، بارع المعانى، حسن السياسة، وأكيس أهل الرياسة، لقب الجاحظ الأخير، والأستاذ والرئيس، وقد صدقه

منشورة الذوائب ، مخضوبة الحواجب ، موشحة المناكب ، مقلدة الذوائب ، متوجة المفارق ، مكللة العوانق ، فضية الحلل والقراطق ، أو طواويس أبرزت رقابها ، ونشرت أجنحتها وأذنابها ، وكأنها إذا جدت فى اللحاق ، وتنافست فى السباق — نوافر نعام ، أو حوافل أنعام ، أو عقارب شالت بالإبر ، أو دهم الخيل واضحة الحجول والغرر ، وكأن المجاديف طير تنفض خوافيها ، أو حبائب تعانق حبائب بأيديها (١)

النموذج الثالث

قال القاضى الفاضل (٢) يصف قلعة نجم :

هى نجم فى سحاب ، وعقاب فى عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة ، عاقدة حبوة صالحها الدهر ألا يحلها بقرعه ، بادية عصمة صالحها الزمن على ألا يروعها بخلعه ، فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لم تطبع طبع حمص فى العقارب ، وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة المعلومة فى الأقارب ، فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثرت فيها الحجارة جدريا بضربها ، ولم يصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها ، فاتسع الخرق على الراقع ، وسقط

من قال فيه : إنه سبق من قبله ، وأتعب من بعده . ولمكانته من الرياسة ، انتجعه الشعراء ، ومدحه المتنبى والصاحب بن عباد وغيرهما ، مات سنة ٣٦٠ هـ (راجع يتيمة الدهر للثعالبى ج ٣ ص ١٣٧ وما بعدها : وتاريخ ابن خلكان ج ٢ ص ٥٧ وما بعدها) .

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٠

(٢) هو أبو على عبد الرحيم البيسانى ، اللخمى الأصل ، العسقلانى المولد المصرى النشأة ، تقدم فى صناعة الإنشاء ، وكانت له طريقة خاصة نسبت إليه على ماسيأتى بعد فكان كلامه شعراً منثوراً مليئاً بالمحسنات البديعية ، وقد جاء فيها بالمعجز الدال على سعة اطلاع ودراية بفنون اللغة ، فلما حاول غيره تقليده قصر شوطه دون خطو القاضى الفاضل . استوزره صلاح الدين الأيوبى فكان نعم الوزير سياسة وكياسة ، ثم وزر لابنه العزيز ، ثم لأخيه الملك الأفضل . مات سنة ٥٩٦ هـ (راجع تاريخ ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦)

سعده عن الطالع ، إلى مولد من هو إليها طالع ، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا [(١)]

النموذج الرابع

قال شهاب الدين محمود الخفاجي [(٢)]

حتى أتيت كورَةَ خراسان . فإذا بها قَيْلٌ نصَب عِرْضَه لسهام الهوان ، مقلِّدا فى ترجيح البخل مذهب سهل بن هارون ، كأنه لم يسمع قوله تعالى : «ومَنْ يُوقَ شحَّ نفسِهِ فأولئكَ همُ المفلِحُونَ» . فطويت حديثه على غرِّه ، وأتيته لأقف على جَلِيَّة أمره ، فلما جست خلال إيوانه ، قرأت عنوان حاله على وجوه غلمانه ، وسمعته يقول لمن امترَى أخلافَ دِرَّته ، وشبع من خلّته ، وحمضه برؤية جرَّته : ياهذا ، صناعتنا واحدة ، لو لم تدرُج من عشك كانت الراحة فائدة [(٣)] .

النموذج الخامس

قال السيد مصطفى لطفى المنفلوطى [(٤)]

وليس الشأن فى عجز اللغة وضيقها ، وإنما الشأن فى عجز المشتغلين بها عن

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٤٠٢ . ويراجع أيضاً ص ١٣٧ وما بعدها ج ٥ . ورسالة القنديل والشمعدان ج ١ ص ١٢٤ من نفس الكتاب .

(٢) ولد فى قرية سرياقوس إحدى قرى مديرية القليوبية ، وقد نشأ بمصر وتعلم علوم اللغة ، وبرع فى فنون الأدب بالإضافة إلى أدباء عصره .

(٣) المنتخب ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٤) ولد فى منفلوط ، وينسب إليها ، ولما أيفع رحل إلى القاهرة ، والتحق بالأزهر وتعلم فيه ، وكان له شغف بالأدب ، فزاول الكتابة . فظهر بين أقرانه ، وساعده على الظهور اتصاله بجريدة المؤيد التى عمل محرراً فيها ، ثم كان موظفاً بالمعارف فالحقانية . والمنفلوطى كان كاتباً مبدعا ، لين القول رفيقه ، بارعاً فى نسج عباراته ، وتصوير معانيه ، ولا سيما ما يتصل منها بالشعور الحزين ، سواء أكان ذلك فيما ترجم له أو ابتدعه . مات سنة ١٢٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م .

الاضطراب فى أرجائها ، والتغلغل فى أعماقها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البِلّة التى لاتثلج صدرا ، ولا تشفى أواما .

وكل ما يعد عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة ، وهو فى مذهبي أهون الذنوب وأضعفها شأنا مادمنا نعرف وجه الحيلة فى علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه ، أو التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق فالأمر أهون من أن نحار فيه ، وأحقر من أن نقضى أعمارنا فى العراك ببابه ، والمناظرة فى اختيار أقرب الطرق إليه ، وأجداها عليه

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية . فليس كل متقدم ينفعك ولا كل متأخر يفيدك ، ولا أحسبك إلا واقفا بين يدى هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب ، لأن حسن الاختيار طَلِبة تعثر بين يديها الآمال ، وتتقطع دونها أعناق الرجال ، فالجأ فى ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقا سليما ، وقريحة صافية ، وملكة فى الأدب كمصفاة الذهب ؛ فإن فعلت وكنت ممن وهب لهم الله ذكاء وفطنة ، وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يأتى إليها من البذور الطيبة — عدت وبين جنبيك ملكة فى البيان زاهرة ، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه تناثر الورود والأنوار من حديقة الأزهار (١)

الكتابة الفنية فى العصر العباسى

تفتحت عقول الناس على شىء جديد لم يكونوا يألفونه من قبل : فإنهم اختلطوا بالفرس والرومان واليونان وقبط مصر وغيرهم ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم ، وليس موضوع بحثنا أن نقف على مبلغ هذا التأثير أو ذلك التأثر ، ولكننا يكفينا أن نعرف أن من العرب من تعلم هذه اللغات واستطاع أن يترجم منها ، وأن من الأعاجم من تعلم اللغة العربية ، فحذقها وبرع فيها . ونقل هؤلاء وأولئك

(١) النظرات ج ٢ ص ١١ - ١٣

إليها كثيرا من الكتب الفارسية والرومانية واليونانية ، فأثرت فى الأسلوب العربى ، ووسعت دائرة الخيال العربى ، وأطلقت الفكر العربى من الدائرة الضيقة التى كان فيها إلى دائرة واسعة ، فيها علوم جديدة لم يعرفها العرب ، ولم يسمعوا بها من قبل : كالفلسفة والمنطق والإلهيات وغير ذلك .

كان ذلك كله سببا فى أن تنحو الكتابة نحوا فنيا صناعيا جديدا ، وبعد أن كانت مقصورة على الرسائل والإخوانيات والعهود والوصايا — خرجت إلى كتب التأليف والترجمة المكتوبة بلسان عربى مبين ، والمرتبة فيها المعانى والعبارات بنظام فنى خاص .

وكان عصر الدولة العباسية عصر تنظيم الدواوين وتعددها ، وتقسيم أعمال الكتاب وتوزيعها ؛ فنقل أبو جعفر المنصور نظام ترتيب مملكة كسرى أنو شروان إلى خلافته فقسمت أعمال المملكة إلى نحو عشرة دواوين أشبه بدواوين الوزارات فى عصرنا ، إلا أن رئيس كل ديوان لم يسم باسم الوزير إلا فى عصر المأمون ، إذ لم يكن له وزير أكبر ، بل كان الوزير فى عصر بنى العباس واحداً ، وهو المسئول عن جميع أعمال الخلافة أمام الخليفة وحده ، وكان هذا الوزير فى أكثر الأحيان من أبلغ الناس وأكتبهم .

وكان ديوان الرسائل هو الذى تصدر عنه كل كتب الخلافة الهامة ، ويتولاه وزير الدولة الأكبر أو أبلغ كاتب فى عصره .

وقد نشأ مع عبد الحميد الكاتب جيل اهتدى بهديه ، وأتم ما بدأ ، ووصل بالكتابة الفنية غاية ليس بعدها غاية ، من حيث الأسلوب ، والمعنى ، والإيجاز ، والإطناب حيث يجب الإطناب ؛ وقسم الباحثون فى تاريخ الأدب هؤلاء الكتاب الذين نهجوا نهج عبد الحميد ست طبقات ، والطبقة التى « جمعت بين الآداب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ، وإليها انتهت البلاغة (1) » ـ هى الطبقة التى ربيت فى عصر المأمون ، والتى كان من فرسان حلبتها

(١) يراجع كتاب العصر العباسى لأستاذ الشيخ احمد الإسكندرى ص ٤٢

ابن الزيات [١] وإبراهيم الصولى[٢] والحسن بن وهب (راجع النموذج الأول).

وقد شمل النثر الفنى فى هذا العصر أمورا كثيرة ما كانت معروفة من قبل ، أهمها :

١ — كتابة الدواوين : وكان يتولاها أول الأمر الخلفاء أنفسهم ، ثم ساعدهم الوزراء ، ثم تولى أمرها كتاب ملكوا ناصية العربية ، وكان لبعضهم دراية باللغات الأخرى ، كما قدمنا ، فأبدعوا فى الكتابة ما شاءوا .

٢ — استعملت الكتابة فى بعض أغراض الشعر ، فكانوا بها يمدحون ويهجون ، ويعتبون ويتلاحون ، ويصفون ويرثون ، وغير ذلك .

٣ — كتابة البحوث الدينية ، والمسائل العلمية : كمسائل الفلسفة والمنطق ومسائل الخلاف ونحو ذلك .

٤ — كتابة أخبار وفصول وقصص يقصد منها إلى التسرية عن النفس ، حيث يجد القارىء متعة ولذة ، وأى شىء يقرؤه القارىء ، فيدخل السرور على نفسه ، أكثر من قصة فكاهية ، أو خبر مستغرب ، أو تسفيه خطيب ، أو نقد قصيدة أو ما جرى فى مجلس مناظرة ، أو حلقة درس ، أو نحو ذلك !

***

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات . وكان جده زياتا فى بغداد ، وأبوه كان من مياسير التجار . تعلم محمد أولا الكتابة والحساب ، ثم قرأ الأدب على علماء عصره لحذقه ونبغ فيه ، وكانت ملكة الشعر عنده قوية ، ولولا تصرفه فى الكتابة وتولى أمرها لعرف بشعره ، وزر للمعتصم فنهض بأعباء الوزارة ، وكان فظا غليظا فلما مات المعتصم ، غدر به الواثق وعذبه فى السجن حتى مات سنة ٢٣٣ هـ - (تاريخ ابن خلكان ج ٢ ص ٥٤)

(٢) هو أبو اسحق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول كاتب العراق ، نشأ ببغداد وتأدب بأدب أئمتها ، وقرض الشعر صغيراً ، فنبغ فيه ، وكتب فبرع فى الكتابة ، إلا أنه لم يكن فطنا فى جباية الخراج ، واستخراج الأموال ، وضبط الحساب ، لم يتول الوزارة يوما ، لما عرف عنه من أنه ماجن ، كثير الدعابة - (يراجع تاريخ ابن خلكان ج ١ ص ٩)

ظل الأمر كذلك حتى غلب الأعاجم على العرب ، وصاروا أولى الأمر فى الممالك الإسلامية إلا قليلا ، فبدأت الكتابة الفنية تتجه اتجاها جديداً ، وبدأت تشارك الشعر فى أخيلته وأغراضه ومقاصده . وتشبيهاته واستعاراته ، والتنوق فى اختيار لفظه ، وقوة حبكه ، فالتزم فيها السجع ، ولكنه كان قصير الفقرات ، « والسجع يكسب الكلام جرساً خاصاً ، ويدنيه من الشعر ، وبعضهم يسميه الشعر المقفى » ، واضطر الكتاب فى ذلك العصر إلى أن يستعملوا فى قوه التأثير حل الأبيات الشعرية المشهورة . وإلى أن يضمنوا كتاباتهم آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية . وحكما وأمثالا على ما سيأتى بعد .

وأول من أشاع هذا النوع من الكتابة حلبة ابن العميد ومن جاء بعدهم ، ولست أقصد بذلك أن الكتابة كانت سائرة فى حدود طريقة عبد الحميد حتى كان ابن العميد فسلك بها الطريق الأخرى ، ولكنه قبيل ظهور ابن العميد استعمل كثير من الكتاب الازدواج فى كلامهم ، فلما كان ابن العميد التزمه التزاما ، وكان ذلك فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، واستمرت طريقته إلى أواسط القرن السادس الهجرى ، وبالرجوع إلى النموذج الثانى تعرف الفرق بين الطريقتين : طريقة عبد الحميد ، وطريقة ابن العميد[١]

وأشهر رجال مدرسة ابن العميد أبو الفضل محمد بن العميد المعلم الأول لهذه الطريقة ، وتلميذه إسماعيل الصاحب بن عباد [٢] . وأبو بكر الخوارزمى[٣]

---

(١) بالرجوع إلى يتيمة الدهر للثعالبى تجد الكتابة الفنية بهذا الوصف واضحة تمام الوضوح

(٢) هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد ، صدر المشرق ، نشأ فى حجر الوزارة ثم ورثها عن أبيه ، وكان بليغاً جواداً محسناً ، قصده العافون ، وورد شرعته الشعراء والكتاب فمدحوه ، وسار بذكره الركبان فى المشرق والمغرب ، وذاع صيت كتابته وشعره ، مات سنة ٣٨٥ هـ (راجع يتيمة الدهر للثعالبى ج ٣ ص ١٦٩ وما بعدها ، وتاريخ ابن خلكان ج ١ ص ٧٥ ، ٧٦)

(٣) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ، من فضلاء خوارزم ، كان ناثراً

وأبو الفضل أحمد بديع الزمان الهمذانى [١] . وأبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابى [٢] . وهؤلاء جميعا متعاصرون فى القرن الرابع . وفى هذا العصر لقب كاتب الإنشاء بالشيخ فى خراسان ، وبالأستاذ فى فارس والعراق

وملخص وصف هذه الطريقة (١) تقريب النثر من الشعر فى لفظه وأسلوبه وقوافيه (٢) وكثره استعمال أنواع البديع فيه (٣) وتغليب المعانى الخيالية فيه على المعانى العقليه والنظرية حتى أصبح لا يفارق الشعر إلا فى الوزن فقط ، ولذلك كان حقيقا بأن يسمى الشعر المنثور ، كما سماه ابن خلدون وغيره .

شاعراً عالماً بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، درس كتب اللغة والنحو والشعر ، وكان بارع الجد ، حلو الهزل ، ظريف النكتة ، له ديوان رسائل ، وديوان شعر . مات سنة ٣٨٣ هـ (راجع يتيمة الدهر للثعالبى ج ٤ ص ١٨٣ ، ووفيات الأعيان ج ٩ ص ٥٢٣)

(١) هو أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذانى ، كان خفيف الروح ، ظريف النثر مليح النظم ، قوى الحافظة ، حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، كان يترجم من الفارسية إلى العربية ، غادر همذان سنة ٣٨٠ هـ ، وتتلمذ لأبى الحسين بن فارس . والصاحب ابن عباد ، وتزود من ثمارهما ، ثم قدم جرجان . وعاش مدة فى أكناف الإسماعيلية ثم رحل إلى نيسابور سنة ٣٨٢ هـ ، وأملى بها مقاماته ، وساجل أبا بكر الخوارزمى فكان بينهما مكاتبات ومناظرات ومناضلات فذاع صيته ، وخلا له الجو بعد وفاة الخوارزمى ، وكان سفارا ، فلم يترك بلدا من بلاد المشرق إلا غشيه ، ثم ألقى عصاه بهراه حتى مات سنة ٣٩٨ هـ . (راجع يتيمة الدهر للثعالبى ج ٤ ص ٢٤٠ ، ومطالع البدور ج ٢ ص ١٢٦)

(٢) هو إبراهيم بن هلال الصابى ، كان كاتب الإنشاء ببغداد ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ أيام عز الدولة بن بويه ، ثم غضب عليه عضد الدولة ، وأبعده عز الديوان وله شعر رائق ، ونثر بديع ، مات سنة ٣٨٤ (راجع يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ٢١٨ وتاريخ ابن خلكان ج ١ ص ١٢) ومع أنه كان صابئيا لم يقبل أن يدخل فى الإسلام بالرغم من إلحاح عز الدولة ، وعرض الوزارة عليه إن أسلم ـ فإنه كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويصوم معهم رمضان ، وكان يحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه ويجرى على سن قلمه

ويعتبر الحريرى فى مقاماته الغاية التى وصلت إليها هذه الطريقة .

وإذا أردنا تحليل هذه الطريقة إلى عناصرها التى تتركب منها مثلناها فيما يأتى :

١ — حل الأبيات الشهيرة ، أو ذات المعنى الخيالى البديع

٢ — تضمين الأبيات الشهيرة الجارية مجرى الأمثال والحكم ، لا على وجه الرواية والاستشهاد ، بل على طريقة اقتباسها على أنها من كلام المنشىء ، من غير تنويه باسم صاحبها ، فقد تضمن هذه الأبيات إما بتمامها ، وإما بشطورها .

٣ — تضمين الأمثال والحكم النثرية على هذه الطريقة الآنفة الذكر ، أو التلميح إلى واقعاتها ومضاربها

٤ — الاقتباس من القرآن والحديث ، لا على أنه منهما ، بل على أنه من جملة كلام الكاتب ، ولذلك كان الكاتب يترخص لنفسه أن يغير نظم الآية أو الحديث تغييرا تاما

٥ — الإشارة إلى الحوادث والأيام الشهيرة للعرب والعجم

٦ — الإتيان بكثير من أسماء رجال التاريخ على سبيل القياس عليهم ، أو التشبيه بهم ، أو التعجيز

٧ — التزام السجع القصير الفقار غالبا ، وإحكام قوافى السجع هى بعينها إحكام قوافى الشعر

٨ — الإكثار من المحسنات البديعية من الاستعارة ، والطباق ، والجناس وبخاصة جناس الاشتقاق ، وحسن التعليل ، ومراعاة النظير

٩ — التوجيه بمصطلحات العلوم والصناعات وأدواتها ؛ وهذه الطريقة عمت بها البلوى عموما فاشيا ، ففتنت كتاب خراسان والعراق والجزيرة والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس ، ولم يتخلص منها العالم العربى إلا منذ قرن على الأكثر .

وعمت هذه الطريقة فى مصر زمن الفاطميين ، وفى الأندلس [1] وتولدت

---

(١) راجع رسالتى ابن زيدون الجدية والهزلية

من طريقة القاضى الفاضل . فكانت ضغثا على إبالة ، وأساسها التورية والطباق وجناس الاشتقاق [1]

ولما كان للتورية معنيان : قريب وبعيد ، وكل منهما له مرشحات — طالت الأسجاع فى طريقة القاضى الفاضل ، وتداخل بعض أجزاء فقارها فى بعض ، وانبهم فهمها على كثير من الحذاق ، فضاعت معها بلاغة المتقدمين (راجع النموذج الثالث)

واستمرت هذه الطريقة سائدة على كتابة الإنشاء مدة الدولة الأيوبية ، ودولتى المماليك ، ثم اضمحلت فى عصر العثمانيين . وعادت إلى طريقة هى مجرد أسجاع متكلفة ، فلا هى ضاهت طريقة ابن العميد . ولا طريقة القاضى الفاضل وإن كانت لا تخرج عن أصولها فى الجملة (راجع النموذج الرابع)

وأراد كتاب الأندلس فى دولة بنى الأحمر محاكاة كتاب مصر والشام فلم يفلحوا فى توليد التورية لدقة النكت فيها ، وهى تكاد تكون خاصة بالمصريين

ولقد طغى التزام هذه الطريقة على كل شىء حتى الكتب العلمية ، ففسدت عباراتها . وتعب مؤلفوها فى تحريرها ، وأتعبوا من حاولوا الاستفادة منها من بعدهم ، وهأنذا أسوق إليك قطعة من تاريخ العتبى لتعرف مبلغ ما وصلت إليه الكتابة

قال فى تاريخه ج ١ ص ٦٠ ما نصه :

« وحكى[2] لى — رحمه الله — فى غمار ما كان يذكر من مواقفه ومقاماته ، وآثاره فى عدوه ونكاياته : إنى واقعتهم فى بعض وقائعهم بهؤلاء الرفقاء ونحن فى العدد اليسير . وهم فى الجم الغفير ، وطالت بنا وبهم ممارسة الحروب حتى أقوى الناس من الزاد ، وعجزوا عن الامتيار والاستمداد . ولم يكن أمامنا إلا السيوف القواضب ، ووراءنا إلا المهامه والسباسب ، فصرخوا إلى بما دهاهم ، وسألونى

---

(١) راجع : معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص ، وخزانة الأدب لابن حجة ، ونفحات الأزهار للنابلسى ، وأنوار الربيع ، والطراز ، والمثل السائر — تجد فيها جميعها أمثلة كثيرة متنوعة لجميع أنواع البديع التى كثرت وشاعت فى ذلك العصر

(٢) يعنى سبكتكين

حيلة الثبات على ما عراهم ... فولوا الأدبار ، بين قتيل مزمل ، وجريح مرمل ، وعقيل مرهق ، وأسير بالقد موثق ».

تصور مؤلفا فى علم التاريخ يجرى صاحبه فى تأليفه على هذا المنوال : يستكره السجعات ، ويرغم الألفاظ على الاستقرار فلا تستقر ؛ وهذا هو العتبى عشير سبكتكين ، فما بالك برجال القرن التاسع إلى الثانى عشر

الكتابة الفنيه فى العصر الحاضر

أطل العصر الحاضر على الوجود ومعظم الممالك العربية فى أيدى أمة أعجمية مستبدة ، لا تستعمل اللغة العربية فى رسائلها الديوانية الهامة منذ حين ، وهى الأمة التركية ، فامحت البلاغة المضرية التى بقيت ضاربة بجرانها فى تلك الممالك أكثر من ألف سنة ، وأصبحت الكتابة مقصورة على الرسائل الإخوانية ، مثل : رسائل السلام والشوق والدعوة والتعزية والتهنئة ، ونحوها ، على قله من يجيدها ، وقل العمل بطريقة القاضى الفاضل لوعورة مسلك التورية على كتاب هذا العصر ، لضعف ملكة اللغة والأدب فيهم ، وإنما كانت الكتابة مجرد أسجاع ركيكة ، ومعانيها عادية أو مسروقه من معانى المتقدمين .

ولم يكن للإصلاح العظيم الذى قام به ذلك المصلح الكبير محمد على باشا — أثر بين فى ترقية الكتابة الفنية فى أوائل هذا العصر لأنه — رحمه الله — عنى أولا بترقية العلوم المنتجة ، والصناعات ، وإنشاء الجيش والأسطول ، وأعمال الرى ، فظهر فى مصر فحول من الأطباء والمهندسين ، وقادة الجيش ، وأمراء البحر — قبل ظهور أمثالهم من الأدباء والكتاب ، ولما عمت النهضة جميع الفنون كان ظهور رجال الأدب متأخراً ، ولم تظهر آثارهم واضحة إلا فى أواخر حكم سعيد باشا .

وكانت الأسجاع لا تزال غالبة حتى على الكتب المترجمة عن الفرنجية : كالقصص والروايات ، بل نجدها مثبتة فى كتب التاريخ والجغرافية التى ترجمها رفاعة بك الطهطاوى وأبو السعود .

ولما انتشرت الجرائد اليومية التى تستدعى السرعة فى كتابتها ، وترجمة أخبارها ، وكان التأنق فى السجع يحول دون إصدارها — بطل السجع فى كتابة الجرائد ، إلا فى بعض مقالات كان يرسلها الأدباء من غير أصحابها ، فيتأنقون فى كتابتها ، ويحرصون على سجعها .

ولما حدثت الثورة العرابية تغير مجرى الأفكار ، وطرق البيان ، وانتشرت الخطابة المرتجلة من زعمائها ، فكانت بالطبع غير مسجوعة ، وكان بعضها ينشر فى الجرائد فتصير مقالات إنشائية ، وكثرت الترجمات من اللغات الأجنبية على أيدى أدباء تعلموا فى أوربة ، ولم تصبهم عدوى السجع ، فأثر كل ذلك فى تحول الكتابة من الطريقة العتيقة الملازمة للسجع ، إلى الكتابة المرسلة على طريقة ابن المقفع والجاحظ ، وغيرهما من رجال العصر العباسى الأول .

وكان للأستاذ جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، أثر أى أثر فى حضّ الأدباء على اجتناب السجع ، وكان لمدرسة دار العلوم ، وتعاليم أساتيذها وأثر المتخرجين فيها ، الفضل الأكبر فى تخريج كتاب يجانبون السجع ، ويكتبون على طريقة أساتذتهم ، فعاد السجع إلى مقامه الأول فى صدر الإسلام والعصر الأول من بنى العباس : أى أنه يكون كالملح فى الطعام ، وخيره ما جاء عفواً .

وقد اتسعت أغراض الكتابة فى هذا العصر لاتساع أفق الحياة ، وشمولها أموراً ما كان يعرفها السابقون ، فاستعملت فيما تقدم من الأغراض الأولى ، ماعدا الكتابة الديوانية ، فإنها ما زالت عندنا فى حال سيئة ، ولم تساير نهضة اللغة والأدب ، وزاد على ما تقدم ما يأتى :

١ — تصوير الحياة من نواحيها المختلفة .

٢ — كتابة القصص والروايات ، موضوعة كانت أو مترجمة .

٣ — شئون السياسة .

٤ — تحرير البحوث والتحقيقات العلمية المتصلة بعلوم المتقدمين من أبناء العرب وغيرهم .

٥ — ما نسميه الآن خطباً ، لأن هذا ليس خطباً فى الواقع ، ولكنه

كتابة فنية يحررها صاحبها ، ثم يقف بين جماعة من الناس ، ويقرأ ما أعده من مكتوب فى يده ، ومثل هذا ليس خطيباً ، ولكنه فى الواقع قارىء بيان مُعَدّ ، وإن كان يجب أن يشارك الخطيب فى جهارة الصوت ، وحسن الإلقاء ، واتزان الحركات ليتهيأ له التأثير فى الجماعات .

أما الخطابة الارتجالية التى لاتحتاج فى الغالب إلى أقيسة المناطقة قدر احتياجها للآلة الشعرية ، فإن شأنها ما زال ضعيفاً عندنا إلى اليوم ، ولكننا نرجو لها مستقبلا زاهراً يساعد عليه النظام النيابى ، وما يستدعيه من مساجلات عاجلة داخل مجلس النواب والشيوخ وخارجه ، وما يحتاج إليه تعدد الاحزاب من حاجة كل حزب إلى نشر مبادئه ، ومحاولة إقناع الناس بالانحياز إلى جانبه .

ومما يؤخذ على الكتابة الفنية فى هذا العصر فى كتب السياسة والتاريخ والاجتماع ، وفى الصحف والروايات — أنها أصبحت طريقتها خطابية غالباً ، سهلة الألفاظ ، عادية الأساليب ، كثيرة الجمل المترادفة ، مسهبة من غير داع إلى الإسهاب ، خالية من الجمال الفنى ، ولربما كتبت مقالة تستغرق صفحة من جريدة يومية كان من الممكن كتابة المعانى التى تدل عليها فى بضعة عشر سطراً .

ومع ذلك فإن البلاغة بالإيجاز لم تعدم أنصاراً أخذوا بالبلاغة القديمة التى أساسها تأدية المعنى الكثير باللفظ القليل . وأسبغوا عليها ثوباً ضافياً من الجمال الفنى ، واقتبسوها من مطالعة كتب المتقدمين التى سهل انتشار المطابع اقتناءها ، مثل كتاب الأغانى ، وتاريخ الطبرى ، وكامل المبرد ، وأمالى القالى والمرتضى ، وكتب الجاحظ ، وغير ذلك ، وشاركوا فى تعرف العلوم والآداب الإفرنجية ، فصبغوا المعارف والأفكار الأوربية بصبغة عربية .

محمد أحمد برانق
مدرس بمدرسة الناصرية

الخطـــابة

بقلم علي النجدي ناصف

قول يلقيه المتكلم على جمع من الناس فى أمر ذى بال ، وهى فن من الكلام قديم النشأة ، بعيد العهد بالحياة : عرفه الإنسان منذ أخلد إلى المواطن ، وكونت منه الروابطُ الاجتماعية قبائل وجماعات ، وحفزته مطالب العيش إلى التعاون والمناصرة .

والخطابة من أهم وسائل الدعوة والإعلان ، بل لعلها أهمها جميعا ، ففيها تلتقى الأبصار ، وتتراءى الأشخاص ، ولا يكون التأثير بالقول وحده ، ولكن به . وبالجو الذى يخلقه الخطيب من حوله ، والشعورِ الذى يشيعه بصوته وشخصيته ، وإيماءاته ، وإيمانه بما يدعو إليه . وإخلاصه له . ثم هي بعد أكثر شعاباً وأوسع مجالا للافتنان والتنويع .

لذلك تنفق سوقها ، وتعلو كلمتها إبان الثورات وحين الخلافات فى السياسة أو المذاهب أو المسائل الاجتماعية ، وكلما حزب أمر ، أو عنت مشكلة ؛ فإذ ذاك تلتف المحافل ، وتحتشد الجموع ، ويتصاول الخطباء : كل يؤيد رأيه ، ويكر على خصومه بالنقد والتفنيد ، حتى يستبين الرأى ، وتفلج الحقيقة

وأكثر ما تينع الخطابة فى عصور الحرية والمساواة ، حين يباح لكل امرىء أن يجهر بآرائه ، ويفضى بدخيلة نفسه آمناً مطمئناً ؛ فتنطلق الألسنة بالقول تحبيراً وارتجالا ، كلما دعت داعية ، أو عرض عارض ؛ فإذا هى مدربة نشيطة لا تعيا بالقول ، ولا يهتاب أصحابها المحافل : وتفعل المحاكاة وحب الصالح العام ، أو الرغبة فى الشهرة — فعلها ، فيكثر الخطباء ، وتظهر المواهب الكامنة ؛ ويعالج بالخطابة كل كبير وصغير من الأمر .

أما فى عصور الدعة والاستقرار ، فتصير الخطابة إلى الفتور والضعف : إذ لا يكون ثمة مجال لشكاة أو سخط ، ولا سبب للخصام والمكافحة ؛ فينصرف

الناس إلى أعمالهم ، ويقصرون جهدهم عليها غير معنيين بالشئون العامة . إلا ما اتصل بهم ، وعلى قدر تأثيره فى مرافق حياتهم الفردية .

وفى عصور القهر والطغيان ، تغلب الرهبة ، وتشيع فى الناس تقية السلطان ؛ فيحتجنون آراءهم وعقائدهم ، لا يفضون إلا همسا ، وعلى رقبة وتخوف . فتخفت الأصوات ، ويدرك الألسنة ما يدرك كل أداة أصابها الترك والإهمال .

أتيح هذا وذاك لعرب الجاهلية وأتيح لها غيرهما من الأسباب الطبعية والاجتماعية التى ساعدتها على البراعة فى الخطابة إلى درجة يعز نظيرها عند الأمم الأخرى ؛ إذ كانت العرب أمة بدوية ، كثيرة الضرب فى الأرض لطلب الأمن وارتياد الخصب ومساقط الغيث ؛ وكانت تتألف من قبائل متقاطعة . يعتدى بعضها على بعض لأتفه الأسباب . فكانت فى حاجة دائمة إلى المنطق الفصيح والبيان القوى ، للمشاورة فى الأمر ، أو للمفاخرة والمنافرة ، أو لإثارة الحمية فى النفوس ، أو لتهدئة الثائرة وإنجاح السفارة بين المتحاربين ؛ ثم إنها كانت أمة أمية تعول فى التفاهم والخطاب على القول بالألسنة لا على الكتابة بالأقلام ، ولغتها لينة مطواع ، كثيرة المترادفات ، متنوعة الأساليب ، مختلفة طرق الأداء ؛ واجتمع لها مع كل أولئك : صفاء الطبع ، ولطف الحس ، وحدة المزاج ، وسرعة البديهة ، وتوفر الشعور .

والخطابة كغيرها من فنون القول : يختلف تصور الأمم لها باختلاف الحالة العامة لكل منها ؛ بل إن تصورها ليختلف عند الأمة الواحدة بحسب اختلاف الأطوار التى تمر بها ؛ فالعربى فى الجاهلية لم يكن فى كثير من الحالات يتصور خطبته موضوعا محدودا ، ذا أجزاء متماسكة يتركب منها ، ولا يتم القول فيه إلا باستيفائها . وإنما كان يتصورها رقعة بلاده ، ميدانا رحيبا كثير الفجاج ، لا عليه أن يجول فيه ويصول أنى يشاء ؛ لذلك كان يرسل نفسه على حريتها ، فإذا هو يسجع تارة ويترسل مرة ويتردد بين السجع والترسل أخرى ، وإذا هو ينثر حكما أو يضرب أمثالا لا يعنيه أن يتصل بعضها ببعض ، أو لا يكون بينها شىء من الاتصال ، كأنما كان يرى فى الالتزام عدوانا على

حريته المقدسة ، وتقييدا لسجيته الطليقة التى لا عهد لها بالخضوع والاستسلام. وهو على أى حال كيس ظريف ، يملؤك إعجابا برشاقته وخفة روحه وقرب مأخذه وسرعة تناوله ؛ حتى ما يكاد يجهدك أو يشغل من فكرك بقدر ما يثير من وجدانك [١] ، ذلك بأن جمهرة العرب فى الجاهلية لم تكن لها ثقافة علمية راسخة تقوم على قواعد وأصول مقررة كالتى للأمم العريقة فى الحضارة ، وإنما كان لها معارف فطرية استمدت مسائلها من التجارب الشخصية والنظر القريب إلى ظواهر الكون وما يقع فيه من الأحداث والتقلبات .

ومن أشهر خطباء العرب : كعب بن لؤى الجد السابع للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيس بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء ، وقس بن ساعدة [٢] الإيادى خطيب العرب المضروب به المثل فى البلاغة . وأكثم [٣] بن صيفى أحد حكماء العرب وخطبائها المصاقع .

وقد اجتمع لليونان والرومان بعض الأسباب التى مكنت العرب من حذق الخطابة والتفوق فيها ؛ لذلك كان لها عند الأمتين شأن جليل ومكانة سامية ، غير أن حظ اليونان من هذه الأسباب كان أعظم ، وأوجه الشبه بينها وبين العرب أكثر ، فطبيعة البلاد اليونانية قسمت اليونان دويلات كثيرة تكون كل منها وحدة سياسية قائمة بنفسها ، فكانت بذلك مشابهة للعرب فى انقسامها إلى قبائل متفرقة منفصل بعضها عن بعض ، كذلك كانت اليونان تشبه العرب بعض الشبه في التعلق بالحرية وحدة الذهن والإعجاب بالنفس وحب الفصاحة ؛ حتى كانت فى بعض عصورها تحتقر الزراعة والصناعة ، وتربى ناشئها على معالجة العيش بالبلاغة والنبوغ فى الخطابة والجدل ؛ وأهم ما بين الأمتين من الفوارق ، أن اليونان كانت أوسع خيالا وأقدر على اصطناع الخرافات والأساطير ، وكانت

(١) راجع خطب كعب بن لؤى وقس بن ساعدة بسوق عكاظ ، وأبى طالب فى خطبة النبى (صلى الله عليه وسلم) للسيدة خديجة فى صبح الأعشى : ١ : ٢١١ - ٢١٣

(٢) عمر قس طويلا ومات قبل البعثة

(٣) أدرك بعثة النبى (صلى الله عليه وسلم) وحث قومه على اتباعه. وفى إسلامه روايات

على حظ عظيم من العلوم والفنون ؛ لذلك أنجبت أساطين الحكمة والفلسفة .
وكانت أثينا فى بعض عصورها مشرع الحكمة ومشرق النور والعرفان

أما الرومان فتلاميذ اليونان ، وحفظة حضارتهم ، أخذو عنهم الفلسفة ونظريات السياسة ، وكان لمتعلميهم شغف عظيم بالآداب اليونانية ، حتى كانوا يؤثرون بينهم اليونانية على لغتهم اللاتينية ؛ ولكنهم مع ذلك فاقوا اليونان فى السياسة والحرب ، وفى الاشتراع ووضع الأنظمة وضبط الحكم ، ولذلك أمكنهم أن يجعلوا من أنفسهم أمة متحدة لا نزاع بينها ولا انقسام ، وأن يبسطوا نفوذهم على غيرهم ويكوّنوا العاهلية الرومانية العظيمة

ولعلنا بعد هذا نستطيع القول بأن اليونان كانت أبرع من الرومان فى الخطابة ، وأن كلا من اليونانى والرومانى كان يتصور الخطابة كما يتصورها الآخر على التقريب ؛ فقد كان كلاهما بفضل ثقافته ووفرة نصيبه من العلوم والفنون لا يجرى فى آثاره الفكرية على سنن الفطرة أو الطبيعة الغضة . وإنما كان يأخذ على نمط يتفق مع ما تنتج الثقافة الراقية من اتساع الفكر وشمول النظر وعمق البحث وتهذيب الخيال وترتيب الأسلوب ، على نسق منطقى قويم ، وتأثر الحكم بالفلسفة ولو كانت مستمدة من التجارب الشخصية .

لذلك يمكن القول بأن كلا من اليونانى والرومانى كان يمثل الخطابة فى هيئة وحدة فكرية ذات حدود قائمة ومعالم واضحة ومقاطع معينة ومسالك متصلة يفضى بعضها إلى بعض فى تسلسل واطراد ، لا يتخللها تحول أو انتقال . فيمضى فيها قصداً إلى طيته وقد أثار وجدانك وشغل من فكرك بما يعرض عليك من روائع الأخيلة ودقائق النظار ، غير أن اليونانى أكثر اصطناعاً للفلسفة وقد يأخذ بالسفسطة فى الاستنباط والحكم . قال صاحب بداية القدماء وهداية الحكماء :

« . . . وكان أغلب فصحاء ذلك الوقت سوفسطائية ، يقيمون الأدلة على الشىء حقاً كان أو باطلا (١)

(١) ص : ١٦٥

ومن خطبائهم : بركليس [١] ، وديمستين [٢] ، وإيزقراط [٣]

لكن الرومانى كان فى كثير من حالاته متأثراً فى الخطابة بثقافة التشريع والأنظمة ، جارياً على سنن الفقهاء من الشرح والاستدلال أو المفاضلة والتعليل

ومن أشهر خطبائهم : ششرون ، وكان أخطب أهل زمانه وأبلغهم بياناً وأقوامهم حجة ؛ ولا يزال ما كتبه فى الخطابة والأدب يعد نموذجاً للأدباء فى جميع الأمم .

أما نحن فنتصور الخطابة الآن فى أكمل معانيها ، بحوثاً مستفيضة ، تدور حول موضوعات شتى ، هى فى أكثر الأحيان ذات شأن وخطر ، فلا بد لمن يتصدرون لها من معالجة موضوعاتهم بالروية والبحث ، بله الدرس والمراجعة للتوسع والاقتباس ، أو الموازنة والاستدلال ، أو التوليد والافتنان ، وهلم جرا ، حتى إذا وضحت مسالك الموضوع ، واجتمعت أطرافه ، ونضجت مسائله وقضاياه ، بترديد النظر ، وإجالة الفكر — أقبل عليه يرتبه وينظم حقائقه فى هيئة مقدمات ونتائج ودعاوى وبراهين ، ثم يعود إليه فيتخير ألفاظه ، ويفصّل عباراته على حسب ما يتطلب المقام ، ويقضى به العرف الأدبى ؛ ذلك بما وصلت إليه نهضتنا الفكرية والأدبية من الرقى ، ومجاراة آداب الغرب وعلومه .

وللخطابة اليوم أنواع يمكن إرجاعها إلى ثلاثة وهى :

١ — الخطابة السياسية : ويراد بها إثارة الشعور وبعث النخوة الوطنية . لاسترداد حق مسلوب ، أو طلب حق غير معترف به ، أو الدفاع عن حق

---

(١) اشتهر أمره فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان أفضل معاصريه علما وحكمة وفصاحة لسان وقوة حجة وكمال قريحة

(٢) ظهر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان فى صغره ألكن ضعيف الصوت ، جلس للوعظ أول عهده به فسخر منه حاضرو مجلسه ، فاغتم لذلك ، ولكنه لم يستسلم لليأس ، ومازال يعالج الأمر بالمران والمغالبة حتى أصبح وحيد عصره فصاحة وعلما ، وصارت له الكلمة النافذه فى أهل أثينا

(٣) كان يعيش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان خطيباً لسنا

مطموع فيه ، أو أداء واجب قومى ، أو عرض لحل مشكل سياسى ، أو نحو ذلك. ويرجع عهد مصر الحديثة بهذا النوع إلى أيام الثورة العرابية . وكان من أخطب خطبائها السيد عبد الله نديم ، والشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول . ولما أطفئت الثورة — خفت صوت الخطابة ولم يبق لها شأن مذكور ، ثم أتيح لمصر فريق من أبنائها العاملين الذين يؤمنون بحق بلادهم فى حياة الحرية والكرامة ، فراحوا يجتمعون للمشاورة والنظر فيما يجب عليهم أن يعملوه لخير الوطن ، فكان للخطابة من هذه الحركة يقظة أعادت إليها بعض القوة والنشاط ؛ وكان زعيم الخطباء فى هذه النهضة هو مصطفى كامل رحمه الله تعالى . فلما جاءت ثورة سنة ١٩١٩ ، وثبت الخطابة وثبة عظيمة بلغت بها الغاية أو كادت ، وظهر خطباء كثيرون من الرجال والنساء على اختلاف طبقاتهم وتباين حظوظهم من الثقافة والتهذيب ، وما منهم إلا له مقام محمود فى الفصاحة وشدة التأثير . وكان أخطب خطباء هذه الثورة على الاطلاق هو الزعيم سعد زغلول عليه رحمة الله .

وتمتاز السياسة الحماسية بغلبة الوجدانيات عليها ، وتعويل الخطيب فيها على التخيل والتصوير ، أكثر من تعويله على العرض المجرد والاستدلال المنطق الصارم ، وتختار لها الألفاظ الطنانه والعبارات الأخاذة ، ويكثر فيها تنويع الخطاب والتنقل من أسلوب إلى أسلوب : فمن حث وترغيب : إلى تحذير وتنفير ، إلى تهكم وسخرية ، إلى تعجب وإنكار ، إلى رضا واطمئنان ، إلى قلق واستفزاز ؛ وهكذا . وكثيراً ما يقتبس لها من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ومأثور النظم والنثر ؛ فلها من جمال الفن وزخرفة الصناعة حظ غير قليل .

أما الخطابة السياسية غير الحماسية ، فأوضح خصائصها الدقة المتناهية فى انتقاء الألفاظ وتأليف العبارات على نمط يؤدى المعنى فى صراحة وتحديد ، أو فى غموض ، وإبهام أو مرونة وشيوع ؛ وأساس قوتها والاستدلال فيها ، النصوص القانونية ، والمعاهدات الدولية ، وتصريحات رجال السياسة شرحاً وتفسيراً ، أو تأويلا وتخريجاً ، للإثبات أو النفى والانكار ؛ وقد تكون الخطبة السياسية مجرد وتفصيل لأعمال ومشروعات ، كخطبة العرش وبرنامج الوزارة ؛ ومن خطباء

هذا الضرب سعد زغلول ، وعبد الخالق ثروت ، وعدلى يكن .

٢ – الخطابة القضائية : وتلقى فى ساحات المحاكم ونحوها ، لإحقاق حق وإبطال باطل فى نظر القانون . ويرجع الفضل فى ظهورها وبلوغها هذا الشأو البعيد من الرقى إلى ظهور المحاكم الأهلية فى مصر ، وتنظيم العمل بها هذا التنظيم الذى يقضى بقيام هيئتين مثقفتين تثقيفا عاليا مقام طرفى الخصومة فى القضية ، وهما هيئتا النيابة والمحاماة ، فيتجاذبان الحق أخذا وردا ، ويعتورانه إثباتا ونفيا ؛ ليتضح الرأى للقضاة ؛ فيصدروا أحكامهم عن بينة واقتناع ، ويعد هذا النوع أرقى أنواع الخطابة ، وأدلها على البراعة والنبوغ : يتكلم طرف الإثبات فيخلبك بيانه ، وتبهرك براهينه ، حتى يتسلط على مواطن الإقناع منك ، وينتهى بك إلى حيث أراد ، فإذا أنت ترى رأيه ، وقد تعجب كيف يكون الأمر بينه وبين خصمه مثار خلاف ونزاع . ثم يتكلم طرف النفى ، فإذا أنت أول الأمر معرض عنه ، أو منكر عليه ، حتى إذا استقام على طريقته وأوغل إلى الغاية ، خدعت عن رأيك ، وأخذت تتحول عن موقفك رويدا رويدا ، حتى تلتقى به ، فتكون من شيعته ، أو يلتبس الرأى عليك فتقع فى حيرة وارتياب ، أو لا أقل من أن تهيج فيك عاطفة الرحمة والإشفاق ، فترجو فى قرارة نفسك . أن يجيبه القضاة إلى التماس الرأفة والتخفيف . ثم تقرأ صورة الحكم ، وتطلع على أسبابه ، فتبهرك سلامة المنطق ، ولطف المدخل ، وبراعة الاستنباط . والتوفيق العجيب فى ترتيب النتائج على مقدماتها ، حتى إذا انتهيت إلى النتيجة الأخيرة ، وجدت برد اليقين ، وقرار الطمأنينة والتسليم .

وتكون هذه الخطابة غالبا من جزأين مختلفين : جزء عاطفى يعتمد فيه الخطيب على إيراد النصوص القانونية ، وأقوال الشراح فيها ، ثم تطبيق هذه وتلك على وقائع الدعوى ، والاتجاه بها إلى الوجهة التى تفيد القضية ، ومن أشهر خطباء هذا النوع : أحمد فتحى زغلول ، وعبد الخالق ثروت ، ومرقس حنا ، وأحمد لطفى .

٣ – خطابة المحافل والمشاهد العامة : والغرض منها التكريم ، أو التأبين

أو بحث مشكل اجتماعى ، أو نحو ذلك . وقد شاع هذا النوع شيوعا كبيرا فى أيامنا الحاضرة ، وبرز فيه كثير من الخطباء ، ويرجى أن يزداد شيوعه ، ويكثر عدد خطبائه عاما فعاما ، فإنما يدعو إليه عرفان الفضل لصاحبه ، ورغبة الإشادة بعمله ، وتشجيع غيره ، وإصلاح أمورنا الاجتماعية ، وماذا يمنع من ذلك الآن ، وقد صارت أمورنا بايدينا ، ندبرها كما يقضى به الصالح العام ليس غير . فالفرصة لا شك سانحة ، والظروف مقبلة لشحذ العزائم ، وانبعاث الهمم لطلب العظائم ، والعمل لإعلاء شأن البلاد ، والمشاركة بنصيب من الجهد لخير الإنسانية عامة .

وتدور هذه الخطابة نوعاها الأول والثانى حول التعريف بالمحتفل به : مدحا لآثاره ، وتعدادا لمواهبه ، وتنويها بخصاله ومواقفه . فهى لا تقوم فى جوهرها على المعاناة ، وشدة الجهد فى اصطناع الأدلة وترتيب عرضها ، وإنما تقوم على الحكاية والوصف ، وتصوير الشعور ، واستخلاص الموعظة ، والدعوة إلى القدوة ، فى لغة مؤثرة ، وبيان فصيح .

أما خطب المشاكل الاجتماعية ، فقوامها استعراض المشكل استعراضاً شاملا يجليه كما يبدو فى عالم الحقيقة والواقع ، ثم بيان النتائج التى ينتجها ، والرأى الذى يراه له ، وإقامة الدليل على سداد هذا الرأى ، وصواب الأخذ به ، فى لغة واضحة مستقيمة ، لا إبهام فيها ولا اعوجاج ، أى أنها تحتاج إلى درس العالم الباحث ، ونظر الاجتماعى الخبير ، وعلاج الألمعى الحكيم ، ومن خطباء هذا النوع : محمد على علوبة ، وأحمد نجيب الهلالى ، ومحمود بسيونى ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، والشيخ عبد الوهاب النجار .

وتدخل الخطابة الدينية فى هذا النوع ، فما هى إلا خطابة فى محافل عامة ، تقام في بيوت الله تعالى ، وكانت هذه الخطابة إلى عهد قريب جداً ، لا تكاد تعدو الحث على تقوى الله ، والتخويف من عقابه ، والترغيب فى الآخرة ، والانصراف عن الدنيا ، فى لغة مسجعة، طويلة الفواصل ، متكلفة السجع ، أما

الآن فقد تولاها فى كثير من المساجد شبان فصحاء ، أعدوا لها ، ومرنوا على مواقفها . فنهضوا بها نهضة طيبة . وجالوا بها فى شتى النواحى الدينية والاجتماعية ، على حسب الظروف والملابسات ، غير ملتزمين فى لغتها سجعاً ، ولا متكلفين زخرفاً ، مع الحفاظ على طابعها الخاص : من اقتباس الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، والتعويل عليها فى الدعوة والاستدلال ، فهى مزاج من المواعظ والإرشاد . مستمد من كتاب الله ، وحديث نبيه ، ومن علوم الدين ، وبعض مباحث الأخلاق والاجتماع . وينتظر أن يكون لهذه الخطابة شأن جليل وأثر حميد ، فى نشر اللغة ، وتقويم الأخلاق ، بعد أن تصير مناصبها جميعاً إلى هؤلاء الخطباء المجددين .

على النجدى ناصف

الخطابة

بقلم محمود الطنيخى

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية للبنات

الخطابة

الخطابة من نوع المنثور ، وهى مأخوذة من خطبت أخطب خطابة بالفتح ، واشتق ذلك من الخطب ، وهو الأمر الجلل ؛ لأنه إنما يقام بالخطب فى الأمور التى تجل وتعظم ، والاسم منها خاطب مثل راحم ، وإذا جعل وصفاً لازماً قيل خطيب ؛ ولذا لا يسمى خطيباً إلا من غلبت الخطابة عليه وعلى وصفه ، وصارت صناعة له .

وهى على هذا صفة راسخة فى نفس المتكلم ، يقتدر بها على التصرف فى فنون القول؛ لمحاولة التأثير فى نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم؛ بترغيبهم وإقناعهم بمخاطبة وجدانهم ، وإثارة إحساسهم ؛ ليذعنوا للحكم إذعاناً ، ويسلموا به تسليما . وهـذا هو تعريف علماء الاجتماع للخطابة وهو المقصود هنا ، أما عند الحكماء فقد نقل ابن رشد عن أرسطو : أن الخطابة صناعة تتكلف الإقناع الممكن فى كل مقولة من المقولات ، وغايتها معالجة جميع الموضوعات ، فهى عنده مجموع قوانين متعلقة بكيفية العمل ، وشأنها شأن باقى العلوم التى تعد النفس لعمل خاص ، بموجب قوانين محدودة ، وإن لم تبلغ تلك العلوم غايتها فى بعض الأحيان ، فليس من الحتم أن من يعرف قواعد اللغة يتكلم الفصحى ، وعلم الأخلاق لا يضمن لعارفه سلوكا حميداً .

وليس للخطابة نقلا عن أرسطو موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ، ومن ثم يجب أن يكون للخطيب إلمام بكل صنف من المعارف ، فعليه أن يتبحر فى العلم ، ويفتن فى ضروب الفهم ، حتى كان شيشرون الرومانى يوجب

على الخطيب معرفة الفنون الأدبية والرياضيات والرسم والتصوير والنقش والموسيقا وغير ذلك .

أما الخطابة عند الأدباء فهى نوع من منثور الكلام ، تأخذ من النثر تصوير الحقائق ، وإبلاغها النفوس من دون إتعاب ذهن ، ولا تكلف فى الآراء ، ومن النظم سلاسته وتأثيره فى النفس .

ومن تعريف الخطابة عند أرسطو يتضح الفرق بينها وبين البلاغة والفصاحة ، فهى تزيد عليهما بعد حسن التعبير عما يخالج النفس من المعانى والعواطف ـ أنها تلقن الإنسان طرق الإقناع ، وتمكنه من استمالة الخواطر ، وتوجيهها إلى أمر من الأمور ، فلا غنى لها عن قوانين تدرك بها هذه الغاية .

دواعيها :

للخطابة دواع تدعوها ، وحوافز تقتضيها ، فهى تستعمل فى إصلاح ذات البين ، وإطفاء ثائرة الحرب ، وحمالة الدماء ، والتسديد للملك ، والتأكيد للعهد فى عقد الإملاك ، وفى الدعاء لله عز وجل ، وفى الإشادة بالمناقب ، ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته بين الناس ، وتتوافر هذه الدواعي عند حدوث حادث عظيم ، أو انقلاب دينى أو سياسى أو اجتماعى .

والتاريخ يحدثنا عن وجود هذه الدواعى منبثة فى ثناياه ، شائعة فى مختلف أزمانه . إذ لم تنقطع غوثات الله عباده على لسان أصفيائه ، وإرشاده لهم بوساطة أنبيائه ، وهذا يقتضى البلاغة والبيان ؛ لذلك قال موسى : « رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » وذلك لأن لثغة كانت به ، تخشى أن يعدها قومه عيباً ، ويلووا بوجوههم عن دعوته ، أما شعيب عليه السلام فقد سماه نبينا عليه الصلاة والسلام خطيب الأنبياء ؛ لما ورد فى الكتاب العزيز من أسلوبه البديع فى البيان ، وتلطفه فى إبلاغ دعوته إلى أهل مدين الذين غلبت عليهم الشقوة ، قال تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ؛ إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس

أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ، إلى أن قال : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، يا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود . » .

وهذه الطبيعة البشرية تتناحر وتتناجز ، فالحروب على بساطتها قائمة ، والانقلابات حادثة مستمرة ، فهذه بلاد اليونان حافلة برجال قادرين على تحريك الشعب وإثارته فى عهد هوميروس ، وقبل ذلك العهد . وما ذلك إلا لأن انقسام البلاد طبيعياً أثر فى حالتها السياسية ، فانقسمت إلى جمهوريات كثيرة . مستقل بعضها عن بعض بسبب صعوبة المواصلات ، استقلالا أدى إلى المنافسات والمخاصمات فالحروب .

ولما جاء عصر بركليس كانت الدواعي متعددة ، وذلك لاستظلالهم بظل الحرية ، فكانت الأعمال الاجتماعية تقضى جهارا ، ويجادل فيها أمام الجميع . ولكل أن يبدى رأيه ويدلى دلوه ، فكانت تشهر الحرب ويعقد السلم بالخطابة ، وبها يحكم على الوطنيين ، ولما تطلع فيلب ملك مقدونيا إلى إخضاع اليونان بالقوة أو بالحيلة . وكانت أثينا منقسمة على نفسها : قسم يريد التحالف مع فيلب على رأسه إشين ، وقسم غير راض عنه، وعلى رأسه ديموستين ـ كان هذا الاختلاف فى المبدأ داعيا من دواعى القول ؛ إذ أماط ديموستين اللثام عن سوء نية فيلب وخبث طويته . وأبان لهم أن وعوده وعهوده لم تكن إلا لتخدير أعصابهم ، وأخذهم على غرة منهم ، واشتهرت خطبه باسم الفيلبية ، وهى أربع سناتى على واحدة منها فى مكان آخر .

وهؤلاء العرب يسكنون بلادا أكثرها صحراء جرداء مترامية الأطراف ، لاصلة بينهم ، ولا جامعة تجمعهم ، بل كانت كل قبيلة وكأنها أمة وحدها . تخضع لزعيمها الذى هو منها ، فى تنازع مستمر مع سواها على مواقع المطر ، ومواطن الكلأ ، أو لاحتكاك صغير قد يورث العداوة ، ويخضب الأرض بالدماء .

فالتنازع المستمر ، والحروب الدائمة الناشبة بين سكان الصحراء ، تستدعى بيانا

يثير الحمية ، ويقوى العزائم فإحساساتهم مرهفة ، وحميتهم شديدة ، وعاطفتهم قوية ، وكثيرا ما كان يعقب الحروب التى كانت تقع فيما بينهما ، صلح تقوم به إحدى القبائل ، فتدعو إلى رأب الصدع وجمع الشمل بالخطابة .

وظهور الديانة المسيحية من أعظم الدواعى ، فبظهورها نشطت الخطابة بعد أن ركدت ريحها قبل ظهور المسيح عليه السلام .

ومن الدواعى التى استوجبت الاستعانة بالخطابة فى تاييد الإسلام أو معارضته ـ ظهور الإسلام بين أمة أمية على يد رسول منهم . فلم يكن هناك وسيلة من وسائل الإقناع إلا الخطابة ، وقد كان لها منزلة سامية عند العرب فى ذلك الوقت ، والفرصة للقول سانحة ، حيث كان اجتماع القوم طوائف فى صعيد واحد سهلا ميسورا ، فى موسم ، أو اجتماع دينى ، ثم فى صلاة أو حج أو غيرهما ، أما فى دولة بنى أمية فقد ازدادت دواعيها بازدياد الفتن والثورات ، وتعدد النحل الدينية والمذاهب السياسية ، ثم بازدياد الفتوح .

ولا حاجة بى لأن أحدثك عن اشتداد دواعيها فى هذا العصر ـ عصر الحياة النيابية الحرة ـ فإن الكلام فى الجمهور من شأن الحكومات الديمقراطية ، والخطباء يكثرون كما قال مونتسين حيث تكون الأمور تتقاذفها العواطف الدائمة ، بين أخذ ورد .

وأحب أن أثبت لك هنا رأياً قد تراه مخالفاً للمقرر فى بعض الأذهان ، ولكنه رأى صحيح يؤيده الواقع ، هو أن الحياة الاستبدادية تدعو إلى الخطابة أيضاً ، كما تدعو إليها الحياة الحرة ، ولكن الفرق بينهما أن الخطابة فى الحياة الحرة تكون ملكا مشاعا بين الشعب والحكومة ، ولكنها فى الحياة الاستبدادية يتقلص ظلها فى الشعب ، وتنحاز إلى ذوى النفوذ ، ومن إليهم من الحاكمين والمعارضين ، وتقوى فيهم ، فهذا زياد ابن أبيه ، والحجاج الثقفى قديماً ، وهذا موسولينى وهتلر ومصطفى كمال حديثاً . ولا حاجة بى إلى الإفاضة فى بيان ما لهؤلاء من عنف وشدة ، وما لهم من قوة فى القول ، ملكوا بها زمام الحكم ، وساسوا بها شعوبهم ، ودفعوهم إلى ما يحبون ويرغبون .

نشأتها :

الخطابة عريقة فى القدم فهى فطرية فى الإنسان ، ولهذا لم تخل منها أمة حفظ التاريخ لنا شيئاً من آثارها ، فقد وجدوا فى كتابات الأشوريين المسمارية ، وفى آثار المصريين الهيروغليفية ، خطباً وعظية أو تأديبية ، وردت غالباً على ألسنة آلهتهم أو ملوكهم ، ولكن فرق بين البلاغة الفطرية ، والبلاغة العلمية التى امتازت بها العصور الراقية ، حيث كان الخطيب ذا حظ موفور من العلم والفلسفة ، فكان يلقى خطابه بعد التفكير والتعقل ، ويمكنه أن يكتبه ويلقيه . فهذه البلاغة الناتجة من الدرس والثقافة والتمرين ، أوجدتها أثينا ؛ وأول من كتب فى هذا العلم اليونانيون ، فهم مستنبطو قواعده ومشيدو أركانه .

نشأت فى دولهم الأولى ، ومنازعاتهم السياسية وحروبهم ، وفى إلياذة هوميروس فى القرن العاشر قبل المسيح خطب عدة بليغة ، أوردها على ألسنة الآلهة والأبطال ، وممن اشتهر منهم فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، سولون مشترع أثينا ٦٤٠ - ٥٥٨ ق . م ثم بيسستراتس منازع سولون ، والذى استطاع التسلط على قلوب العامة ، وظهر بمظهر النصير لهم ، المناضل عن حقوقهم ، فأقاموا له حرسا من خيرتهم ، يحفظونه من اغتيال الأشراف حتى ثبت سلطانه . وتولى الحكم من ٥٣٦ إلى أن مات ٥٢٧ ق . م ثم ابنه هيبارك جامع شعر هوميروس ، واشتهر بعدهم فى الخطب العسكرية القائد تميستوقلس وفى الخطب السياسية ارستيدس .

ثم بلغت كمالها فى القرن الخامس قبل المسيح فى عصر بركليس الذهبى ، فقد جاء فى كتاب ما خلفته اليونان ص ٣٠٥ قال شبلى « إن الفترة التى انصرمت بين مولد بركليس ووفاة أرسطو هى بلا ريب أهم فترة جديرة بالذكر فى تاريخ العالم ، سواء اعتبرناها بنفسها ، أو نظرنا إليها من جهة آثارها فى مصير الإنسان المتمدين ... وإن بقايا تلك العقول اللطيفة العميقة ونتاجها ، لتدلنا - كما تدلنا بقايا تمثال بديع — فى شىء من الغموض عن عظمة تلك العقول وكمالها ... وإن لغتهم لتفوق فى تنوعها وبساطتها ومرونتها ووفرتها أية لغة أخرى من لغات العالم الغربى ، وقال مينل فى الكتاب نفسه : « أعظم الشعوب التى ظهرت على سطح الأرض

هم اليونانيون ... فقد كانوا البادئين لكل شىء تقريبا ـ عدا المسيحية ـ ومما تفخر به العصور الحديثة ... وكانوا أول شعب ظهرت له آداب تاريخية كاملة فى نوعها ـ وإن لم تكن من أعلى نوع ـ كما خطابتهم وحفرهم وعمارتهم ».

وذلك لأن أهل أثينا فى هذا العصر قويت فيهم رغبة القول، واشتدت بينهم دواعيه، فكانت فرص القول متعددة، فالأعمال الاجتماعية ـ كما قدمنا ـ كانت تقضى جهاراً، والمسائل العمومية تدرس فى مجتمع الأمة، حيث يحق لكل وطنى أن يبدى رأيه، وكانت تشهر الحرب، ويعقد السلم وتفرض الضرائب بالخطب، وكانت الدعاوى تعرض أمام المحاكم وبالخطابة يحكم على المتهمين، أو يبرءون، هذا إلى اجتماعات أدبية وعلمية يعقدونها للذة الحديث، وللاستمتاع بخطيب بارع يتحدث إليهم فى موضوعات شتى، ومما تحسن الاشارة إليه هنا أن بعض الخطباء كانوا ينشئون خطبا ليلقيها غيرهم إذ كان لا يسوغ لمن له قضية أن يرفعها بوكالة محام كما هو الحال عندنا. كما كانت شريعة اليهود تقضى أن يتكلم صاحب القضية فى قضيته بالذات

ويظهر أن اليونانيين قبل هذا العصر كانوا يتجهون فيها اتجاهات أخرى، حتى جاء أنتينون ـ وهو من مشهورى أدباء الأغريق فى هذا العصر ـ فاستعملها فى استمالة الجماهير بمناسبة تأليفه حزبه، الذى يعرف بالحزب الألوغرافى، فاتهمته الحكومة وقتئذ بالخيانة بسبب تأليفه ذلك الحزب، وحكمت عليه بالإعدام. فطلب من الحكومة أن تسمح له بأن يلقى أمام الملأ خطابا، يدفع به عن نفسه التهم التى وجهت إليه، فسمحت له بذلك بعد معارضة شديدة. وكان من نتيجة خطابه أنه أثار شعور الأهلين إثارة عظيمة، واستمال الرأى العام وأجمع الناس على أنه مظلوم، ولكن ماكان يسع الحكومة أن تعدل عن حكمها.

وقد نبه هذا الحادث وأشباهه العالم إلى أهمية الخطابة فى المجتمع، وتأثيرها فى استمالة شعور الشعب، ونبهت الناس إلى ما للخطباء من التأثير، وعلى ذلك انتشرت الخطابة منذ ذلك العهد، وأخذ العلماء يستنبطون قواعدها وقوانينها بملاحظة الخطباء، وطرق تأثيرهم، وأسباب فشل من يفشل منهم، ويظهر أن أول من وضع قواعد

هذا العلم ، السوفسطائيون فى ختام القرن الخامس وأول الرابع ، لاحتياجهم إليها فى الجدل و التغلب على خصومهم ، وقد قيل إن أول من وضع هذه القواعد ثلاثة : برديكوس المتوفى ٤٣٠ ق م وبروتاغوراس معاصره وجورجياس ٤٨٠ ق م

وجاء بعدهم أفلاطون فكتب فصلا ممتعاً فى الخطابة فى كتابه الجمهورية ، ثم أتى من بعده تلميذه أرسطو (ولد ٣٨٤ ق م وتوفى ٤٢٢ ق م) فجمع شوارد هذا الفن فى كتابه المعنون بالخطابة ، فكان أصلا لذلك العلم ومرجعاً للخطباء .

وجاء بعد أرسطو عصر نشطت فيه الخطابة عند الرومان ، ووجدت عدة مؤلفات ينسب بعضها لشيشرون [1] الخطيب الرومانى ، ثم ركدت ريح الخطابة بعده ، حتى جاءت النصرانية فبعثت فيها روحا جديدة ، وقام الرسل بالتبشير ، وكان هذا الدين الجديد فى حاجة إلى إرشاد فنبغ خطباء بين آباء الكنيسة . فألف الأب كرنتبليان كتابه المسمى تهذيب الخطيب ، وألف الأب لنجينوس الحمصى نديم زنوبيا (الزباء) كتابه المغلق .

تاريخ الخطابة عند العرب

أما من جهة العرب فإن الخطابة فى صدر الإسلام وصلت إلى الذروة . فلما جاء العصر الأموى وجدت الخطابة لها غذاء من الفتن والثورات ، فأخذ الشبان والكهول يتبارون فى الخطابة ، ويتسابقون فى ميدانها ، وكان محل ذلك الوفادة ومجالس الخلفاء والأمراء والولاة ، وقد نشأ من هذا أن وجد أناس يعلمون الشبان الخطابة ، ويمرنونهم عليها ، وقد ظهر ذلك واضحا كل الوضوح فى العصر العباسى الأول ، فقد جاء فى البيان والتبيين للجاحظ ، وفى العقد الفريد لابن عبدربه : « أن بشر بن المعتمر مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب ، وهو يعلم فتيانهم الخطابة ، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد ، أو ليكون من النظارة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا . ودفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وفى هذه الصفحة وصف جيد (فى عرف الأدباء لا فى عرف

(١) انظر الموضوع (الخطابة كما يتصورها الرومان)

أهل الفن) لأساليب الخطابة وألفاظها ومعانيها ، وفيها : « خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا ، وأشرف حبا ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين ، وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع » إلى آخر ما جاء فيها فى كتاب العقد الفريد .

وابراهيم بن جبلة كان من أصحاب عبد الملك بن مروان وعمر إلى خلافة المنصور ، ومن ثم نعرف أن استنباط قواعد الخطابة كان فى آخر العصر الأموى ، ويدلنا كلام بشر على أنه لم تكن هنالك قواعد بالمعنى الاصطلاحى المعروف ، فهى وغيرها مجرد إرشادات ونصائح عامة ، ينتفع بها الأديب فى أية ناحية من الأدب : فى الكتابة وفى الشعر وفى الخطابة ـ لم تؤد إلى كتاب من وضعهم فى هذا الفن ، كما فعلوا فى باقى العلوم والفنون .

ويظهر أن العرب لم يقتصروا على استنباطاتهم العربية ، بل كانوا يستعينون بما فى آداب الأمم الأخرى ليعاونهم فى استنباطهم ، ويمدهم بما ليس عندهم ، وينبههم إلى ماعساه يعزب عن خواطرهم . وقد استمر البحث فى الخطابة وأصولها ينمو ، وكان أكثر من يقوم به أئمة المعتزلة . الذين احتاجوا إليها ليجتازوا مجالس المناظرات ، ويتغلبوا على خصومهم من ذوى الجدل ـ وهم يقابلون جماعة السوفسطائيين عند اليونان ـ غير أن بحوث أولئك الأدباء لم تجمع فى كتاب مستقل ، بل كانت شذرات منثورة فى الكتب وعلوم اللغة . ولم يعن أحد بتدوينها فى كتاب مستقل . لتكون علما قائما بذاته ، حتى ترجم إسحق بن حنين كتاب الخطابة لأرسطو ، وشرحه الفارابى ، وبنقل هذا الكتاب صارت فى العربية قواعد الخطابة مدونة فى بحث مستقل ، وإن كانت مشوبة بالجدل والمنطق .

وأظهر كتاب ظهر فى العربية بعد ذلك كتاب الأب لويس شيخو ، فقد جمع فيه خلاصة مااستنبطه العرب ، وما ترجم إلى العربية مرجعا كل شاردة إلى بابها ، ثم ظهر بعد ذلك كتاب الخطابة للدكتور نقولا فياض عضو المجمع العلمى العربى فى الشام ، ثم كتاب الخطابة الأستاذ محمد أبو زهرة المدرس بكلية أصول الدين

سابقا ، والجامعة المصرية حالا ، وكانت من المراجع التى اعتمدت عليها والتى سأذكرها جملة آخر الموضوع

المؤثرات التى تعمل فى رقيها وانحطاطها :

تتداخل المؤثرات والدواعى بعضها فى بعض، فترقى الخطابة بعد فصاحة اللغة حيث تتوافر الدواعى ، وتنحط حين تقل الدواعى ، وهنالك أسباب عامة تعتبر ككليات القضايا ، تندرج تحتها المؤثرات الجزئية فى مختلف العصور عند مختلف الأمم .

فمن المؤثرات بعد استقامة اللغة طبعا ، حياة الأمة فى بيئة حرة تتمتع بالإباء والاستقلال ، وتشعر بالسؤدد والفخار، وتتباهى بقوة العصبية وكرم الأصل فتدفع بالنفس فداء للوطن والشرف ، والخطابة وإن كانت كالشعر تحتاج الى خيال وبلاغة إلا أنها تظهر عليه فى مواطن الحماسة وعصر الفروسية ، وبين أصحاب النفوس الأبية ؛ ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان فى هذا ، فالنضال بين قبائل العرب كان مستمراً لاعتزاز كل بقبيلته ، وانحيازه لعصبيته ، وطبيعة أرض العرب فى انقسامها لها دخل فى هذا ، كما لانقسام أرض اليونان أثر فى انقسامهم إلى جمهوريات تتمتع كل منها بالإباء ، وتعتز بالاستقلال ، وإنا حين نعقد المشابهة بين الأمتين فى هذه الناحية لانخطىء وجه الصواب ، ولهذا كانت الخطابة رائجة عند الرومان ، وإن تأخر الشعر عندهم ، وللسبب نفسه قصر العبرانيون فى الخطابة لغلبة الذل والضعف عليهم .

وكان صوت ديموستين المتوفى ٣٢٢ ق م آخر ماسمعته آثينا ، فإن الخطابة لاتعيش بدون الحرية ، وقد جاء انتصار مكدونيا ضربة قاضية عليها ، فبقيت مدينة العلم والأدب ، وملاهى العقل ، ولكن منابرها أقوت من الخطباء البارعين ، وقد لقن الرومان أسباب البلاغة عن اليونان فتعشقوها ، وأخذوا يدربون عليها فتيانهم ، كما يدربونهم على الحرب والحكم ، إلى أن ظهر شيشرون الرومانى فأعاد للخطابة مجدها القديم ، وسطع نوره فى سمائها كما سطع من قبل نور ديموستين ثم هوت الخطابة ثانية وانطوى بساط عزها باستعباد أوغسطس روما ، كما استعبد فيليب واسكندر أثينا .

ومنها أن تعتنق الأمة ديناً جديداً، فإلى القيام بالدفاع عنه والدعوة إليه والجهاد فى سبيله، تدفعها الغيرة والعاطفة إلى بث إرشاداته ونصائحه، بما تملك من قوة، واعتبر هذا فى الدين الاسلامى، فقد كان سبباً فى ارتقاء الخطابة وبلوغها شأواً بعيداً ومنزلة عالية. وكذلك الدين المسيحى قبله، بعث فيها روحاً جديدة كما تقدم للسبب نفسه، ثم انحطت بما تطرق للغتين العربية واللاتينية من فساد، وأخذ العى يملك ألسنة الخطباء، فصاروا يكتفون بنسخ الخطب القديمة وإلقائها، حتى إذا طلع القرن السادس الهجرى، استيقظت الخطابة من رقدتها، وارتفعت أصوات جديدة كان لها أثر عظيم فى الجماعة ـ بسبب الدين واشتباك الديانة الإسلامية والمسيحية فى عراك عنيف ـ وكان من نتائجها الحروب الصليبية، ثم انحطت بعد ذلك حين فترت النزعة الدينية، وخبت العاطفة الملية.

وإنى بمناسبة ذكر الدين الاسلامى أوجه نظر القارىء إلى ما للقرآن والحديث وسواهما من الحوادث والأحوال من أثر فى رقى الخطابة، وإنى لن أذكر لك هذه المؤثرات بعداً عن الإطالة، فهى فى متناول يدك فى كل حين ووقت فى كتب تاريخ أدب اللغة فى العصر الإسلامى والأموى والعباسى.

ولكنى أحب ألا أترك هذه النقطة من غير أن أنبه أن هذه المؤثرات ليست عامة بل هى خاصة بالخطابة العربية الإسلامية، لا فى إظهارها بعد خمودها، ولا فى رفعتها بعد انحطاطها، بل فى اتجاهاتها وأسلوبها وألفاظها ومعانيها وموضوعاتها.

أما أنها خاصة بالخطابة العربية فلأن معجزة هذا الرسول العربى كانت الفصاحة والبلاغة، وما هكذا كان الأنبياء والرسل، فلم يتيسر للغة غير العربية هذه الناحية من المؤثرات، وأيضاً لم تكن الخطابة فى الجاهلية راكدة فجاء الإسلام فأيقظها، بل رأى البعض أن العناية بالخطب فى الجاهلية كانت تفوق العناية بها فى الإسلام، جاء فى كتاب القديم والحديث ص ١١١ « ذكروا أن العرب عنيت بالخطب فى جاهليتها أكثر من عنايتها بها فى الإسلام » وإنى وإن كنت لا أجزم بصحة هذا القول ـ لا مناص لى من الاستعانة به على بيان وجهة نظرى فى أن هذه المؤثرات كانت فيما قدمت إليك لا فى بعثها من جديد. وأما إن كان هناك تأثير فيها من هذه الناحية فيرجع إلى وجود هذا الدين الجديد، فقد كان حدثاً عظيماً يدعو إلى الخطابة.

ومن المؤثرات شعور الأمة بالحاجة إلى أن تاخذ الحالة الاجتماعية السياسية شكلا غير شكلها ، وتسلك طريقاً أقوم فى الحكم وأهدى من غيرها إلى الإصلاح والتقدم . فأجمل أيام الخطابة بعد ما تقدم هى أيام الثورة الفرنسية ، فقد أنجبت فى عشر سنين من الخطباء عدداً لم يسبق به عهد . وكان للبلاغة فيها من التأثير ما لم يعرف له نظير ، والسبب فى ذلك ضخامة المشروع الذى أخذت الثورة على نفسها القيام به ، فللخطابة فى الثورات المقام الأول ، وبعد ذلك يأتى دور المدافع والغواصات والطائرات والغازات الخانقة ، ثم خفتت الأصوات بمن طاحت بهم الثورة من أمراء الكلام . وهذه الثورة العرابية على الضعف فى مادة اللغة كان لها أثر واضح فى انتعاش الخطابة ، وما زال أثرها ينمو ، حتى اندلع لسان الثورة سنة ١٩١٩ فقاد الأمة الزعيم الجليل سعد باشا زغلول ببيانه الناصع ، ولسانه المفصل ، وظهر فى الميدان شبان خطباء وزعماء لولا الثورة ما تحركت ألسنتهم ، ولا ظهرت بلاغتهم .

أما اليوم بعد أن تنوعت أسباب الحياة ، وتعددت مظاهر الاجتماع ، وتبدل شكل الحكومات ، وتغيرت سلطة الحكام ، فقد عادت الخطابة إلى الظهور بنور أسطع ، ومجد أكمل ، وظهرت عندنا لابسة ثوباً آخر غير ثوبها الدينى .

أنواع الخطابة

أرجع أرسطو أنواع الخطابة إلى ثلاثة أقسام تبعاً لأحوال الزمان من ماض وحاضر ومستقبل: وهى التثبيتية ، والشورية ، والقضائية ، فالأولى تتعلق بالمدح والذم والتابين والترغيب والتنفير ، وزمنها الحاضر ؛ والثانية لحمل السامع على جلب النفع للجمهورية ، أو دفع الضر عنها ، أو للحض على الحرب أو السلم ، ومن هذه الشرعة أو تلك ، واستمالة رأى الجمهور والتغلب عليه ، وزمنها المستقبل ؛ والقسم الثالث القضائى وغايته الدفاع عن متهم أو الحكم عليه ، وهو من خصائص المحامين ، وزمنه الماضى ، فالخصام يكون على شىء مضى . وأما خطب الوعظ فلم يذكرها أرسطو فى كتابه فإنها انتشرت بعد الميلاد .

أما اليوم فالمعول عليه هو تقسيم الخطابة إلى الأنواع الآتية :

(١) الخطابة السياسية ويدخل فيها خطابة المحافل والمشاهد العامة ، (٢) الخطابة القضائية ، (٣) الخطابة العسكرية ، (٤) الخطابة الدينية والعلمية ، وسنقصر الكلام على الأنواع الواردة فى المنهج شارحين خصائص كل :

الخطابة السياسية

كان لهذا النوع من الخطابة فيما مضى المكان الأول ، لصلته بحياة الأمة فى هبوطها وصعودها ، فالأمة كانت المرجع الأول والأخير ، عليها مدار العمل فى الحرب والسلم ، فكانت البلاغة أقرب طريق يسلكه الإنسان لتحريكها ودفعهافى طريق معينة ، والمقصودبهذابداهةالأمم الحرة كاليونانوالرومان ، وأما المستعبدة المغلوبة على أمرها فلم تكن تعرف هذا الفن ، وقد وصفها توسيديدس بأنها من استعمال عبارات خلابة لتحقيق غايات جنائية ، ووصفها أحد رؤساء وزارة بريطانيا بوصف ملطف هو (الخديعة السياسية) لحلاوة الصدق المشوبة بالمرارة ليست شائعة دائما فوق منابر الانتخاب .

وقد أتى على الخطابة السياسية زمن تقلصت فيه ، إلى أن عادت للظهور فى فرص مختلفة ، ولم تزدهر فى عصر من العصور ازدهارها فى هذا العصر ؛ فهى طريق معبدة للمجد ، وسبيل من سبل الشهرة ، وميدان للسبق فى خدمة الأمة ، وهناك جملة أسباب جعلت لهذ النوع المحل الأول

١ — جعل الأمة مصدر السلطات فإليها ممثلة فى نوابها ، ترجع الحكومة فى حل الأمور وعقدها ، فلا تبرم أمرا ، ولا توقع عهدا ، من غير الاستيثاق من تأييدها ، فلا حرج فى القول ، ولا خوف على القائل .

٢ — وهاك دور النيابة سرحا للخطباء من النواب ، يحاول كل السبق فيه ، ودعوة النواب إلى ما يراه ، وتوجيههم الى ما يريده من مصلحة الجميع .

٣ — هذا الى التناحر الحزبى الذى يقتضى تسابق كل حزب فى نشر آرائه ومبادئه ، والعمل على إنماء أعضائه ليكون أكثر عددا ، وأعز نفرا

٤ – نهوض الأمم المغلوبة على أمرها استدعى أن يكون فيها من أهل اللسن والفصاحة من يوقظ الهمم، ويبعث الحمية، ويذكى نار الحرية، حتى يخلعوا نير الاستعباد، وينهضوا من كبوة الذل والاستخذاء.

٥ – هذا إلى اتصال الشعوب بعضها ببعض، وتسابق كل فى نشر محاسنها، ونفى معايبها، حتى تسود سياستها، وتروج تجارتها.

والخطب السياسية منوعة: فمنها النيابى، ومنها الانتخابى، ومنها خطب المؤتمرات السياسية، وإليك خصائصها جملة:

الخطابة السياسية من أصعب فنون الخطابة، وقلما تجد من خطباء السياسة من لم يذق فى احتكاكه بالجمهور لذة الانتصار، أو لوعة الانكسار، وهذا يدلك على حرج الموقف، وما يقتضيه من تفهم نفسية الشعب، ودرس أهوائه ومشاعره، والإلمام برغباته وأمانيه، وعليه أيضا إذا كان نائبا أن يدرس العرف النيابى واللائحة الداخلية، ليكون على علم بالنظم والقيود التى تحيط بالمناقشات. وأن يلم بنظام الحكم وأحوال الحاكمين ومعاملتهم للمحكومين، وأن يتواد إلى الأعضاء لكيلا يكون من بينهم خصوم، يندفعون الى مهاجمته بالحق والباطل.

فأما إذا كان فى دائرته الانتخابية فعليه أن يفهم روح الجماعة، وأن يتبين الحاجات والرغبات المستكنة فى نفوسهم، حتى إذا تكلم ساير هذه الرغبات، وضرب على نغمتها متقربا من نفوسهم، بالثناء عليهم فى غير إسراف، ذاكراً منهجه فى الإصلاح واعداً بما يقدر أن يفى به مستشهداً بماضيه.

لغتها: أما لغتها فيجب أن تكون من الفصحى السهلة لا تنزل إلى العامية، ولا تجعل قائلها من المتفيهقين المتشادقين، فإن ضجة الألفاظ فى المجالس النيابية، تذهب بروح المعانى ودقة الأفكار وحسن التأثير فى كثير من الأحيان.

وأما النواب فإنهم وإن كانوا فى الغالب من العلية المثقفة المهذبة، تنطبق عليهم صفات الجماعات، فالتأثير فيهم يأتى من ناحية المشاعر أكثر مما يرد من ناحية المنطق، فعلى الخطيب النيابى ألا يجعل المنطق هو كل شىء فى كلامه بل لابد

أن يرطبه بما يثير المشاعر ويهز الأحساس فعليه أن يجمع بين دقة الفكر وإثارة الخيال والتأثير النفسى .

أما خطيب المؤتمرات السياسية فهو بحكم دقة موقفه ونيابته عن الحكومة وطبيعة المؤتمرات، بعيد عن إثارة الشعور ومخاطبة الوجدان .

وعلى النائب أن يلتزم الهدوء فى القول ، ويبتعد عن إثارة الخصام ، ويتجنب الغضب فإنه آفة العقل والرزانة ، وألا يستعمل ألفاظاً سافلة تدعو إلى الأسف والندم .

وعلى الخطيب الانتخابى أن ينزل فى العبارة ، ويتجه إلى تقريب الأفكار وتوضيح المبهمات ، وأن يطنب فى شرح الحقوق والواجبات ، لأنه يخاطب العامة وهم لا يدركون إلا القريب الواضح .

الخطابة القضائية

ميدانها المحكمة ، وغاياتها الفصل فى الخصومات ومعرفة الحق من الباطل ، ولما كانت قوة اللحن بالحجة قد تؤثر فى العدالة ، نظر الأقدمون إلى هذا النوع من الخطابة نظرة فيها شىء من الوجل والخوف ، وشىء من التردد ؛ فقد كان قدماء المصريين فى بعض عصورهم يحرمون المرافعة بغير الكتابة ، خوفاً على العدالة أن تذهب فى ظل التأثير الخطابى ؛ ولقد تبين اليونان أثر مرافعاتهم فى الأحكام ، فسنوا القوانين لمنع الخطباء من استخدام الوسائل المثيرة للوجدان ، وبالغوا فى ذلك حتى عينوا فى المحكمة رجلا يقاطع المحامى بل يسكته إذا رآه يحاول إثارة العاطفة وبعث الوجدان .

أما الرومان فقد تركوا الدفاع حراً يقول مايشاء ، ثقة بالقضاء ، واعتماداً على صراحة القانون ووضوح قواعده ، وكذلك الحال الآن فى جميع البلاد الممدنة . ومن هنا نستطيع أن نفسر تأجيل القضاة النطق بالحكم أسبوعاً مثلا ، وذلك ليتيسر لهم الموازنة بين أقوال الدفاع حتى تُستخاص الحقيقة صافية خالصة ، وليبعدوا عن ذلك التأثير الذى دوى صوته وشاعت عاطفته فى ساحة الدفاع .

قال بعض القضاة: « ولا تقولوا إن الحقيقة تدافع عن نفسها، فإن ذلك يكون صدقاً لو خلت النفوس مما يشينها، ولكن الناس بحكم الطبع والعادة ليسوا أصفياء النفوس أنقياء الروح، لذلك كان حتما علينا أن نفعل كما يفعل الذين يدخلون الحديد النار ليلين، فتصهر أفئدة المصغين إلينا فى حرارة البلاغة حتى تقبل الحقائق التى نبديها لهم. » فهذه البلاغة ضرورية للعدالة، وقد قال الهلباوى بك: المرافعة هى البلاغة وليست الفصاحة.

ذكر الأب لويس شيخو فى كتابه: أن الخطابة القضائية تتمثل فى ثلاثة مواقف: مرافعة النيابة، ومرافعة المحامى، ومرافعة رئيس المحكمة؛ ونحن فى أيامنا هذه لا نسمع مرافعة لرئيس المحكمة، وإنما عمله المقابلة والموازنة بين حجج الفريقين، ثم يصدر الحكم وقد لا ينطق بحيثياته؛ وعلى ذلك يبقى لنا موقفان: النيابة والمحامى

مرافعة النيابة وخصائصها:

رجل النيابة هو الذى يثبت الجريمة ويقدم نصوص القانون الموضحة للعقاب؛ فهو الذى يرفع القضايا فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام، وهى الجنايات المنصوص عليها فى القانون، ويقدم الأدلة المثبتة للدعوى فى الجملة، فإن ظهر أن القرائن غير كافية للإدانة بعد رفع الدعوى فوض الأمر للمحكمة، فهو ليس خصما من جميع الوجوه، بل يشبه عمله من ناحية عمل القضاة. فالواجب عليه أن ينظر فى موضوع الدعوى نظرة بريئة غير متحيزة. وعليه فى مرافعته:

١ — أن يسرد الحقائق ويسوق الأدلة خالية مما يثير الوجدان والعاطفة إلا بقدر محدود، فإذا توقع أن الدفاع سيثير جواً كهذا فانه يتقدم بما يراه موصلا لغايته من غير إفراط.

٢ — أن يلتزم الاعتدال ولا يندفع وراء تيار من العبارات الخطابية، فإن ذلك يستر الحقائق. فواجبه غير واجب المحامى، فالمحامى لا يهمه إلا التبرئة، فهو يميل إلى ناحية موكله، أما النائب فوظيفته الحق فى ذاته. ولذا لا تكون الحماسة فى كلامه إلا بقدر، فيحسن به الهدوء والاجتهاد فى تصوير الجريمة من غير مبالغة.

٣ — يجب أن تكون عبارته فى جانب المتهم مهذبة عفيفة، لا تجنى فيها ولا ما يشبه السب.

٤ — لا يعمد إلى التطويل فى غير داع، فإن فى ذلك إضاعة لوقت القاضى، كما أن الإيجاز المخل فيه مضيعة للعدالة، فعليه أن يتحرى الوضوح والشرح وسرد الوقائع من غير حشو، ويقتصر على المطلوب فى غير إخلال ولا إسراف فى الألفاظ

٥ — ويستحسن فى عبارة النيابة السهولة والانسجام والاسترسال، مع عدم تكلف التحسين، وإلا ضاعت الحقيقة وسط ضجة من الألفاظ وكثرة من التعابير

٦ — عليه أن يتجه إلى الألفاظ الفخمة القوية الرنانة إن كان يتكلم فى القانون وقوة سلطانه، ليلقى فى روع السامعين مهابة القانون فيلتزموا خطة الطاعة ويخاف العصاة صولة العقاب

٧ — أن يلاحظ قوة رجال الدفاع؛ فإن وجدهم من أهل البيان واللسن وممن يحاولون التأثير بالكلام نسج على منوالهم من غير أن ينسى أن موقفه للحق فى ذاته ليس له أن يتحيز كغيره

مرافعة المحامى وخصائصها :

لا يكفى المحامى أن يكون بارعا فى القانون، بل هو فى حاجة إلى بصيرة نقادة وذهن قادر على هضم أنواع العلوم، لأن المسائل التى يوكل إليه البحث فيها داخلة فى كل فن، متصلة بجميع الموضوعات؛ فعليه أن يجعل دماغه موسوعة علوم، كما عليه أن يعرف كيف يبعث العواطف ويثير الشجون. ونحن نجمل ما يجب أن يتحلى به المحامى فيما يأتى ثم نذكر خصائص مرافعته :

١ — الرغبة الصادقة فى إنصاف المظلوم، وعليه أن يفهم أن عمله عمل شريف قبل كل شىء، وليس مرتزقا يرتزق منه

٢ — أن يلم بأحوال الجماعات وطوائف الأمة، ويتعرف ما يجرى بين الناس فى شئونهم المختلفة؛ لصلة هذا بعمله، فهو لهذا يقف فى المحكمة، وهو من هذا يستمد القول فى الدفاع

٣ — أن يكون يقظا مراقبا لما يجرى فى مجلس القضاة وما يقول الشهود

والخصوم؛ قال إبراهيم بك الهلباوى (نقلا عن كتاب الخطابة للأستاذ أبى زهرة):
« كثيراً ما شعرت بتحول فى تيار فكرى إلى نقط تصلح لموكلى أستنبطها من طريقة الخصم أو من ملاحظة المحكمة؛ وأعظم نقطة أشكر الله عليها، توفيق فى انتهاز هذه الفرص فى لحظتها، ثم التعبير عنها والاستفادة منها. »

٤ — أن يكون متصفا بصفات الخطيب الذى لايعد المتكلم فى صفوف الخطباء بدونها، وهى أن يكون قوى الملاحظة، فاحص النظرات، يقرأ من الوجوه خطرات القلوب، ومن اللمحات مكنون النفوس؛ وأن يكون حاضر البديهة، لتمده بما يطلب من علاج وقتى، وأن يكون طلق اللسان، فاللسان الأداة الأولى للخطيب وربما كان غيرها فى المحل الثانى منها، وأن يكون رابط الجأش، مطمئن النفس، لا يضطرب ولا يوجل، وأن يكون قادرا على مراعاة مقتضى الحال، فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس لسان تخاطب به

خصائص مرافعة المحامى، أو هذا النوع من الخطابة القضائية، هذه الخصائص تتضمن النظر فى إعدادها، وطريقة الإدلاء بها، ولغتها:

أما الإعداد فيكون بجمع عناصر القضية، وذلك بدراستها دراسة محكمة، وترتيب عناصرها ترتيبا مسلسلا، مستعينا فى ذلك بالقوانين

وعليه أن يقف مع نفسه موقف الخصم، ويبحث عن الوجوه التى يأخذ بها، حتى يستعد للرد عليها فى لباقة وحزم، غير نائل من كرامة زميله؛ ولكى يصل إلى إحساس القاضى ويمس ناحية الوجدان منه عليه أن يبدأ بأقوى الأدلة حتى يستقر فى ذهن القاضى عدالة مطلبه، ويذكر الحوادث ناطقة واضحة حتى يسهل الاستنباط على القاضى، ملما بنفسية القاضى وناحية الاستهواء فيه حتى يسايرها فيكون معه فى طريق واحد

طريقة الإدلاء:

لاحاجة بنا إلى بيان ماللإلقاء من تأثير كبير فى نجاح القضية، فعليه ليجيد ألا يلق من مذكرات مكتوبة، بل يعمد إلى الارتجال بعد التحضير، ليستطلع بنظراته

ما حوله من إعراض وإقبال ، وليستطيع أن يستعين بالحركات والنظرات فى التصوير ، ولكيلا يكون جامدا عند ما كتب فلربما اقتضى المقام خلافه

وعليه أن يلحظ القاضى فى وقته ، فلا يطنب ولا يوجز فى غير حاجة ؛ وأن يلحظه فى إقباله ، ليزيد الشرح والتوضيح إن كان مقبلا ، وليتكلم بحزم ولباقة إن كان معرضا ، مستعينا بتغيير نبرات الصوت على حسب مقتضيات الأحوال

لغة المرافعة :

١ — ألفاظ الخطابة وأساليبها يجب أن تكون مطابقة للبيئة التى يتكلم فيها ، والذوق العام الذى يسيطر عليها ؛ وعلى ذلك يجب على المحامى أن تكون لغته متمشية مع ذوق أهل القانون ، ملاحظا أساليبهم وألفاظهم وعرفهم ؛ وعليه أن يتكلم بلغة مرسلة سهلة لاتكلف فيها ولا سجع ، لاتعلو إلى لغة المتفيهقين ، ولا تنحط إلى العامية التى عليه أن يجانبها كل المجانبة إلا إذا دعت الضرورة

٢ — وعليه أن يتقمص روح المتهم ويصور نفسيته وحماسته فى الموقف المناسب بلغة قوية فخمة رنانة تهز أعصاب السامعين والقضاة

٣ — وأن يغير الأساليب ويصرفها من استفهام إلى قصص إلى تعجب إلى استنكار إلى غير ذلك مما يكسب كلامه جدة

٤ — وأن يسوق كلامه فى صورة شائقة ، يبتدىء بعبارات مثيرة لاهتمام السامعين موقظة لأفكارهم ، حتى إذا هيأ الأذهان ، تقدم بكل ما يريد ، فتتمكن فى نفوس السامعين ؛ ويروى عن محام فى إحدى القضايا الكبرى أنه بدأ مرافعته بهذه الجملة الجذابة : « موكلى يطالب من عدلكم مليونين ومائة وخمسة وعشرين ألفا وثلاثمائة واثنى عشر فرنكا وخمسة وعشرين سنتيما ، ولا أنسى السنتيم ، لأن حقى جلى واضح ، فأنا أطلب الكل أو لاشىء . »

٥ — بساطة التعبير : يذكر النقيب هنرى روبير فى كتابه المحامى : أن أحد كبار المحامين كان يترافع فى إحدى جلسات محكمة الجنايات فى إحدى القضايا الهامة ، وكان بين الحاضرين بالجلسة شخص باد عليه التأثر بالمرافعة ، فلما أتم المحامى مرافعته سأل ذلك الشخص أحد المجاورين له عن هذا المحامى الذى كان

يترافع ، فقال له : أولا تعرفه ؟ إنه الأستاذ فلان . عند ذلك قال السائل فى شىء من الدهشة وعدم التصدق : هذا هو الأستاذ فلان ؟ ولكنه يتكلم بكل بساطة !
ويتحدث الأستاذ حسن الجداوى فى كتابه المرافعة :

أنه دخل مرة قاعة جلسة محكمة الجنايات فى ليون بفرنسا عرضا ؛ فقال : لفت نظرى أن المحامى يترافع ببساطة مدهشة ، ولغة لا تكاد تمتاز عن لغة التخاطب العادية ، واضحة جلية مرتبة ، وحركات نادرة لا تكاد تلحظها لتمام تناسقها مع العبارات ؛ ومع ذلك كان المحامى بنبرات صوته وجمال معانيه وبلاغة تعبيره وقوى حججه ـ مسيطراً على سامعيه بالجلسة من جمهور وزملاء وقضاة ؛ حتى لتحسبهم يغضبون إذ يغضب ، ويلينون ويشفقون إذ يلين صوته ويستدر شفقهم ، فسألت صاحبى عن هذا الذى يترافع ، فلما علمت أنه هنرى روبير لم أزدد إلا إعجاباً .

فمن مميزات مرافعات كبار المحامين البساطة وحسن التعبير والاجتهاد فى لفت نظر القضاة واكتساب انتباههم من أول الدفاع .

« (١) ومن المرافعات البديعة مرافعة الأستاذ لاشو المحامى الفرنسى الذائع الصيت الذى كانوا يسمونه (الدفاع) عن السيدة تيبو ، وهى امرأة يظن أنها أول من استعمل ماء النار فى تشويه وجه خصمه ؛ وتتلخص تهمة مدام تيبو فى أنه كان لزوجها عشيقة ، وقد حاولت كثيراً أن تصده عنها فلم تفلح ، وفى ذات يوم وجدتها مع زوجها بفراشه ، فأمسكت بها ومزقت وجهها بأظافرها ، وأحضرت ماء النار فصبته على وجه خصيمتها . . .

« بدأ لاشو مرافعته التى انتهت ببراءتها بقوله : « كثيرا ما يصادفنا نحن المحامين فى أداء مهمتنا ساعات ثقيلة على النفس ، فقد نجد بجوارنا أشخاصاً بائسين ، دفعتهم للإجرام بواعث لا تشرف ، فإذا ما وقفنا للدفاع عنهم لا نستطيع أن نكظم شعوراً بالاشمئزاز والضيق يغالبنا ، ولكننا بإزاء ذلك نشعر أحياناً بساعات سرور عظيم تعوض علينا تلك الساعات وتنسينا أثرها .

« فعند ما أجد بجوارى ـ كما أجد اليوم ـ امرأة جديرة بالإعجاب من كل

(١) من كتاب المرافعة للأستاذ الجداوى

الوجوه ، أشعر بالسرور والقوة ، لأنني سأثأر فى مرافعتى للآداب المنتهكة ، وأدافع عن ربة الأسرة التى لم يقعدها ضعف النساء الوجلات اللاتى يسمحن بالعبث بشرفهن ولا يملكن للدفاع عنه إلا دموعهن ؛ أما المرأة التى أتشرف بالدفاع عنها فقد أظهرت كامل عظمتها ، ودللت على مقدار شجاعتها ؛ وما فيكم من أحد إلا يفخر لو أنها كانت ابنته .

« وهم مع ذلك يطلبون منكم أن تحكموا عليها ، يريدون منكم أن تفرقوا بين فعل وفعل ، ويضعون لكم مقياساً للغضب ، ويشيرون لكم إلى الدرجة التى يجب أن يقف عندها . لقد مزقت المتهمة جلد المرأة التى مزقت قلبها ، فقد حل عليها إذاً العقاب . لقد ضَربت ، وإذاً فلندفع تعويضاً ثلاثين ألفا أو أربعين ألفاً تقبضها الخليلة حلالا زلالا من المرأة الشريفة الشرعية . تشجيعاً لها على الاستمرار فى فجرها ، ومساعدة لها على تفريطها فى عرضها . يالها من سخرية !!!

« . . . ألا تقدرون غضب هذه المرأة قدره ، وتلك المرارة التى فاض بها قلبها ؟ أليس لها فى عرفكم حساب ؟ لقد وهبنا الله قدراً محدوداً من الصبر والاحتمال لا نتعداه . وما دام الله قد وضع فى نفوسنا هذه العواطف فبأى حق تريدون أن تجدوا فيها موضعاً لجريمة ؟ أتنكرون أن من الغضب ما هو فضيلة مقدسة ؟ ما الذى تفعله إذا رأيت أمامك ابنتك وبجانبها الشخص الذى اعتدى على عفافها ؟ أما أنا فإننى أقتله ، أقتله ولا أبالى ، وأنتم كذلك تفعلون ، وإن كان فى ذلك ذنب فإنما الذنب ذنب المعتدى . . .

« ماهذا؟ أتريدون أن يلعب الأدنياء الحقيرون بعواطف القلوب ويبقى القلب مع ذلك هادئا لا يتحرك ولا تأتى ساعة ينفجر فيها ويرسل شواظا من ناره تحرق الكافرين ؟ لقد وهبنا الله قدرا من الصبر ، ولكنه لم يخلقنا كاملين ، والويل كل الويل لمن يجعل القلوب تضيق بصبرها !! . . . » الى أن قال :

« وما تصاب امرأة كهذه إلا ولله فى أمرها حكمة !!! إنها لم تفعل فى حياتها إلا ماهو حسن ، ومع ذلك حرمت زوجها ، ولها الآن أربعة أشهر كاملة محرومة من ابنتها . أليس ذلك مؤلما ؟ لازوج ، ولا ولد ؛ وكلما ذهبت ابنتها لزيارتها فى

السجن، أضافت آلاما لآلامها . تقول لها : «تعالى يا أماه ، لاتبقى فى هذا المسكن ، إنه بارد ومظلم ، تعالى معى للمنزل ! » فتجيبها أمها : « غدا ، غدا يا ابنتى سأحضر .» ولكن غدا لا يحضر أبدا . لك الله يابنية ! لقد وعدناك بانك ستأخذين أمك مساء الأمس ... حضرات المحلفين ، لقد تأخرنا كثيرا ، ولقد أبطأنا ، فانطقوا ، انطقوا سريعا بحكمكم والله يتولاكم برعايته . »

خطابة المحافل والمشاهد العامة وخصائصها

هذا النوع من الخطابة قد جعله أرسطو من النوع التثبيتى ، وهذا النوع عنده قسيم للخطابة السياسية ، وقد جعله أحد الحديثين من الخطابة العلمية ، وقد جعله آخر من الخطابة السياسية ؛ والرأى عندى أنه يمت إلى كل من هذه الأنواع بسبب .

فهو يشمل المحاضرات التى ينشئها الخطباء فى المحافل العامة فى بعض الموضوعات التاريخية أو الأدبية والتقاريظ التى تتلى فى المقامات الرسمية والنوادى العمومية عند قدوم أحد الأمراء أو تقليده أو سفره أو زيارته ، وعند دخول أحد العلماء فى مجمع علمى وما أشبه ذلك ؛ ويشمل أيضا أحاديث السمر والأندية الأدبية ، كما يشمل خطب الأحزاب فى أنديتهم ومجتمعاتهم ، ليسنوا خطة ، أو يؤيدوا فكرة داعين إليها عاملين على نصرتها ، أو ليحفزوا العزائم ، ويوقظوا الهمم ، أو يدافعوا عن تهم توجه للحزب ، أو ليردوا كيد الخصوم

ويغلب أن يكون المجتمعون لسماع هذا النوع من الكلام ، من الخاصة أو من الأوساط ، وقليل أن يكونوا من العامة ؛ ولذلك كان شيشرون الرومانى يرى أن هذا النوع من الخطابة أصعب الأنواع كلها ، فإنه لا يمكن لما لها من المنزلة ولما لسامعيها من المقام أن يلقى القول على عواهنه فيها

خصائص لغتها :

١ — يحسن أن تكون فى جملتها متوسطة المرتبة ، منسجمة طلية رقيقة ، تسترضى السامع وتفكه خاطره ، محكمة الأفكار مع الوضوح والسهولة . ومن ثم يجب عليه أن يتحاشى التعابير الخشنة والأساليب الجافة ، وكل ما ينبو عنه السمع ويأباه الذوق السليم ، وفيها تسرد الأدلة المنطقية مع الوسائل الخطابية

فيكون للمنطق فيها سلطان بجوار سلطان الخطابة وما يتخذ فيها من طرق لإثارة الأهواء.

٢ — وإذا كان الاجتماع للرد على هجوم وجهه أناس للحزب، فليبتدىء الخطيب بتفنيد الأدلة التى يسوقها خصمه؛ وذلك بأن يضعها فى شكل قياس منطق، لأن هذا يساعده على بيان ما فيها من زيف. ثم يتجه عند نقضها إلى الأقيسة الخطابية والأشكال المنطقية معا. فإذا ما انتهى من كشف بطلان حجج الخصوم انتقل إلى مهاجمتهم فى مبادئهم وأفكارهم، وعقد موازنة بين ما يدعو إليه وما يدعون، على أن يكون عف اللسان بعيداً عن البهتان والتضليل

٣ — على الخطيب الحزبى أن يجتهد فى جعل عباراته فخمة قوية واضحة سهلة، لا تنزل عن الأكفاء ولا تعلو على الأوساط ولا تتسامى عن العوام، فإن الخطبة ستنشر فى الغالب فى الصحف، وستقرؤها الطبقات كلها وإن كان السامعون من الخواص أو ممن قاربهم

٤ — ولأن الخطيب الحزبى يخاطب الأمة كلها بكلامه فى ناديه وينشرها فى صحفه، وجب أن تكون خالية من كل ما يؤاخذ عليه قائلها، فلا يسرف فى القول ولا يغلو، ولا يعد بما يكون مظنة للخلف، فإن تخلف العمل عن القول يجر إلى عدم الثقة.

الخطابة كما تصورها اليونان والرومان والتمثيل لبعض خطبائهم

الأمم تتشابه بطبائعها ومداركها من وجوه كثيرة وإن اختلف بعضها عن بعض؛ ولذلك جاءت آدابها متشابهة جملة، وبخاصة فى عصور النشأة الأولى. نشأة الطبيعة والفطرة، فلم تخل أمة من الخطابة، فهى فطرية فى الإنسان كما تقدم. ولكن لكل أمة خصائص فى مشاعرها ومداركها تمتاز بها عن سواها، فاليونان يمتازون عن سواهم بسعة التصور وقوة العارضة والنظرة العامة الشاملة والبحث الدقيق والفكر العميق، فإن نظر اليونانى الى شىء نظر إليه ككل يبحثه ويحلله تحليلا عقليا منطقيا يربط فيه المسببات بالأسباب والمعلول بالعلة ولذلك جنحوا إلى الفلسفة

وبعد عصر فيثاغورس والأيليين وبعد أن دحرت أثينا الفرس وحفظت

لليونان استقلالهم وعقليتهم ، مضى جماعة من اليونانيين يستكملون أسباب الحضارة بهمم جديدة ، ونبغ فيهم العلماء والشعراء والفنانون والمؤرخون والأطباء والصناع ، وقويت الديموقراطية فى جميع المدن ، وعظم التنافس بين الأفراد ، فزادت أسباب النزاع أمام المحاكم الشعبية ، وشاع الجدل القضائى والسياسى ، فنشأت من هاتين الناحيتين الحاجة إلى تعلم الخطابة ، وأساليب المحاجة واستمالة الجمهور ، ووجد فريق من المثقفين المجال واسعا لاستغلال مواهبهم فانقلبوا معلمى بيان . وهؤلاء هم السوفسطائيون الذين ملئوا النصف الثانى من القرن الخامس

من هذا يتبين أنهم انحدروا الى الخطابة من طريق الفلسفة ، واتخذوها وسيلة من وسائل الانتصار فى الجدل القضائى والسياسى ، وابتدأ القوم يعلمونها على هذا النحو وتحت سلطان هذا الفكر ، فواضح بذلك أن اليونانيين تصوروا الخطابة فناً له أصول وقواعد ويشتمل على أنواع ، ولكل نوع حدوده ومواقفه ؛ وقد ذكرت لك الأنواع سابقا ، أما أصولها عندهم فثلاثة :

١ — إعداد المعانى التى يكون بها الإقناع

٢ — تنسيق المعانى ، أى سرد أجزائها على نظام واحد ليحكم الخطيب تركيب الخطة ، وارتباط أقسامها بحيث تكون أبين غرضا وأحسن فى النفوس وقعا

٣ — التعبير الذى يراعى فيه حال السامع لتصاغ له المعانى فى ألفاظ تنشر بها نفسه وتمتزج بأجزاء فهمه

وقد كانت الخطابة عند اليونانيين ـ كما يتحدث المؤرخون ـ من الأعمال الشريفة التى لا يتولاها إلا الشرفاء ، فحرموها على الأرقاء والمرذولين ، ومن سقط شرفهم ، ومن ثبت عليهم عقوق الوالدين ، أو التنحى عن الدفاع عن الوطن ، أو عن قبول وظيفة عامة ؛ ومن شوهدوا فى محال الدعارة ، ومن اتجروا فيما يخالف الآداب والأخلاق

وبلغ من احترامهم لهذه المهنة الشريفة أنهم كانوا يعدون المكان المعد لجلوس الخطباء مقدسا ، شأنه شأن حرم المحكمة نفسه ؛ وكانوا يرشونه بالماء المطهر ، إشارة إلى أنه يجب ألا يجرى فيه من الأعمال ولا يتكلم فيه من الأقوال إلا ما كان طاهرا نقيا

ومن أدلة ذلك الاحترام لفن الخطابة أنهم أقاموا فى معبد دلفيس تمثالا من الذهب الخالص لجورجياس أحد السوفسطائيين ، تكريما له لما اشتهر عنه من الخطب الرائعة . هذه طبيعة الخطابة ومنزلتها عندهم

أسلوبها عندهم :

من تلا كتاب الجمهورية لأفلاطون ـ وفيه مباحث جليلة فى الخطابة عند اليونان ـ يتجلى له أن جميع خطباء أثينا كانوا ينمقون العبارات قبل أن يتلوها . وتتراءى له من خلال سطورهم آثار التعمل والاستعداد قبل إلقاء خطبهم على مسامع الجمهور ، وإذ كان يحظر على المحامى فى أثينا أن يدافع عن غيره ، اضطر بلغاء اليونان أن يكتبوا خطبهم فى الدفاع ويعطوها غيرهم يستظهرها ليلقيها ، ولذا قل المرتجلون فى اليونان وإن وجدوا فهم على ندرة

ويجب أن يلاحظ أن الخطيب الأثينى مهما بلغ من ثقته بنفسه . لم يكن يجسر أن يقف موقف الخطابة قبل أن ينظر نظراً بليغاً فيمن سيلقى عليهم ، لأنه عارف بدرجة مدارك الحضور ومعرفتهم نقد ما يقول .

وقال بعض المعاصرين : لو لم يكن خطباء الأقدمين يهيئون خطبهم قبل إلقائها لم يصلنا منها إلا القليل ، وذلك لأن الاختزال لم يكن معروفا فى ذلك الوقت .

وإنى أتبين فيما كتب الكاتبون عن هذه الناحية فى اليونان جهة اتفاق فى تنميق العبارة والتعمل وطول الفكرة ، وجهة اختلاف فى الارتجال ، فبعض الكاتبين ومنهم الجاحظ ، يسلبهم هذه الميزة ؛ وحجته فى ذلك وصول كثير من خطبهم إلينا ؛ فان هذا دليل كتابتها ؛ والبعض الآخر يجعل الارتجال صفة لهم وميزة فيهم ؛ فقد جاء فى كتاب المرافعة للأستاذ الجداوى : « وقد امتاز خطباء اليونان بملكة الارتجال ، وكان ديموستين وحده هو الذى يلقى خطاباته عن ظهر قلب بعد أن يكون قد أعدها ؛ لذلك كانوا يعيبونها عليه ويعيرونه إياها ، ويقولون عنه إن خطاباته تفوح منها رائحة الزيت ، وذلك رغم ما اشتهر عنه من سرعة الخاطر »

فنحن فى الارتجال بين أمرين متناقضين لا ندرى بأيهما نأخذ ، فالبعض يعد الارتجال ميزة لخطباء اليونان . وأن عدم الارتجال مثلبة ومسبة ، ويعتبرون الخطب

المحضرة خطبا مطبوخة؛ والبعض يقول بقلة المرتجلين ، وإن وجدوا فهم على ندرة .

وإنى على الرغم من كثرة القائلين بسلب ميزة الارتجال عن خطباء اليونان وقلة من وصفهم بها ، أرجح أن الارتجال كثر فيهم ؛ وتاريخهم فى الخطابة يؤيد ذلك ، فقد وجدت فيهم وإن كانت فى حالة أولية فى القرنين السابع والسادس ؛ ويقول المؤرخون عن بركليس أن خطاباته التى يرتجلها كانت تنزل على خصومه نزول الصواعق ، فكانوا ينصتون إليها مشدوهين ، وكانت تثير فى السامعين نيران الحماسة . وتحدثوا أيضاً عن أتيادوقليس أنه كان من أنبغ أهل زمانه ؛ اشتهر بالفلسفة والطب والشعر والخطابة ، وقال عنه أرسطو : إنه منشئ علم البيان . ومولده حول ٥٠٠ ق . م

ولقد تحدث المؤرخون أيضا بكثرة الخطباء فيما بينهم وكثرة الوسائل التى كانوا يلجئون إليها للنجاح فى قضاياهم حتى خشى الشعب اليونانى مغبة ذلك فسن القوانين لمنع الخطباء من التأثير فى المشاعر بين جدران المحاكم ، حتى إنهم عينوا موظفا يأخذ على الخطيب طريقه إذا مارآه يحاول التأثير بإثارة الوجدان وبعث العواطف . وهذا دفاع سقراط عن نفسه ، وهذه محاورات أفلاطون ، كلها ناطقة بكمال العقل وذرابة اللسان وقوة الحجة وسلامة المنطق ، وهذا أثر مادى لجورجياس يتحدث عنه المؤرخون أنه أقيم من أجل نبوغه فى الخطابة ، وهذه وسائلهم للنجاح فى قضاياهم كثيرة ، وهذه محاولاتهم للتأثير منوعة ؛ وإذا كنا نحن نشعر الآن بما للارتجال من تأثير وبما له من أثر فى إنجاح المواقف ، فأخذ بعضنا يحاوله ، بل قد حاوله المرحوم سعد باشا زغلول ونجح فيه ، ويحاوله كثير من المحامين الآن على ما بيننا وبين اليونانيين من فرق ـ أفليس من الإنصاف بعد كل هذا أن نعترف بأنهم حاولوا الارتجال ونجحوا فيه ؛ فكانت ميزة الارتجال فيهم إلى حد ما . ولا يطعن فى ذلك ما تبينوه من التعمل فى خطبهم ، ولا كثرة الخطب الواصلة إلينا ، مما يدل على أنها محضرة مكتوبة ، فقد كان من العادة أن يعود الخطيب عندهم فيدون بالكتابة ما قاله من خطاب ، ومن هنا جاءت كثرة الواصل منها إلينا

الخطابة كما تصورها الرومان

أما الرومان فقد لقنوا الخطابة عن اليونان ، ولكى نعرف مدى تصورهم لها أشرح لك كيف انتقلت إليهم وكيف نبتت فيهم ونمت بين متعلميهم ، حتى تكون على بينة من الخطوات التى خطتها عندهم والخطوة التى نالتها فيما بينهم :

يتحدث التاريخ عن الرومان قديما أنهم كانوا يزدرون الآداب والموسيقا والتصوير ، ويعدون الاشتغال بها إسرافا فى الأوقات وتضييعا للأعمار ، على عكس الإغريق الذين كانوا يغرمون بها إغراما ، وكان بعض رجالهم ، ومنهم كاتو ، يقاومون انتشار الآداب الإغريقية فى بلادهم ويدعون قومهم إلى الاحتفاظ بقديمهم ، فقد ابتدأت هذه الآداب تغزو بلادهم ، حتى إذا مات كاتو سنة ١٤٨ ق م وتم استيلاء الروم على بلاد الاغريق سنة ١٤٦ نزح اليونانيون زمرا إلى رومة وأخذ ينتشر فن البلاغة والبيان ، وظهر للناس تدريجا أنه فن نافع يليق بالشرفاء والسراة ، فأقبل عليه كثير من الشبان معتقدين أنه سبيل القدرة على الدفاع وطريق الوصول إلى الشهرة والصيت البعيد ، وأصبحت التربية العالية عندهم فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد يجمعها كلمة واحدة هى (الخطابة) وكان معلمو هذا الفن يونانيين يعلمون باللغة اليونانية ، واشتهر الخطيبان ماركوس أنطونيوس ولوسيوس كراشوس حوالى سنة ١٠٠ ق م وفى سنة ١٢٨ ق . م درست الخطابة أول مرة باللغة اللاتينية على يدى رومانى

وكان هذا التعليم يعد الطلاب ليكونوا خطباء مفوهين حتى قال شيشرون الرومانى المتوفى سنة ٤٣ ق . م : إن الطلبة فى القرن الآخير من حكم الجمهورية (التى انتهت سنة ٢٧ ق . م) لم يهتموا بدراسة شىء اهتمامهم بتعلم كل ما يؤهلهم للفصاحة والخطابة

ويتحدث التاريخ بان نظامهم السياسى وبه مجلس الشيوخ والمجامع الوطنية الكبرى ، كان لا يسمح بالرقى إلا لمن كان قادراً على التأثير فى نفوس سامعيه ، ولذا كان اهتمامهم بهذا الفن عظيما جداً .

ولذا كانت مدارس البيان عندهم واسعة المناهج راقية التعليم ، وكان

شيشرون وكونتليان يريان ، وهما من أساتذة الخطابة ، أنه لا يليق بالخطيب أن يقصر نفسه على الدفاع فى المحاكم عند الخصومات ، وإنما يجب عليه أن يشترك فى جميع مظاهر الحياة وأعمالها العامة ، وذهبا فوق ذلك إلى أن الرجل لا يكون خطيبا حتى يكون طلق اللسان حسن البيان جم المعارف ملما بالشرائع وحوادث التاريخ ، خبيرا بالمشاعر والعواطف الإنسانية ، قادرا على إثارتها أو كسر حدتها ، كذلك يجب أن يكون الخطيب صادق الحكم سريع الحفظ قويم الخلق حازماً فيلسوفاً .

وعلى الإجمال كان طلاب هذه المدارس يدرسون جميع ما كان معروفاً فى ذلك الوقت باسم العلوم العقلية السبعة ، وهى قواعد اللغة والبيان والموسيقا والمنطق والحساب والهندسة والفلك . ومما يجدر بالذكر أنهم كانوا يتعلمون الموسيقا لإدراك الأوزان لا للعزف على الآلات كما كان يفعل اليونان ، وذلك لإجادة التوقيع والنطق عند الخطابة . وكان أسلوبهم فى ذلك أنهم كانوا يمرنون الطلبة فى المبدأ على إلقاء مقالات قصيرة فى موضوعات خلقية أو سياسية ، ثم كانوا يراضون على الخطابة الجدلية ، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى تمرينات خطابية أخرى أرقى وأصعب وهنا يتناولون ثلاثة أنواع :

١ — الخطابة التأملية ، وهى التى عبر عنها أرسطو بالشورية ، وهى التى يطلب فيها من الخطيب أن يشرح الخطة الحازمة التى يجب اتباعها فى ظروف وأحوال معينة تذكر له

٢ — الخطابة القضائية ، وهى التى يمثل فيها الخطيب دور المدره حين يدفع عن موكله أيا كان نوعه أمام القضاء .

٣ — خطابات المدح والقدح ، وهى التى عبر عنها أرسطو بالنوع التثبيتى وهى تقوم على مدح إنسان أو ذمه

وكان الطالب يكلف أعداد خطبه قبل إلقائها ، ويطلب إليه أن يعنى كل العناية بالوسائل التى تهيء له النجاح .

وللتمرن على المحاماة كانوا يتوهمون قضية ما ، فيتوهم أحدهم نفسه محاميا للدفاع

عن المتهم الوهمى ، وآخر يجهد نفسه فى إثبات التهمة عليه ؛ وهذا ما تفعله كلية الحقوق الآن على الفرق بيننا وبينهم فى العناية باللغة والخطابة

وكان الكثير منهم لا يحفلون بإعداد خطبهم ، واعتاد بعض الخطباء الشبان أن ياتوا الى المحكمة بدفاعهم مكتوبا على الورق ، وكان كونتليان وهو من أساتذة الخطابة كما تقدم ، يرى أن الارتجال لا يتأتى للمرء إلا فى آخر عمره بعد أن يكون قد ذاق الأمرين فى تعلم هذه الصناعة وعرف حلوها ومرها . وكانت الخطابة فى برنامج التربية عنده أرقى درجات التربية والتهذيب .

وطالما هذب شيشرون خطبه وتمرن على إلقائها ، حتى إنه فى سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على كيفية الإلقاء ، وكان يرى أن الخطابة فى المجالس العامة لا تشبه دفاع المحامى أو الخطاب السياسى ، فإنه يستعمل فيهما جمل سائغة بالاستعمال ، ولكن الخطاب العام يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة ؛ ولذلك كان هو من دعاة الإعداد فى مثل هذه الخطب (على أنه كان من عظام المرتجلين على ما سيأتى فى ترجمته) وكان يخالفه فى هذا أستاذه هورتا نسيوس ، فإنه كان على جانب عظيم من الذكاء وحسن الذاكرة ، بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه ويؤلفها فى الحال . فيظهر مما تقدم :

١ — أنها انحدرت إليهم من اليونان ، حتى كان الأساتذة من اليونانيين وكانت لغة التعليم لغتهم

٢ — كانوا يعنون بها أشد العناية ، وكانوا يعتبرونها فنا له شأنه فى الحياة يأخذون أنفسهم به وبكل مايجعلهم يحرزون قصب السبق فيه ، حتى اشتهر بينهم عدد عظيم من مصاقع الخطباء

٣ — مع هذه العناية الفائقة لست فى حاجة إلى دفع حجة من سلبهم هم واليونان ميزة الارتجال ، فمن الحق أن نعترف أن الارتجال كان له بينهم حظ وافر

ترجمة بعض الخطباء عند اليونان والرومان وبعض خطبهم

ديموستين أو ديمستينس (١)

خطيب يونانى مصقع، ولد فى أثينا سنة ٣٨١ ق - م ومات أبوه وهو طفل فلم تحسن أمه تربيته بل دعاها الحنو إلى تدليله، فشب حاد الطبع سيء الخلق، حتى لقبه أترابه بالحية، قرأ وهو حدث كتب ثوكيذيذس التاريخية وسبر غورها ووعاها جميعها. وأعجب بفصاحة الخطباء وتصفيق الناس لهم، فتاقت نفسه إلى التشبه بهم، ولما بلغ سن المراهقة خاصم أوصياءه الذين بددوا ثروته وفاز عليهم وألزمهم بأداء مابقى من حقوقه سنة ٣٦٦ ق. م ثم هم بالخطابة فى الجماعة فسخر الناس منه لسقم عبارته وانخفاض صوته واثغة لسانه، فقعد به ذلك عن السعى لإدراك غرضه، غير أن ساتيروس ممثل الكوميديا الشهير شجعه وأفهمه أنه لا ينقصه غير حسن الإلقاء وإجادة النطق، وحينئذ شرع ديموستين فى تذليل ما اعترضه من الصعاب؛ وقد قال بعض المؤرخين: إنه كان يحلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة حجرة له خاصة بعيدا عن الناس ليمرن نفسه على الخطابة ويتخير الإشارات المناسبة وقت الإلقاء، وإنه كان يصعد أحيانا الجبل عدوا وهو يردد أبياتا من الشعر بصوت عال، أو يرقى صخرا على ساحل البحر وفى فمه بعض الحصى ليحل عقدة لسانه، ويخطب على الأمواج ويحكم ضوضاءها

وبعد اعتكافه على تلك الحال عدة سنين، صار لا يخشى بأس الجمهور وانتقاده، ورقى منبر الخطابة فملك الشعب وحاز إعجابه. واتخذ فصاحته سلاحا شهره فى وجه فيليبس - كما تقدم - ليصده عن سلب إغريقية حريتها واستقلالها؛ وبقى يدافع عن حقوق بلاده جميع أيام فيليبس وخلفائه إلى أن مات سنة ٣٢٢ ق. م واشتهرت خطبه ضد فيليبس باسم الفيلبية، وهى أربع جاء فى أولاها:

«أيها الآثينيون (١)، حتى متى سكوتكم وإخلادكم إلى التوانى؟ متى يدب دم الحياة فى عروقكم ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم؟ ما ذا ترتقبون؟

---

(١) من كتاب تاريخ اليونان للأستاذ محمود فهمى

أتنتظرون أمرا لم تجر به نواميس الكون ، ترمى لكم به السماء فى أيديكم ؟ أو أن يدفع بكم الإله « زفس » إلى عمل ماوجب عليكم ؟ عجبا لكم ! ! أى دافع للنفوس الأبية إلى فعل ما وجب عليها أقوى من تهديد كلمتها المجتمعة بالتفريق ، ومجدها المشيد بالنقض ، وشرفها المرتدى بالتمزيق ؟ عار لا يزايلكم ولا يواريه الموت معكم ، يوم يواريكم فى حفركم . أتقنعون بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضا فى المجامع عما جاءه من الأنباء ، فيجيب واحد بأنه مات ويقول الآخر : لا والإله « زفس » لم يمت بل هو مريض . فياعجبا ، عجبا يميت القلب ، أى نبا غير أن مقدونيا تسعى لقهر أثينا ، وحطها عن عظمتها . والاستيلاء على عرشها ، ووضع نير الاستعباد على رقاب اليونانيين .

« وماذا عساكم أن تصيبوا من المغانم إن مرض فيلبس أومات ، أوانقضت على رأسه مصيبة من السماء ؟ لئن لم تهبوا من رقادكم ، وتنشطوا من عقالكم ، وتتنبهوا من غفلتكم ، ليسلطن عليكم فيلبس آخر ، ليس دون هذا فى الشدة عليكم ؛ فإن فيلبس اليوم ما قوى إلا بضعفكم ، ولا نبه إلا بخمولكم ، ولا تحرك إلا بسكوتكم . . . » إلى أن قال : « أيها الأثينيون ، أتعلمون لماذا ننفق فى أعيادنا مالا ننفقه على مرا كبنا الحربية ، ونجتمع لها فى يوم معلوم لانتخطاه ، على حين أن أساطيلنا لا تنتهى إلى غاياتها التى تؤمها إلا بعد فوات الفرصة ؟ ذلك لأن أمور الأعياد قد مستها العناية من قبل ، فسنت لها القوانين ، ووضعت لها الضوابط ، فلا إهمال ولا تردد . أما الحروب وعددها ، وأخذ الأهبة لها ، فلم تلحظها بعد عين قانون ، ولم تمتد إليها يد تنظيم . . . » إلى أن قال : « فالآن حقت المبادرة إلى تغيير هذه الخطة الشنعاء ، فقد عظم الخطب ، وتفاقم الأمر ، حتى بلغ السيل الزبى ، والسكين العظم ، وفيلبس ليس بمنته إلا إذا أحكمنا أمورنا ، وغلقنا الأبواب فى وجهه . . . . . . الخ »

ترجمة شيشرون الرومانى (١)

فيلسوف من أكبر الفلاسفة المعروفين، وخطيب من أبلغ الخطباء المفوهين،

(١) من كتاب تاريخ التربية للأستاذ مصطفى أمين

امتزجت فيه التربيتان الرومية والأغريقية ، وتضافرتا على تكوين أخلاقه، وتثقيف مداركه، وغذته كلتاهما بأرقى المعارف والآداب المعروفة فى عصره .

منشؤه ومرباه :

ولد سنة ١٠٦ ق - م من أبوين عريقين فى المجد ، وقضى دور طفولته فى أرقى المدارس الرومية ، حيث قام بتربيته وتهذيبه رجال من أكفأ المربين الذين أنجبتهم رومة فى ذلك الحين ، وقد كانت العادة المألوفة بين الطبقات العالية فى رومة أن يرحل الغلمان والشبان المتعلمون إلى الممالك الأجنبية ؛ لاستكمال علومهم ومعارفهم ، واستتمام ما بدءوه من أنواع التثقيف والتهذيب ، فجرى شيشرون على هذه السنة ، ورحل إلى أثينا ومصر وآسيا الصغرى وجهات أخرى كثيرة ، وأخذ عن أكبر رجال العلم والأدب الأثينيين ، ودرس الشريعة والفلسفة والآداب ، وتوفر على دراسة البيان فحذقه ونبغ فيه أعظم نبوغ ، درسه فى رودس مع أبولونبوس أحد البلغاء المشهورين ، وأقدر الخطباء المفلقين فى زمنه .

سأله أبولونبوس هذا ذات مرة ، أن يخطب الناس باللغة الإغريقية فى موضوع اقترحه عليه ، فلبى مسرعا ، وخطب جمهوراً كبيراً ، وما كاد يتم خطبته حتى ضج الناس ضجيج الاستحسان ، وأقبلوا عليه يهنئونه ويطرون بلاغته وحسن بيانه ، أما أبولونبوس فقد جلله الهم والاكتئاب ، وبعد سكتة طويلة عميقة رفع بصره إلى شيشرون ، وقال بلهجة الأسف المحزون : « أهنيك وأطرى بلاغتك ياشيشرون ، ولكنى أرثى لهذه البلاد ، وأندب حظها المنكود ، فإنى أرى البيان وهو البقية الباقية من آثار مجدها السابق سيذهب عنها ، وينتقل بك إلى حاضرة الروم » .

ولما عاد شيشرون إلى رومة اشتغل بالمحاماة ، وكان أكثر عمله خاصاً بالدفاع عن الأشراف والنبلاء وذوى المناصب الرفيعة ، المتهمين برشوة أو خيانة أو غصب أو غير ذلك من الجرائم وكبائر الذنوب . وقد ألقى فى هذه المواقف أبلغ ما أثر عنه من الخطب التى سار بذكرها الركبان ، ثم أخذ يتدرج بعد ذلك فى مراتب الدولة ، حتى بلغ منصب القنصلية ، أسمى المناصب السياسية فى البلاد الرومية فى

ذلك الحين ، وفى هذا المنصب الرفيع الشأن أظهر من الكفاية والإخلاص والأمانة وحب الوطن ، ماملك به قلوب الناس جميعا ، حتى سموه جميعا أبا الشعب

عاش شيشرون فى عصر كله فساد واضطراب وخيانة وفجور ، ولكنه عاش حياته مخاصاً فى وطنيته ، عادلا فى سياسته ، أميناً فى سره وجهره ، حراً فى عمله وتفكيره ، أما عظمته العقلية فقد قال فيها فورسيث : «إنها عظمة أزرت بعظمة كل إنسان عاش فى عصره ، نعم كانت له معايب معدودة ، وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه ، كان كثير الزهو بعلمه ، كثير التردد فى أمره ، ضعيف العزم ، تعوزه الشجاعة والإقدام ، ولكنه كان بجانب هذا طاهراً نقياً صريحاً فى عصر كله خبث ، وكان قلبه عامراً بحب الوطن ، على حين كان الناس يتسابقون إلى خيانة الأوطان

مقتله :

فى أيام أنطنيوس عم الفساد واشتدت الفوضى ، فقام شيشرون وألقى خطبه الشهيرة التى عاب فيها سياسة البلاد ، وعرض فيها بزوج أنطنيوس ، وتنبأ بمصير الدولة وسيرها فى طريق الاضمحلال والخراب ، ولما أحس أن أنطنيوس حقد عليه وقضى بإعدامه ، حاول الفرار من البلاد الإيطالية ، ولكن الجواسيس تعقبوه فأدركوه وقتلوه ، وكان ذلك سنة ٤٣ ق م . ثم حملوا رأسه ويديه إلى رومة ، وأهدوها إلى أنطنيوس ، ففرح بها وأرسلها من فوره إلى زوجه فولفيا وكانت حاقدة عليه . فأخذت فولفيا الرأس ، وألقته فى حجرها ، وأخذت تخاطبه مخاطبة الشامت ، وتكيل له ألفاظ السب والشتم ، كما أخذت تخزه بإبرة حتى شفت غليلها ، ثم أخذه الحراس وسمروه هو والبدن فى المكان الذى طالما خطب فيه الجماهير .

خطبة من خطبه [1] :

كان كاتيلينا من أعضاء مجلس الشيوخ ، يتآمر على الجمهورية ليستولى على الحكم ، وقد ألف جيشاً صغيراً من غوغاء الناس ، ودربهم على أعمال الشر والأذى ، واتفق معهم على أن يضرب الضربة القاضية فى اليوم التالى ، فتسرب الخبر إلى

(١) من كتاب الخطابة للدكتور نقولا فياض .

شيشرون قبل انعقاد المجلس ، فلما اجتمع الشيوخ وكانيلينا بينهم ، كان شيشرون أول المتكلمين :

« حتام يا كانيلينا تطمع منا فى الصبر ، فتزيد فى غرورك ، وتتمادى فى بغيك وفجورك ؟ طغيت فما عرفت لطغيانك حداً ، ولا حفظت لأمتك عهداً ، ولا راعك الحرس القائم على الأسوار فى الليل والنهار ، ولا أهاب بك جلال هذا المقام ومن فيه من شيوخ كرام . لقد برح الخفاء عن حالك ، وظهر المستور من أعمالك ، فلا تظن بعد اليوم أحداً يجهل ما فعلت بالأمس وقبل الأمس ؛ وبمن اجتمعت وعلام عولت .

« يا للدهر ، ويا للأخلاق . المجلس يدرى ، والقنصل يرى ، وهذا الرجل لا يزال حياً ، يأتى إلينا ، ويشترك معنا ، ويجيل نظره فينا ، ويختار منا من يقع عليه حكم الموت . أى كانيلينا كان عليك أن تساق إلى الموت بأمر القنصل من زمن طويل ، وأن يرد إلى نحرك السهم الذى تفوقه إلينا .

« قتل سيبيون فيما مضى تبريوس كراكس لخيانته ، ولم يكن سيبيون قنصلا ، ونحن القناصل نحتمل كانيلنا الساعى فى خراب العالم بالحديد والنار . سلام على رجال هذه الجمهورية القدماء ، لقد كانوا شجعاناً يذبون عن الوطن ، ويعاقبون خائنيه . أما نحن فالخائن بيننا ، ولا نجد له قصاصاً ، ولا نستطيع منه خلاصاً ، هذا لعمركم الصغار بعينه !! »

الخطابة كما تصورها العرب

تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان فى أنهم أبناء فروسية ، وأصحاب نفوس أبية ، طلاب استقلال وحرية ؛ ولذلك كانا أهل خطابة ، فهذه الحال داعية من دواعيها ، ولكن لكل أمة خصائص كما قدمت .

فالعربي — حتى بعد الإسلام — لم ينظر الى الأشياء نظرة شاملة عامة كما فعل اليونانى ، بل كان يطوف فيما حوله ، فإذا رأى منظراً أعجبه ، تحرك وجاش صدره بالكلام ، فلم يتعمق فى البحث ، ولم ينظر إلى الأشياء نظرة كلية جامعة محيطة ، وإنما يستوقف نظره ناحية خاصة فيما ينظر إليه .

قال الجاحظ بعد كلام طويل : « كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة . ولا إجالة فكرة . ولا استعانة . وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو فى حرب . فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى اليه يقصد . فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأمهر . وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز . والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليسوا هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله . فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد . ولا تحفظ ولا طلب . . . » اه

وهذا يدل على أن خطبهم كانت بلاغة فطرية ، لم تكن جارية على قوانين ثابتة ولا أصول مرعية ، فأنت تلحظ فيها ضعف المنطق . وعدم تسلسل الأفكار تسلسلا دقيقا ، وقلة ارتباط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، فلو قدمت متأخرا ، أو أخرت متقدما . لم يلحظ القارىء أو السامع ذلك وإن كان أديبا ، ما لم يكن قرأها من قبل ، وأحيانا تتماسك أجزاؤها إذا اتحد الغرض فى الخطبة ، كخطاب الإملاك .

وقد أفادتهم هذه النظرة ، نظرة الحس والعاطفة الجزئية لا نظرة البحث والتدقيق ، فجعلتهم يتعاورون على الشيء الواحد ، فيأتون فيه بالمعانى المختلفة من وجوه مختلفة ، من غير إحاطة ولا شمول ، حتى لينهض الخطيب فيأتى بخطبة كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحكم الموجزة الممتعة . لا يلحظ فيها كاليونانى أو الرومانى حسن الافتتاح ، وتنسيق الموضوع وتجزئته ثم حسن اختتامه . فإن ذلك شأن الخطيب الذى يهيء كلامه ، ويعده وفق قوانين وقواعد متواضع عليها ، وهم كانوا من المرتجلين .

أسلوبهم ومعانيهم

أما فى أسلوبهم فما كانوا يجرون على نمط واحد، بل كانوا أحياناً يسجعون فى خطبهم كما ترى فى سجع الكهان ، وأحياناً يأتون بجمل مزدوجة ، وأحيانا يرسلون القول إرسالا ، فقد كان لا تكلف فيه ولا صناعة ، لعدم عنايتهم بتهيئة القول . وأخص ما تمتاز به المعانى الخطابية فى هذا العصر ، صدقها وعدم الاغراق والمبالغة فيها . وذلك لما فيهم من صراحة وحب للصدق والحقيقة ، وقد نرى فى نصائحهم ووصاياهم معانى اجتماعية وخلقية ، ولكنها ليست نتيجة دراسة وبحث ، ولكنها نتيجة لتجارب الحياة .

أما خطباء العرب فى الجاهلية وخطبهم ففى متناول يدك ، فلا داعي للإطالة

الخطابة بعد الاسلام

بما للدين الجديد من أثر فى الحالة الاجتماعية والعقلية ـ خطت الخطابة نحو الفن ، وتغيرت عما كانت عليه فى الجاهلية ، بتأثير القرآن فى العرب ، فأنت عليم بأنهم لم يؤخذوا أيضاً فى هذا العصر بتعليم وتثقيف وضعى ، ولكنهم أخذوا يحاكون القرآن الكريم والحديث الشريف ، فأخذوا يتهجمون تهجماً فى الاستدلال ، إذ وجدوا فيهما أبلغ طرق الاقتناع الخطابى ، فإنك تجد فى أدلتهما استقامة المعنى إذا قستهما بمقياس المنطق ، فإن المقدمات فيهما قد تلاءمت مع نتائجها ، وتوافرت فيهما شروط الانتاج ، كما تجد فيهما جمال اللفظ ، وجودة الأسلوب ، ومخاطبة الإحساس ، وإثارة الرغبة ، فهذا قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

فتأثر الخطباء هذه الطريقة ، فكانوا يسلكون فى الاستدلال الطريق المنطق والطريق الوجدانى بالمحاكاة والتقليد ، لا عن مدارسة وتعليم ، ولكن بهدى الطبع وإرشاد النفس .

المعانى

وكانت المعانى مسلسلة متصلة الأجزاء ، محكمة الأواصر ، لم تكن منتثرة كما كانت فى العصر الجاهلى ، وكذلك لم يكونوا يغرقون فى المعانى أو يبالغون فيها ،

لما امتازوا به من الصراحة والصدق ، وأول ما يلاحظه الإنسان فى هذا العصر ، أن الخطبة أخذت صورة تواضع عليها الخطباء ، تواضع اتفاق ناشيء عن اتفاق فى الخواطر لا تواضع تعليم ، فأصبحت مقسمة مجزأة ، كل جزء يلحق بسابقه ، يبتدئون فيها بالتحميد وبالثناء ، ثم يهجم الخطيب على الموضوع ، فيقدم ما يراه دليلا لدعواه ، وبعد أن يتم القول يدعو الله بالتوفيق والرشاد .

وكانوا يعمدون فيها إلى إثارة الأهواء والميول وبعث الوجدان . بأساليب خطابية ممتازة جاءت سليقة وطبعا ، وكانت تمتاز بروعة جذابة تبهرك وتأخذ عليك مسمعك وتحبب إليك الاستماع المتصل .

ولما جاء العصر العباسى ترجمت العلوم والفنون ، لكنهم تأثروا بالعلوم والفلسفة أكثر مما تأثروا بالأدب اليونانى . فكانت الكتب المترجمة علمية لا أدبية ، ولذلك لم يظهر للأدب اليونانى بخاصة أثر فى الأدب العربى ، اللهم إلا فى العصر العباسى الثانى .

على أنى قدمت لك أن العرب أخذوا يستنبطون قواعد للخطابة فى آخر العصر الأموى ، واتصل ذلك الاستنباط بالعصر الذى بعده ، ولكنها كانت شذرات منثورة ، حتى ترجم إسحق بن حنين كتاب الخطابة لأرسطو . فأصبح مرجعا للخطباء . فمن ذلك تعرف أن قوة الخطابة عند العرب وتقدمها ، راجع إلى الطبع والسليقة والتجربة والتقليد للقرآن والحديث ، لا إلى تعليم منظم كاليونان والرومان

أما خطباء هذا العصر وخطبهم فالمظان كثيرة فارجع إليها حيث تشاء

الخطابة كما يتصورها المحدثون

قد بينت أن للخطابة فيما مضى شأنا عظيما ، أما اليوم فقد ارتفع شأنها وتضاعف أثرها فى هذا العصر ، عصر الديمقراطية الحديثة ، وامتدت إلى كل مكان : من قصور الأغنياء إلى أكواخ الفقراء ، ومن معاهد العلم إلى ملاعب التمثيل إلى مجالس الأدب والطرب إلى غير ذلك

فقد تعددت الأحزاب فى جميع البلاد ، وكل حزب يريد أن يُسمع الجماهير صوته ليصعد على أكنافهم إلى قمة السلطة وذروة المجد ، فالديمقراطية

الحديثة أتاحت لكل رجل مهما كانت الطبقة التى نبت فيها والبيئة التى نما فى أحضانها، أن يصل بمواهبه وكفايته وملكاته وجهوده إلى أسمى مناصب الدولة. ولو أنك أخذت تبحث عن القابضين على زمام الشعوب الآن لوجدتهم بلغوا إلى هذه المناصب بخطبهم لا بأصلهم، فقد أصبحت الخطابة الوسيلة التى تسمو بصاحبها إليها، حتى ضاق خصوم الخطباء بنفوذهم، وحتى أصبح البعض يرى أن مصدر المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الحاضرة، يرجع إلى نقص فى كفاية المتولين زعامة الأمم، الذين لم يصلوا إلى ماوصلوا إليه إلا بتزويق الكلام، ولا يرى هذا البعض دواء لداء المدنية الغربية إلا بالعدول عن الاسترسال فى الثقة بتجار الكلام، وتفويض الأمور إلى الفنيين من ذوى الكفايات

فهذا المستر لويد جورج نشأ فى حضانة عم له كان إسكافا، ولكنه اندفع فى تيار الحياة مزوداً بتوقد الذهن ودقة الملاحظة وطلاقة اللسان. فاستطاع أن يرقى سلم العظمة درجة درجة. ولقد كان جهله العلمى حديث أصدقائه وخصومه على السواء، حتى قال بعضهم: «لو أن الذكاء وليد العلم، لكان مستر لويد جورج أغبى الناس»، وقد كان المسيو بوانكاريه من أبوين ينتميان إلى الطبقة الوسطى. ومع ذلك قد بلغا إلى أعظم مراتب الدولة

والمعارك الانتخابية هى الميدان الفسيح لظهور هذه الملكات، فالنظام البرلمانى يتطلب نجاح أكبر عدد من مرشحى الحزب حتى تسلم إليه مقاليد الحكم، فهم لهذا يدرسون ميول الجماهير وطرق استهوائهم ويتعرفون رغباتهم فيضربون على النغمة الحساسة التى تروقهم، وقد يسرفون فى هذا إسرافا. فيبذلون العهود رخيصة، ويصورون الخيالات حقائق، والمستحيل ممكنا، تلاعبا بعقول الجماهير. وإليك صورة من هذا:

خطب مرة المستر لويد جورج ناخبيه، وكان يهمه أن يتقرب إليهم من طريق الطعن فى مجلس اللوردات، الذى كان قد عارض مشروع قانون معاشات المسنين فقال: «ليس مجلس اللوردات إلا جمعية مؤلفة من العجزة والجبناء الذين

ليس فى قلوبهم من الطيبة مايحملهم على عمل الخير ، ولا فى نفوسهم من الشجاعة ما يحملهم على الإقدام على الشر . . . لقد كان أولئك المناحيس يقاومون مشروع القانون ، فلما أصررنا على إصداره ، وألفوا أنفسهم بين الرغبة فى الشر والخوف من الإقدام عليه ، نهض اللورد ماندسون إلى النافذة وهو يتساءل فى هلع : هل من يسمعنا ؟ فلما أبصر الجماهير تلوح له بقبضة اليد ، عاد وقال : خير لنا ألا نجازف بأرواحنا ، فلنتقبل المشروع ! والآن حدثونى عن الشجاعة أيها الجبناء . . . »

وهنا علا التصفيق وانطلقت ألسنة السامعين تصيح : (عليك بهم !) فاستمر وقد ذهبت بحرصه نشوة الظفر ، فاندفع يقول : « لما شعر اللوردات أن بنادقنا مصوبة إلى رءوسهم ، صاحوا طالبين السلام ، وقالوا : دعونا نتقدم إليكم بما تريدون . ولكنى أقول لهم : لا . بل تنحوا عن الطريق فلستم تصلحون إلا لتكونوا هزأة الهازئين وسخرية الساخرين . . . إن قيام مجلس اللوردات إلى جانب مجلس العموم ، يذكرنا بذلك المنظر المضحك الذى كنا نراه منذ سنوات فى شوارع لوندرة ، منظر (الترام) الذى تجره الخيول يسير على نفس القضبان التى يسير عليها (الترام) الكهربائى . نحن الترام الكهربائى أيها اللوردات ، أما أنتم فتلكم العربات البالية التى تحتاج إلى من يجرها ، ووجودكم فى طريقنا معطل لحركة المرور . . . . . ألا فاذهبوا وارعوا الكلأ فى الحقول ، ولا تحدثونا عن إصلاح مجلسكم ، ولا تؤذوا أسماعنا بما تفرضونه علينا من اقتراحات الصلح والتوفيق . فنحن يائسون منكم ومن إصلاحكم ، ولا نريد أن نقسو عليكم ، لأنا من أنصار الرفق بالحيوان . . . . اذهبوا فإن أرستقراطيتكم كقطع الجبن : كلما تقادم عهدها عفنت وتصعدت رائحتها فى الهواء . . . »

انظر إليه بعد ذلك وقد فاز بالأغلبية وتبوأ مقاعد الحكم : قصد إليه وفد من ناخبيه يطالبه بإلغاء مجلس اللوردات ، فخطبهم وقال : « دعونا نتفاهم مع اللوردات ، فلعل فيما يعرضونه علينا من الاقتراحات ما يصلح للأخذ به . لماذا تريدون أن نعرض عنهم وهم يريدون السلام ؟ ألا يجوز أن يتقدموا إلينا باقتراحات خير من التى تجول فى رءوسنا ؟ ألا يجوز أن تكون لهم آراء أصوب مما نرى ؟ فلم لا ندعهم يعملون ؟

انتظروا ما سيكون من أمرهم كما انتظروا ، ودعوا لهم الفرصة لإصلاح مافات »

وإليك مثلا آخر : أعلن هو عقب الهدنة أنه لامحالة مقتص من مجرمى الحرب وفى طليعتهم الأمبراطور غليوم ، حتى قال يوما : « تسألونى رأيى ، فأصرح لكم أنى أرى وجوب شنق القيصر ؛ إن الحرب جريمة ، ولكل جريمة فاعل . أفليس لهذه الجريمة الكبرى فاعل ؟ وهل يظل هذا الفاعل بغير عقاب ؟ لا لا ، إن ذلك شىء لا يرضى عدل الله ولا عدل الناس ؛ وإذا كان للرئيس ولسن شروط ، فأنا أيضا لى شروط ، وأولها محاكمة الأمبراطور » وجاء وقت التنفيذ ، وطالبت فرنسا المستر لويد جورج بإنجاز ماوعد ، فكان جوابه : « إن محاكمة الامبراطور حماقة لا يقول بها عاقل »

فأنت ترى من هذا أن الخطيب يرمى إلى التأثير فى قلوب سامعيه وإخضاعهم لوجهة نظره ، وما عليه إذا أسرف ، ولكن ليس هكذا كل الخطباء

وإذا انتهينا من المعارك الانتخابية ، أتينا إلى دور النيابة . وفيها يتبارى الخطباء ، فعيون المعارضة لا تقع إلا على ماتراه من سيئات الحكومة ، فتأخذ فى التشهير بها ونزع الثقة منها ، وتثبت الحكومة من ناحيتها للدفاع عن نفسها انتصاراً لموقفها ؛ وهناك يسقط حساب المنطق ، فالنواب جماعة من الجماعات تصدق عليها صفة الجماعة ، فالتأثر يأتى من ناحية المنطق الصرف ، والخطيب النيابي رجل حزبى غالباً ، فتراه مضطراً إلى الثبات فى موقفه حتى النهاية لا يزعزعه كلام الخصم ، وقد يرى أن الحق فى جانب خصمه ومع ذلك يستمر متشبثاً برأيه يدافع عنه وإلا رمى بالخيانة والخروج على الحزب ، وقد تحدث مفاجآت تغير الموقف فيستفيد منها .

وقد تتبين ما للخطابة من شأن فى المجالس النيابية الحديثة من قول أحد البارزين فى مجلس العموم البريطانى : « إن الخطب النيابية تغير رأيى ولكنها لا تغير صوتى » ألم يسقط كلمنصو بخطبه عشر وزارات متعاقبة فى مدى عشرين عاما ؟ حتى أسموه هدام الوزارات ، وهذا المسيو أريستيد بريان ينقذ وزارته من سقوط محقق بفضل طلاقة لسانه وقوة بيانه :

حدث أن أضرب عمال السكك الحديدية في شرق فرنسا إضرابا عاما ، شل حركة المواصلات ، وخشيت الحكومة أن تنتهز ألمانيا هذا الظرف ، لتهاجم فرنسا ، وكان المسيو بريان رئيسا للوزارة ، وقد حاول أن يعالج هذا الإضراب بكثير من الوسائل فلم يفلح ؛ فعمد فى النهاية إلى وسيلة عرفية لا يقرها الدستور ولا تبيحها القوانين ، وذلك بأن حدد للمضربين ساعة يعودون فيها إلى عملهم ، وأعلن أنه سيعمد إلى تجنيد جميع الذين يتخلفون بعد ذلك الموعد ، وحانت الساعة المضروبة ، ولم يعد العمال ، فأنجز الرئيس ما وعد وجندهم فعلا ، فلما رأى العمال من حزم الحكومة ما رأوا ، عادوا إلى عملهم تائبين ، ولقد ثارت يومئذ ثورة الحزب الاشتراكى ، وخطب الخطباء منددين بذلك (الدكتاتور) الذى لم يتورع عن انتهاك حرمة الدستور والقوانين ، وهاج النواب ، وتصعدت الصيحات فى المجالس منادية بسقوط الحكومة ، وقام وزير المواصلات يخطب فلم ينصت إليه أحد ، بل قوبلت كلماته بالصفير والمقاطعة والضجيج ، وشعر المسيو بريان بحرج الموقف ، فارتقى المنبر وارتجل خطابا بليغا هدأ ثائرة النواب ، ابتدأ قائلا : «دكتاتور ؟ مسكين أنا ! مالكم أيها السادة إلا أن تقولوا كلمة أو تبدوا إشارة فأترك هذا المنبر غير آسف ، ثم أعود فآخذ مكانى بين صفوفكم خادما بسيطا للوطن» . . . ثم اندفع يدافع عن موقفه حتى ختمه بقوله : «لست ياسادة دكتاتورا كما تقولون ، وإنما أنا رجل وقف بين سلامة الوطن وسلامة القانون ، فآثرت سلامة الوطن على سلامة القانون ، نعم ، لقد كان غيرى يستطيع أن يفض هذا الإضراب الخطر بالوسائل الدستورية ، أى بالمقاومة العنيفة وإزهاق الأرواح ، أما أنا فقد فضضته بوسائلى العرفية ، وهذه يدى فانظروا ؛ لم تتخضب بالدماء» . وما بلغت هذه الكلمات النواب حتى انقلبت عاصفة الاستنكار تصفيق ارتياح ، ونالت الوزارة من رجال النيابة فى ذلك اليوم ثقة عظيمة وتأييداً كبيراً .

ولم نبعد ؟ فهذا زعيمنا خالد الذكر سعد باشا زغلول لا يزال صوته يرن فى الآذان ، ولا زلنا نذكر ما لقوله وخطبه من التأثير فى تغيير ميزان الأحوال ، وقد كان يعتمد فى غمار السياسة على هذه القوة الخطابية الفطرية التى نماها بالمرانة والممارسة .

وقصارى القول أن الخطابة فى هذا العصر فن يدرس فى معاهد التعليم ، وهى سبيل إلى المناصب الرفيعة فى الدولة ؛ وإنك لتجدها فى الخطابة السياسية بأنواعها المتقدمة ، وفى الخطابة القضائية ، وفى المؤتمرات السياسية ، وفى المحافل والمجتمعات والنوادى ، ومما قاله المسيو بريان فى الارتجال :

« إن الخطيب الذى يحضر خطبه كالقطار الذى يسير على الطريق الحديدى ، لا يستطيع أن يخرج عنه ، إذا خرج اضطرب أمره ، وتفككت أوصال فكرته ؛ أما الخطيب الذى يرتجل فإنه يبقى مسيطراً على الموقف ، يكيف كلامه وفقا للظروف والمفاجآت ، وهو كالسارى على قدميه . يختار خير الطرق للوصول إلى غايته ، ومما قاله أيضاً :

« إن الخطاب ليس قطعة أدبية بل هو عمل . والخطاب يعمل لا ليقرأ بل ليسمع ، وصورته التى يظهر فيها ثانوية ، فالتأثير يحدث والنتيجة الحاصلة هى كل شىء . ومراعاة القواعد مطلوبة فى الخطاب ، ولكن مهما كانت قيمته الفنية من الوجهة الأدبية فإنه إذا فصل عن محيطه الذى ألقى فيه وفارق الأسباب التى دعت إليه ، لن يكون له شأن صحيفة جميلة من الأدب استخرجت من قلم أستاذ فى الكتابة ؟ » .

الخطباء وخطبهم

مصطفى كامل باشا

ولد بالقاهرة ونشأ بها وتعلم فى مدارس الحكومة ، ودخل بعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية مدرسة الحقوق ، وأخذ يمرن نفسه على الخطابة فى الجمعيات القائمة فى ذلك العهد ، وكان يكتب المقالات السياسية فى جريدة المؤيد ، وكانت وجهته خدمة الوطن من طريق السياسة ، فانشأ الصحف وشخص إلى أوربا عدة مرات يدعو فيها لمصر ، ثم ألف الحزب الوطنى وتولى زعامته بنفسه ، إلا أنه قضى ولم يبلغ السابعة والثلاثين من عمره ، وتوفى ١٩٠٨ م ، (ارجع إلى المفصل ولغيره) ومن خطبة له ألقاها فى الإسكندرية سنة ١٨٩٧

« اسألوا التاريخ أيها السادة : ما واجب أمة دخل الانجليز ديارها خدعة وعملوا لامتلاكها وسلبها كل سلطة وكل قوة ؟ يجبكم التاريخ : إن واجب أمة هذا شأنها

أن تعمل بكل مافى استطاعتها ضد مغتصبها ، وأن تبذل فى سبيل خلاص وطنها كل ماتمتلك من مال ورجال .

« أجل ، كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه ، والعار واجب أن يزول . ولست أقصد بهذا الكلام أن أسألكم باسم الوطن إعلان ثورة دموية ضد محتل البلاد ، كلا ثم كلا . إن أقل الناس إدراكا لمصلحة مصر ، يعلم علم اليقين أنها منافية لكل ثورة وكل هيجان . وإنما أسألكم أن تعملوا بكل الوسائل السلمية على استرداد الحقوق المسلوبة منكم ، وأن تعملوا لأن تحكم البلاد بأبناء البلاد . نعم إنى أعلم أن الاحتلال قوى السلطة ، عظيم الرهبة ، شديد العقاب . وأن العمل ضده موجب للعذاب ، سبب للفقر والفاقة ، ولكن فى الرضى بالاحتلال الخيانة والعار ، وفى العمل ضد الاحتلال الشرف والفخار . »

سعد باشا زغلول

أما ترجمة سعد فميسورة لك ، وإليك مثالا من خطبه النيابية ؛ فإنه يتجلى لك فيها عبقرية سعد فى الخطابة ، وسيتضح لك أنه اتبع الطرق الفنية للاستهواء ، وسلك طريق الوجدان المشوب بالمنطق . مع إيمانه بالحق وتمسكه بالصدق

هذه مناقشة نيابية وقعت بين المرحومين عبد اللطيف بك الصوفانى والمرحوم سعد باشا زغلول رئيس الوزارة المصرية - فى مجلس النواب المصرى سنة ١٩٢٤ عند عرض مصروفات السودان بدون بيان تفصيلى لميزانيته ؛ قال الصوفانى بك :

« أنا من رأى زميلى شوقى الخطيب أفندى (هو الذى أثار المناقشة فى هذه المسألة) فى احتجاجه على عدم تقديم ميزانية السودان مع ميزانية الحكومة المصرية ، وخصوصا وقد لاحظت فى أثناء مراجعتى لأرقام الميزانية أن هناك مبلغ ٧٦٠٫٠٠٠ ج م تقريبا لموظفى حكومة السودان

أصوات : ليس هذا وقته

عبد اللطيف الصوفانى بك : « إنى أقصد المسألة السياسية الآن . المبلغ المذكور ترك إنفاقه إلى حكومة السودان ، دون أن نقف على شىء من بيانه ؛ مع أن العلاقة بيننا وبين السودان لم يطرأ عليها شىء مطلقاً من الوجهة القانونية كما هو معلوم ، أما من الوجهة العملية فأذكر وقد كنت عضواً فى مجلس شورى

القوانين والجمعية التشريعية ـ أن ميزانية السودان كانت تعرض علينا كل سنة ، وبها التفصيل الوافى عما يختص بمصروفات السودان وإدارته ، فماذا جد حتى صار الأمر المألوف لا يتبع ولا يراعى الآن ؟ ولا نعلم سبباً نعلل به ذلك أو نرجع إليه لمعرفة هذه المخالفة ، فإلى متى نحرم حق الإشراف على السودان ، ويقال لنا إن حاكم السودان هو الحاكم بأمره هناك ؟ وإذا طلبت منه الحكومة المصرية بعض البيانات لا يجيب طلبها ، أو سألته شيئاً لا يرد ، مع أنه موظف مصرى يتقاضى راتبه من الخزانة المصرية بدون أن يأخذ قرشاً واحداً من لندرة ، وإذا طلبنا منه شيئاً أو معلومات سكت وكان سكوته أبلغ من الجواب... أملنا فيكم يا حضرات الوزراء ألا تقولوا لنا : ماذا نصنع ؟ فإن الأمة من ورائكم ، وهى قوة عظيمة . فإذا ما قلتم تقدمت ، واعلموا أن قوة الحق فوق كل قوة ، وما القوة المادية إلا هباء يتلاشى أمام الحق . » فرد عليه رئيس الوزراء سعد باشا زغلول بخطبة بليغة تجمع عناصر النوع السياسى من الخطابة ، جاء فيها :

« يا حضرات الأعضاء ، يجب أن نعمل بجد ، تريدون منا ، أو بعضكم على الأقل ، أن نقدم ميزانية السودان ، ونحن لم نضع له الميزانية ، بل السودان هو الذى يضع ميزانيته ؛ فنحن لا نستطيع أن نقدمها لأنها ليست تحت يدنا ولم نضعها ؛ وأنا أقول إنه كان يجب أن تكون ميزانية السودان معنا ، وأن نكون نحن واضعيها ، بل يجب أن نكون واضعى اليد على السودان ، ويجب أن نسعى لذلك ، وأنا ساع له ومعتمد على قوة الأمة وعلى حقها فى هذا ، ولدى الأدلة القاطعة والحجج القوية . ولكن لمن أقدمها ؟ ألحضرتك ؟ (مخاطباً الصوفانى بك ، وهو يرى عدم المفاوضة . فسيستعمل هذه الناحية فى كسب الموقف) أم لمغتصبى حقوقنا ؟ نحن نريد حقوقنا ونريد الوصول إليها ، وأنا أولكم وفى مقدمتكم ، ما وهن عزمى ولا ضعفت همتى ، بل أريد أن أصل إلى هذا الحق بأية طريقة كانت ، وأمامى طريق مفتوح أريد سلوكه لأصل إلى غايتى ، فإن وصلت إليها فبها ونعمت ، وإلا عدت إليكم . . أنت (مخاطباً الصوفانى بك) لا تريد ذلك ، فماذا أصنع ؟ والضرورة تقضى بتوجيه هذا السؤال ، لأنك تقول بعدم مخاطبة واضعي اليد على السودان ، وفى الوقت ذاته تطالب ميزانية السودان ، إنها ليست تحت يدى ، والسودان ، كله تحت يد قوية . فماذا أصنع ؟ إما أن تتبع طريقى وإلا فدلنى على خير منها ، إذا تكلمت.

فى مجلس النواب فأنت مسئول عما تقول، وعن الطريقة التى تريد أن تتخذها لتنفيذه. فإن أقرك المجلس على ما تقول فكلكم مسئولون؛ أما أنا فمسئوليتى تكون على قدر إقرارى وموافقتى.

« أنا فى مقدمتكم فى كل ما فيه خير بلادى، وعلى قدر فكرى أرى أن الطريق المفتوحة أمامى لتحقيق غرض الأمة وغايتها هى المفاوضة. فإن كان عندك أو عند غيرك طريق لاستخلاص حقوق الأمة فوضحه لى وأنا أكون أول العاملين فى هذا السبيل إن كان محققاً لأغراض الأمة.

« إخوانى، المسألة مسألة جد لا هزل، وعمل لا كلام؛ نحن هنا نتحمل مسؤلية كل أمر نقرره، فيجب علينا قبل أن نصدر قرارا يختص بهذه المسائل المهمة أن ندرسها ونفحصها، وألا نطيع الهوى بل نستشير العقل والحكمة، فكر فى ذلك جيدا. ولا تسع لإحراجى، لأن إحراجى إحراج للأمة، لأنى أقول وأنا صادق فيما أقول، إنى لا أريد إلا ما تريده الأمة، فأن أحرجت زغلول فقد أحرجت الأمة — أنا لا أسعى فى سياسة غير سياسة الأمة، والذى يرشدنى ويدفعنى إلى ذلك هو صوت فى ضميرى صرخ فى قبل أن يصرخ فى قلب أى إنسان، وهذا الصوت ينادينى دائما أن أقوم بواجبى بدون أن يحضنى عليه حاض أو يحثنى عليه حاث. ولكن فى موقفى هدا يجب أن ألاحظ اعتبارات كثيرة، ليس منها المحافظة على مركزى! لأن لى مركزا أعلى من المركز الرسمى، ولكن إذا لم أعمل الآن فلاعتبارات ترجع إلى رعاية مصلحة الأمة لا إلى مصلحتى الشخصية، فإن كنت لم أقدم ميزانية السودان، فالأمر سهل، لأن الذى يضع ميزانية السودان هى حكومة السودان. دعونا من هذا، واتركونا نعمل نحن فى مراكزنا التي لا ندين بها إلا للأمة، ولا نخشى إلا صوتها، فإن رأيتم فينا اعوجاجا فقوموه لا بألسنتكم بل بسيوفكم، عاهدتكم وعاهدت الأمة من قبلكم، وأعاهدكم الآن ألا أحيد مطلقا عن رعاية مصلحة الأمة على قدر استطاعتى، وليس على المرء أن يكلف إلا ما يستطيعه، فعليكم مادمتم وطنيين أن تساعدونى، لأن فى ذلك مساعدة للأمة ووصولا بها إلى الغاية المطلوبة ».

محمود الطنيخى

انظر مراجع هذا البحث فى الصفحة التالية

المراجع

١ تاريخ اليونان للأستاذ محمود فهمى
٢ العقد الفريد لابن عبد ربه
٣ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد
٤ مقدمة ابن خلدون
٥ مبادىء الفلسفة للأستاذ محمد على مصطفى والأستاذ عبده خير الدين
٦ البيان والتبيين للجاحظ
٧ كتاب الخطابة للأب لويس شيخو
٨ نقد النثر لقدامة
٩ كتاب الخطابة للأستاذ أبى زهرة
١٠ القديم والحديث للأستاذ محمد كرد على
١١ كتاب الخطابة للدكتور نقولا فياض
١٢ كتاب المرافعة للأستاذ الجداوى
١٣ تاريخ التربية للأستاذ مصطفى أمين
١٤ « « « القطان
١٥ تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ كرم
١٦ ما خلفته اليونان
١٧ مجلة الهلال
١٨ مجلة الرسالة
١٩ جريدة الأهرام

المؤثرات العامة

التي تعمل على نشاة الأدب ورقيه وانحطاطه *

للأستاذ الدكتور أحمد ضيف

أستاذ الادب بدار العلوم

معروف أن الأدب هو التعبير البليغ عما يدركه الإنسان من مظاهر الحياة ، وما يخالج نفسه من شعور وإحساس وتفكير .

ولكن إدراك الأشياء والمعانى يختلف باختلاف الطبائع والعقول والملكات؛ وليس كل إنسان قادراً على التعبير عما يرى ويشعر بعبارة بليغة ، لأن هذا يحتاج إلى إدراك دقيق ، وإلى خيال واسع ، وإلى قدرة على التعبير عما يرى ويفهم ويشعر

فهذا الاختلاف فى الإدراك الخارجى والنفسى والاختلاف فى التعبير ـ له بواعث ومؤثرات كثيرة ، منها مؤثرات اجتماعية ، ومنها مؤثرات نفسية . فالمؤثرات أو العوامل الاجتماعية تنشأ من تكوين جسم الإنسان ، ومن أثر الاقليم الذى يعيش فيه ، وسياسة الحكومات ، وصفات الحكام ، وعقائد كل أمة واتصالها بغيرها من الأمم الأخرى ؛ ومن الميول العامة للنفوس فى الأزمان المختلفة ، وغير ذلك .

والعوامل النفسية تنشأ من الصفات والأخلاق الوراثية والمكتسبة ، وقوة الإدراك وضعفه ، وصحة الجسم وسقمه ، وكل ما ينشا عن وظائف الأعضاء وتركيب الجسم والحواس والملكات النفسية والمجموع العصبي وما يتصل به من شعور وإحساس .

فالبواعث التى توقظ فى الانسان حب الاستطلاع ، وتدفعه إلى التفكير والتعبير عما يرى ويشعر ، وتؤثر فى إدراكه وأحواله النفسية: من قوة وضعف ، ونشاط وخمول ، وسقم فى الفكر ، وصدق وكذب فى القول ، وحلم أو جهل ، وغير ذلك

---

* راجع المقال الأول فى هذا البحث ص ٩ من هذا العدد

من الصفات، هى نفس البواعث والعوامل التى تؤثر فى آداب الأمم وتظهر على ألسنة الكتاب والشعراء والمصورين والموسيقيين وجميع الفنيين فى آرائهم وأخيلتهم هذا مع ما يكون هناك من ثقافة فنية أو ملكات فطرية أو موهبة إلهية، تتحرك فى النفس فتكشف عما فيها من بلاغة فى التعبير وجمال فى القول وصفاء فى الفكر.

ولا شك فى أن الأدب (الذى هو القدرة على التعبير عما فى النفس بمساعدة الخيال) هو طبيعة فى كل أمة ولكن يختلف باختلاف تلك القوة الفنية أو الملكة الفطرية فى الأمم والأفراد، أو البواعث والمؤثرات.

فمن المؤثرات الاجتماعية خواص الأجناس البشرية، فبعض الأجناس مفطورة على حب الاستطلاع وقوة الإدراك والملاحظة، ويقظة الشعور، ورقة الإحساس وسعة الخيال؛ لأن هذه الصفات الجنسية أو القومية تربى فى الأمم ملكة الفهم والإدراك وتدفعها إلى الرغبة فى الفهم والتعبير عما ترى وتشعر فى شىء من الافتنان وجمال القول.

وبعض الأمم خال من هذه الصفات أو من بعضها فتجده ميالا إلى الراحة والكسل مطمئن النفس هادىء التفكير يخيل إليه أنه يعرف كل شىء وأن إدراكه وصل إلى أقصى حد فيقتنع بما لديه من إلهامات فطرية ساذجة وإدراك جزئى لما يمر بخاطره أو يشاهده بطريق المصادفة.

أما إذا كان الفكر يقظاً تطلع إلى إدراك الأشياء وفهم مظاهر الحياة وخفاياها وأخذ يحاول إظهار ما فى نفسه، وانبرى للتعبير عن ذلك بضروب القول وأنواع البيان، وأملى عليه خياله الواسع وفكره الحائر أنواع المعانى وأساليب الكلام.

ومن هنا اختلفت آداب كل أمة عن غيرها فى أساليب التفكير وضروب البيان.

ويرى الباحثون أن الأمم الآرية واسعة الخيال متنوعة التفكير عميقة الإدراك، ويقولون إن الأمم السامية قاصرة الخيال تدرك الأشياء والمعانى إدراكا كلياً وتعبر عن آرائها بعبارات موجزة، ولذلك لا تكاد تجد فى آداب العبرانيين

أو الساميين أو العرب قصة فنية طويلة كاملة، ولا رأيا اجتماعياً مبسوطاً بسطاً واسعاً. ولهذا أيضاً ظهرت على ألسنتهم الحكم والأمثال وامتلأت آدابهم بهذا النوع من الجمل الموجزة والأمثال الحكيمة، وقالوا إن ذلك ناشىء من أصل تركيبهم الفطرى وتكوين عقولهم تكوينا يختلف عن الأمم الأخرى.

وضربوا لذلك مثلا بالفرق بين الجنس الأسود والأبيض حتى جعلوا هذه الفروق ناشئة من أصل الخلقة تنمو بالتوارث ومر الأيام وهى كما تؤثر فى الخلق والخلق تؤثر فى الإدراك؛ ورأوا أن الإدراك فى بعض الأمم أقوى منه فى غيرها، وأن ما يوجد من الفروق فى الذكاء والاستعداد للرقى لدى أفراد الجنس الواحد أو لدى أفراد الأسرة الواحدة، هو أشد ظهوراً بين الأجناس وهو ما يجعل بعض الأمم أرقى من غيرها وأميل إلى اكتساب الحضارة.

وهذا الاختلاف الذى هو دليل على اختلاف النفوس يظهر أثره فى اللغة وتكوينها والتعبير بها عن المعقولات والمحسوسات، ويكوّن إدراك الأمم ويصبغها بصبغة خاصة تنسب إليها وتدل على أساليب التفكر لديها.

قال بعض الأدباء: «إذا كان تصور الأمة للأشياء تصوراً جافاً، كانت اللغة ضرباً من الرموز أو ما يقرب من ذلك، وكان الدين عبارة عن عقيدة ساذجة، والشعر خيالا بسيطاً، وكانت الفلسفة أشبه بشىء من النصائح والمواعظ، والعلوم مسائل مجموعة مرصوفة. وهذا يدل على جفاء العقول وجمود الأفكار؛ والأمة الصينية هى مثال ذلك.

فإذا كان الإدراك العام مرناً، يشبه أن يكون خيالا شعريا، كانت اللغة أشبه بالشعر والقصص، سهلة لينة، يكاد يدل كل لفظ منها على نفس أو على إنسان لمرونتها وعذوبتها، وكان فى الدين والشعر شىء كثير من العظمة والجلال، وانتشرت الأفكار الفلسفية انتشارا عظيما وعلى حسب ذلك يكون إدراك الجمال، ودقة الفهم، وسعى العقول وراء الكمال فى تحقيق ما تريد».

وقالوا إن بعض الأجناس البشرية كالجنس الأسود لم يؤثر عنه أثر أدبى يدل على شىء من الميول الفنية أو التفكير الصحيح، وأرجعوا ذلك إلى أصل

تكوين هذه الأجناس حتى قالوا إن مخ الأوربى يزن نحو ١٥٣٤ جراما ومخ الإفريقى يزن ١٣٧١ جراما ، وأن من أخلاق الزنوج الشهوات الحادة والتقليد والنقص فى قوة الاختراع والخمول والكسل وكراهة النظام فى الأعمال والانبهار بالظواهر والانخداع بالألوان التى تبهر الأبصار . إلى آخر ما قالوا ، وكل هذا له اتصال وثيق بقوة التفكير ووسائل التعبير وتكوين الآداب والفنون للأمم .

وليس أثر البيئة أقل من ذلك فى تكوين الفكر ، فاختلاف الجنس له اتصال وثيق بالإقليم والبيئة التى تعيش بها الأمة وتتربى وتنشأ فيها ، وربما كان أثر الاقليم هو الذى يكون الأجناس البشرية ويؤثر فى إدراكها ، ويبعث فيها الخمول أو النشاط الفكرى والجسمى كما لاحظ ذلك العلامة ابن خلدون ، فى مقدمة كتابه . وقد يغرس الإقليم كثيرا من الأخلاق والصفات النفسية ، فيبعث فى النفس الميل إلى أنواع من أفانين الكلام كالأغانى القومية والأناشيد الحماسية والغرامية والأساطير التى تتولد فى النفس من مظاهر الحياة وعقائد الأمم .

ولا شك فى أن الاختلاف فى الأخلاق والعادات يكون فى الأمم إدراكا خاصا ، وهذا ناشىء من اختلاف الطبائع التى تتأثر بمواقع الأقاليم وحرارتها أو برودتها فتكون إدراكا خاصا يوجهها إلى نوع من التفكير . وقد لاحظ أرسطاليس « أن الأمم التى تسكن الأقاليم الباردة فى أوربا كثيرة النشاط هادئة الإدراك ، وبعكس ذلك سكان أسيا فإنهم سريعو الإدراك ، ولكنهم قليلو النشاط » . قال : « وقد اكتسبت الأمة اليونانية من اعتدال إقليمها النشاط ، وقوة الذكاء فى اعتدال ورزانة ، فكان هذا السبب فيما نراه فى أذواقهم وفنونهم من التناسق والتوازن فى الإحساس والإدراك والخيال والميول . وكان لطبيعة بلادهم أثر عظيم فى النفوس فألهمتها ضروبا من التفكير ووجهتهم إلى إدراك دقائق الأشياء »

وقد كان للبيئة العربية أثر ظاهر فى الشعر العربى القديم ، ظهر فى كل ناحية

من نواحيه ، فكان لطبيعة بلادهم وما فيها من حيوان ونبات وصحراء واسعة الأرجاء ما ظهر أثره فى الشعر .

« فالعرب فى عيشتهم وحياتهم البدوية الصرفة ، لم يخرجوا عن الدائرة التى وضعتهم فيها طبيعة بلادهم ، ولم يروا غير هذه الصحراء الواسعة وما توحيه إلى النفوس من العظمة والهيبة ، والغموض الذى تضل فيه الظنون ، ثم هذا البسط «اللانهائى » الذى يحمل على الظن بأن الحياة لا تتغير ، وكأن الانسان يخلق ويموت وهو على حال واحدة من العيش وأن هذه الحياة البدوية الساذجة هى كل شىء ، وأن الشجاعة والكرم والمروءة هى كل فضيلة ، وكأنه ليس وراء ذلك من فخر وكأن العصبية والإغارة على الأعداء والانتصار عليهم هى كل ما يفهم من معنى الشجاعة ، وأن العربى فى حريته واستقلاله أفضل إنسان ، وأكرم نفس ، وأرقى مخلوق . كذلك تكونت أخيلة العربى على ما يرى وما يحيط به من حيوان ونبات . ولم يكن لديه من الفرصة ما يمكنه من معرفة أحوال الأمم الأخرى ، فنشأ قانعاً بما لديه ، راضياً بحالته ، لأنه ظنها أفضل وأكمل من غيرها ، فلم يرغب فى تغيير حالته الاجتماعية ، ولم يأخذ عن غيره ، لأن ذلك لم يكن متيسراً له فى حالته الأولى ، ولأن الحاجة لم تحمله على ذلك ، لاقتناعه بما لديه من كل شىء حتى فى العلوم والمعارف ، ولأنه كان يرى سعادته فى هذه الحال . والإنسان إن لم تدفعه الحاجة لا يميل إلى العمل ، ولا يحب التعب . كل ذلك أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية عند العرب . وذلك ما نراه فى بلاغاتهم وأشعارهم . فقد امتلأت أخيلتهم بما كان يحيط بهم ، ولم تتعد أفكارهم البيئة التى كانوا يعيشون فيها . فكان إذا وصف أو شبه أحدهم شيئاً أخذ خياله وفكره مما يحيط به ، وذكره على سذاجته لأنه كان يرجع فى الافتنان والصناعة إلى إلهاماته ، وما توحى إليه فطرته فكانت السذاجة تظهر فى كل شىء من كلام وشعر وخيال . ومع أن هذه السذاجة البدوية هى عيب الشعر العربى لأن الحقائق « العريانة » كما يقولون ليست مقبولة

لدى كل نفس، ولا يتذوقها كل إنسان، خصوصا فى الشعر والبلاغة، إذ لا بد من الافتنان فى إظهار المعانى، ولا بد أن يعترى المفتن من الحيرة والشك فى الوصول إلى أغراضه ما يحمله على البحث والتنقيب حتى يصل إلى ما يقرب من الإتقان والكمال والإبداع - نقول: مع أن هذا هو عيب الشعر العربى البدوى، فهو أيضاً ما فيه من الجمال لأن السذاجة الفطرية، أو الكلام المطبوع الذى تظهر فيه طبيعة الانسان، له نوع خاص من القبول والاستمراء؛ وقد تدعو هذه الحال إلى الإعجاب به.

ومما يدخل فى البيئة التربية القومية والمنزلية والحالة السياسية وتشجيع الحكام والأمراء للشعراء والكتاب وانتشار التعليم الفنى، كل ذلك مما يساعد على تربية ملكة الأدب ونموها، أو على خمودها وانحطاطها إذا سارت الأحوال على عكس ذلك، والتاريخ أصدق شاهد على ما نقول.

ومن أعظم الوسائل فى ترقية الأدب فى أمة من الأمم اتصالها بالأمم الأخرى ذوات الحياة العقلية والفنية، والاطلاع على آثارها الفنية والأدبية، لأن حياة الأمم العقلية كالسلع التجارية لا تروج رواجا نافعا إلا بالتبادل مع الأمم الأخرى؛ والتاريخ العقلى للإنسان يدل على ضرورة هذا التبادل وأخذ الأمم بعضها عن بعض، ولسنا فى حاجة إلى ضرب الأمثال فى تاريخ الأدب العربى والفنون والعلوم العربية التى نمت بالأخذ عن الفرس واليونان والقوط، ولولا هذا الاتصال لبقيت الثقافة الإسلامية مقصورة على الشعر القديم وعلوم الشريعة فى شىء من الجفاف والجمود، ولولا هذا الاتصال ما ظهر فى المسلمين مثل ابن سينا وابن رشد وابن الصائغ وغيرهم، ولا كان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع ولا سهل بن هارون. وفى ظننا أنه لو لم يطلع ابن خلدون على شىء من جمهورية أفلاطون وغيرها من الكتب المترجمة ما كتب مقدمته المعروفة.

ولو لم يتصل أهل أوروبا بالعرب فى أسبانيا وايطاليا ما عرفوا مدنية اليونان القديمة.

وهذه حركتنا الحاضرة فى الأدب والعلوم والفنون نمت بالأخـذ عن الأمم الأوربية ، والكلام فى ضرورة الأخذ عن الأمم وأنه وسيلة لترقية الآداب والفنون والعلوم لا يحتاج إلى دليل

أما البواعث النفسية فقد تكون أشد أثراً لأن الإنسان مفطور على حب الكلام ، وعلى إظهار ما هو كامن فى نفسه من لذة وألم وشكوى ورضا وحب وبغض ، ثم على التعبير عما يجول بنفسه من أثر هذه الحياة ، يندفع إلى التعبير عن كل هذا ولا سيما إذا كان طليق الفكر لا يخشى فيما يقول عقاباً ، ولا يرهب حاكما ، ولا تمنعه قوانين بلاده ولا تقاليد قومه من التعبير عما يجول بنفسه من جد وهزل وصدق وكذب ولعل هذه الحرية فى القول من أهم الأسباب التى فسحت للشعراء والكتاب المجال لنشر الفنون والأدب وما انطوى من عبقرية ونبوغ فى كثير من الناس .

وقد تولد الأحوال النفسية أنواعاً جديدة فى الأدب ، فإذا كان الكاتب أو الشاعر يميل إلى الفكاهة وكان ذا عبقرية فنية جال خياله وانهالت عليه المعانى وابتكر كثيراً من الأساليب وأنواع البيان ، كما فعل أبو نواس فى خمرياته التى تحسب جديدة فى نوعها ، وكما فعل الجاحظ فى رسائله والهمذانى والحريرى فى المقامات ، وكما فعل المعرى فى رسالة الغفران . فإن هذا ناشىء من الميول النفسية فى إدراك ناحية من نواحى الحياة والنفوس ورسم ذلكم الإدراك النفسى فى شىء من الرغبة والإخلاص . كالذى يرغب فى كتابة القصص فإنما هو مدفوع بميوله النفسية . ولا شك فى أن هذه الميول إذا صاحبت الروح الفنية تكون من أعظم الوسائل لنشر الأدب والابتكار فيه .

فالأغانى والأناشيد والقصص الغرامية التى تملأ آداب الأمم ناشئة عن التعبير عن شعور الإنسان بالحب والحاجة إليه ، حتى لقد يكون الحب الجنسى من أظهر المواهب الإنسانية فى تحريك ملكة الشعر وتوسيع مجال الخيال . كما أن الشعور بالسعادة والشقاء وسيلة من وسائل الميل إلى التعبير عما يجول بالنفس وسعة الفكر لدى الشعراء والكتاب .

فقد تظهر صور النفوس جلية واضحة فى كل ما يصدر عن شعور نفسى من شعر أو نثر فتجد فى كلام الشعراء والكتاب الذين يعبرون عن شعورهم من الحقائق النفسية وصور الإنسان والإنسانية ما لا تجده فيما تشاهد وتقرأ فى هذه الموضوعات من بحوث العلماء وآرائهم، كما أن فقد هذه الميول يكون من أعظم الوسائل لضعف ملكة الأدب فى الأمم وانحطاط قوة التعبير وضروب الكلام البليغ .

فالوسائل التى تعمل على رقى الأدب وانحطاطه كثيرة تتصل اتصالا تاماً بأحوال الأمم الاجتماعية والسياسية والنفسية وبكل أثر من آثار الحياة العامة والخاصة .

أحمد ضيف

الفلسفة

من حيث هى مظهر من مظاهر الحياة الأدبية

ومن حيث تأثيرها فى تنظيم الفكر وضبط التعبير الأدبى

بقلم طه طه عبد الفتاح

المدرس الأول للغة العربية بمدرسة بنها الثانوية

---

١ — الفلسفة

كثيراً ما تَعْرِض هذه الكلمة فى موضوعات الأدب وتاريخه ، فترددها ألسنة القائلين ، وتتلقاها آذان السامعين ، كأنها كلمة مألوفة المعنى ، جلية المراد ، على حين أنها تمر على أذهان جمهورهم فلا يتمثل فيها من صورتها إلا بقدر ما يتمثل فى المرآة من صورة الوجه المحجَّب ، ولا تُدْرِك منها إلا بمقدار ما تراه العين من الزهرة المكنونة فى كِمَامِهَا . وقد لا تَمر على الأذهان بدون أن تُصَوِّرَ فيها ذلك المعنى الذى نفحها به أبناء الشوارع ، وهو الثرثرة المشوبة بالتشدق والحذلقة ؛ أو هو الإتيان بالكلام الذى لا يفهم له معنى ، وربما يلمح القليل من قارئى تاريخ الأدب بصيصاً ضئيلا من معناها وهو يعتقد أنه قد أدرك الشمس بتمامها ، ولا شك أن بناء شىء من الحقائق الأدبية على ما تركته هذه الكلمة فى العقول من غموض بعيد ، أو خطأ شديد ، أو فهم ضئيل ـ لهو بناء على شفا جرف هار . لذلك نرى أن لا مناص من التعريف بمدلول هذه الكلمة قبل أن نبحث فى صلتها بسائر الموضوع .

الفلسفة كلمة يونانية معناها « محبة الحكمة » . وهذا يدل على أن الفلسفة قد نشأت فى اليونان . وفى الحق أن المعنى الذى وضعت له هذه الكلمة ، والمباحث المختلفة التى جاهدت فى سبيل تحقيقه ، والنتائج التى أسفرت عنها هذه المباحث ، ليست مما يختص به العقل الانسانى فى شعب دون شعب . فإن

كل ذلك مما تستطيع العقول البشرية تناوله فى اليونان وغير اليونان . وربما تحقق شيء من ذلك فى غير اليونان من الشعوب القديمة كالمصريين والفرس والهنود ، ولكن خلو التاريخ من ذلك يدل على تفاهة ذلك الشيء ، وعلى أن تلك الشعوب لم تجتز حياتها طريقاً كذلك الطريق الذى جازته الحياة اليونانية القديمة ، تلك الحياة التى كادت تكون فذة فى أحوالها الدينية والأدبية والسياسية والاقتصادية ، فكانت فى بعض مراحلها داعية إلى نشوء الفلسفة ونمائها وتفرع أصولها ، وإلى إنزالها من الإجلال منزلة دونها كل منزلة ، حتى برزت للعالم فى ثوب جديد فضفاض ، ما زالت العصور ترتديه على تعاقبها ، وإن كانت تصبغه بصبغاتها المختلفة إلى يومنا هذا .

ولا يَخطرَنَّ بالبال أن منشأ الفلسفة هو بلاد اليونان نفسها . فإن الذين أنشئوها يونانيون فى جهات أخرى غير بلاد اليونان . ومن هؤلاء يونانيو الإقليم الذى يسمى « أيُونيا » فى الجانب الغربى من آسيا الصغرى . ويونانيو « إيليا » وهى مستعمرة يونانية فى جنوبى إيطاليا . فقد وُلِدَت الفلسفة فى أيونيا ودَرَجتْ ، ثم تعهدها الإيليون حتى ترعرت . وكأن كل ذلك كان تمهيداً لعصر أثينا الفلسفى العظيم ، الذى ظهر فيه الناهضون بالفلسفة إلى مجدها ، وهم سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو . وظلت هذه الخطوات التمهيدية طوَال القرن السادس ونصف القرن الخامس قبل الميلاد .

وعجيب أن يَظَلَّ التفكير الفلسفى نحو نصف قرن من نشأته قائما على قدم وساق ، قبل أن يُطْلَقَ عليه « فلسفة » ، وقبل أن يُطْلَقَ على أرْبَابِه « فلاسفة » . فإن أول من استعمل هذه الكلمة هو « فِيثَاغُورَسُ » ، الرياضى المشهور ، وهو ممن هاجروا إلى مستعمرة « إيليا » الايطالية : فقد عرَّفَهَا بأنها « السعى وراء المعرفة بقلب ملؤه الإخلاص » . وهـذا التعريف ، كما ترى ، غامض مبهم ، فأىّ نوع من أنواع المعرفة يريد ؟ ولكننا إذا تتبعنا ما قام به الفلاسفة من كل ما استحقوا من أجله أن يُخلَعَ عليهم هـذا اللقب ، تيسر لنا أن نُلِمَّ بشيء كثير يوضح لنا هذا الغموض الذى يحف بهذه الكلمة ، ويفصل لنا إجمالها .

رأينا طاليس ، وهو أول من خطا الخطوة الأولى فى الفلسفة ، يفسر لنا هذا الكون وما يضمه من كائنات ، بان الماء هو المادة الأصلية لكل ما فى الوجود من موجودات ، وأن اختلافها إنما هو باختلاف ما فيها من مقدار الماء . ورأينا آخر يقول : إن أصل الكون مادة ليس لها شكل ولا نهاية . ولم يذكر لنا كيف نشأت الكائنات المختلفة من هذه المادة . ورأينا ثالثا يعتبر أن أصل الكون هو الهواء ، فإذا زاد تكاثفه انقلب سحابا ، وتحول السحاب إلى ماء ، ويجمد الماء فيتكون منه الصخر والتراب ؛ وإذا زاد تخلخله تحول إلى نار ، فإذا صعدت النار كونت الكواكب . ورأينا رابعاً يقول : إن حقيقة الكون هى الوجود المطلق الأزلى ، فهو جوهر جميع الموجودات ، وكل ماندركه بحواسنا لا حقيقة له إلا هذا ، وأما ظواهره فهى من بنات الوهم والخداع . ورأينا خامساً يدعى أن النار هى أصل الكون والكائنات . وسادساً يذهب إلى أن أصله ذَرّات ، تألفت منها عناصر أربعة : الماء والهواء والتراب والنار ، وكل موجود لا بد أن يشتمل على هذه العناصر ؛ واختلاف الموجودات بنسبة اختلاف العناصر فيها ؛ ثم يعلل لما فى الكون من حركة بأن فى الوجود فضلا عن مادته ، قوتين : هما قوة الحب وقوة البغض ، تدفعان الكائنات إلى الحركة . وسابعاً يرى أن أصل الكون جواهر فردة لاعداد لها ، وأن لها حركة طبعية كانت سبباً فى نشوء الكائنات . وثامناً يرى هذا الرأى ولكنه لا يقتنع بأن الحركة العمياء تكون سبباً فى إبداع هذا الكون وما فيه من نظام دقيق ، فيذهب إلى أن هناك عقلا فضلا عن المادة ، وأن العقل قد تقمص المادة فأحدث بها حركة نشأت عنها هذه المخلوقات على ما بها من نظام .

جُلُّ هذه ، كما رأيت ، مذاهب مادية ، وكان لأربابها فى معنى النفس الإنسانيّة آراء مختلفة ، ولكنها مُجْمِعةٌ على أن هذه النفس تأتينا من الهواء أو من السماء ، كما سيأتى .

ويظهر عقب هؤلاء سقراط ، فلا يتصدى لتفسير الكون برُمّته ، ولكنه يتصدى لشرح شىء واحد فى الإنسان ، فيكون أول فيلسوف يرى أن

النفس الإنسانية شيء باطن في الإنسان، لا يأتيه من الهواء ولا يسقط في جسمه من السماء، كما يزعم بعض أسلافه من الفلاسفة. ثم يتلوه أفلاطون فيرى أن أصل الكون «مُثُل» معنوية ومادة، وأن هناك إلهاً قادراً صاغ من المادة أشكالا على هيئة المثل فكانت هذه الأشكال هي الموجودات التي تملأ هذا الكون. ثم يخالفه أرسطو فيقول إن أصل الكون هَيُولى (مادة) وصورة (صفات مختلفة) اجتمعتا من الأزل، فشكلت الصورة الهيولى بأشكال مختلفة، وتلك الأشكال المختلفة هي أنواع الموجودات. ثم يأتي بعده الرواقيون فيقررون أن أصل الكون نار، وأن هذه النار هي الله، وأنه حوّل جزءاً من ذاته إلى هواء، ثم حول بعض الهواء إلى ماء، وبعض الماء إلى أرض.

كل أولئك بعض ما تصوّره فلاسفة اليونان في أصل الكون والكائنات؛ وقد كان لهذه التصورات أثر عظيم في العصور المتتابعة، حتى لقد حذا فلاسفة أوربا في عصورهم الأخيرة حذو فلاسفة اليونان الأقدمين، ولا زال في عصرنا من يقول إن أصل الكون مادة بحتة، وإن الكائنات صور تكونت من المادة بحكم المصادفة العمياء. وهؤلاء يعرفون بالطبعيين أو الماديين. ومنهم من يرى أن للكون أصلين: مادة ذات امتداد، ومادة مفكرة، وبتأثير الثانية في الأولى حدث هذا النظام الكوني، ومن هؤلاء ديكارت الفيلسوف الفرنسي

تلك الصور التي عرضناها على القارئ لتفسير معنى الكون والكائنات، تمثل لنا غاية ما وصل إليه التفكير الفلسفي في أكبر مسائل الفلسفة، وهي مسألة «حقائق الأشياء». ولقد تولدت من هذه المسألة مسألة أخرى تعد من أمهات المسائل الفلسفية، وهي مسألة «طبيعة المعرفة».

ولقد أثار هذه المسألة طائفة من المثقفين اليونانيين في خلال القرن الخامس قبل الميلاد وتلقب هذه الطائفة بالسُّوفَسْطَائية. وقد انبث السوفسطائيون في اليونان يتخذون مما أوتوا من البلاغة الباهرة، وقوة الأسلوب الخطابي، وسيلة لنشر مذهبهم الفلسفي، وهو أن المعرفة هي إدراكنا الأشياء بحواسنا، وقالوا إن ما يظهر عن طريق الحواس يعتبر حقا بالنسبة إليه وإن كان غيره يراه باطلا

على حسب ما تصور له حواسه . فالإنسان عندهم مقياس الحقيقة . وحينئذ ليس للحقيقة معنى ثابت ، وإنما هى أمر نسبي يختلف باختلاف الأشخاص . كان ذلك مقلقا بال سقراط ، فهب لمكافحة هذه الفئة المضلّلة ، وأثبت أن المعرفة الحقة هى إدراكنا للحقائق الكلية بالعقل لا بالحواس ، لأن الحواس قد تختلف فى إدراكها ، ولكن العقل مشترك عند جميع الناس ، فمثلا نرى إنساناً فنرى له صفات تميزه ، ونرى إنساناً آخر وإنساناً ثالثاً ولكل منهما صفات تميزه ، ولكن العقل لا يلبث أن يُعَرِّىَ الثلاثة من الصفات المميزة لكل منهم ، وينتزع منهم صورة كلية تصلح لأن تنطبق على كل منهم وعلى غيرهم من الناس ؛ فإدراك هذه الصورة الكلية من عمل العقل لا من عمل الحواس ؛ وبما أن المعانى الكلية هى حقائق الأشياء ، نرى أن لا سبيل إلى معرفة هذه الحقائق إلا بالعقل ، وأما الحواس فليست طريقاً إلى ذلك .

وقد استمرت مسألة المعرفه شغلا شاغلا للفلاسفة إلى وقتنا هذا . والفلاسفة الأوربيون فى العصور الأخيرة مختلفون فى ذلك اختلافاً كبيراً ، فمنهم من يذهب إلى أن المعرفة سبيلها الحس والتجربة ، ومنهم من يرى أن سبيلها العقل المجرد ، ومنهم من يقول إن سبيلها العقل والحس والتجربة جميعاً .

وهنالك مسألة ثالثة من أجلّ المسائل التى شغلت الفلاسفة قديمهم وحديثهم ، وهى مرتبطة بالمسألتين السالفتين ارتباطاً وثيقاً ؛ فإن معرفة حقائق الأشياء ، وطبيعة المعرفة لا يُقصدان لذاتهما فحسبُ ، ولكن لتكونا أيضاً تمهيداً لرسم خطة إنسانية يسلكها الناس فى حياتهم الشخصية وحياتهم الاجتماعية ، بحيث تكون هذه الخطة ملائمة لحقيقة الكون ولطبيعة العلم بها . فالسوفسطائيون مثلا لا يجعلون للفضيلة معنى ثابتاً ، ولكنهم يجعلون الفرد مقياسها ؛ فما يراه فضيلة فهو فضيلةٌ وإن رآه غيره رذيلة ؛ وفى ذلك من الفوضى الخلقية والاجتماعية ما فيه . والفضيلة عند أرسطو لها معنى ثابت ، فهى أن يكون الإنسان فيلسوفاً ، وأن يجعل لعقله الحكم على شهوته ؛ حتى لا يتمتع إلا باللذات المباحة . وهكذا يفسر كل فيلسوف الفضيلة على حسب مذهبه الفلسفى .

ولا يقف جهاد الفلسفة ، عند حدود هذه المسائل الثلاث ؛ فإننا نراها فى العصور الوسطى بذلت الجهد الجهيد فى التوفيق بين مذاهبها وبين العقائد الدينية ، ونراها كذلك تحاول التوفيق بين العلوم الطبعية وبين الدين . ومن أقرب الفلاسفة لعهدنا عناية بهذا الموضوع « لوتز » الألمانى ، و « هربرت سبنسر » الإنجليزى ، من فلاسفة القرن التاسع عشر .

وتبذل الفلسفة مثل هـذا الجهد فى التوفيق بين العلوم المختلفة ؛ فكل متخصص فى علم ينفق كل وسعه فى تفصيلات العلم الذى قصر نفسه عليه ، وفى بناء مباحثه على أسس المبادىء والفروض الأولية التى يشيد عليها هذا العلم ، غير حافل بالصِّلات التى تربط هذا العلم بغيره ؛ فيظل ينظر إلى الكون بعين غير التى يبصره بها سواه من المتخصصين بالعلوم الأخرى ، وهـذا مالا يُرْضى الفلسفة ، فان أكبر همها أن تُوَحِّدَ إدرا كنا لهذا الكون ، لا أن تجعل من الكون أكواناً مختلفة متنافرة ؛ فتتناول الفروض الأولية للعلوم المختلفة ، وتحاول إزالة مابينها من تنافر ، وتَنْظِمُها فى سلك من العلاقة المتينة يربطها برباط الوحدة أو الالتئام ، وكذلك تحاول التوفيق بين نتائج العلوم المختلفة ، لتوحد الوجهة ، وتجعل العلماء على اختلاف تخصصهم ينظرون إلى الكون بمنظار واحد .

وما إلى هذا القَدْر ينتهى مأرب الفلسفة ؛ فإنها على حسب معناها الخاص ، تشتمل على جملة علوم ، يقال لها العلوم الفلسفية : كالمنطق ، والأخلاق ، وعلم الجمال ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وفلسفة القانون ، وفلسفة الدين ، وفلسفة التاريخ . فكل بحث يتصل بعلم من هذه العلوم ، ولا يكون مَبْناه على التجربة بل يقوم على أساس التفكير العقلى المَحض ، يكون بحثاً فلسفيا .

وبعد فإنك تستطيع من كل ماعرضناه عليك أن تقف من كلمة الفلسفة موقفا يزيل عنك كثيراً مما أحاط بها من الإبهام والغموض . فقد رأيت أنها تشتمل على تعرف حقائق الأشياء ، وعلى تلمس طبيعة المعرفة ، وعلى البحث عن معنى الفضيلة ، وعلى التوفيق بين مذاهبها وبين العقائد الدينية ، وعلى التوفيق بين بعض العلوم وبعض ، وعلى العلوم التى تدعى العلوم الفلسفية .

٢ — الفلسفة مظهر من مظاهر الحياة الأدبية

للحياة الأدبية معنيان : معنى عام يدل على الحالة العقلية التى تشترك فى إنشائها العقول على تعدد مناحيها واختلاف نزعاتها ؛ فيكون من أثرها انتشار الأفكار العلمية ، والاشتغال بفنون العلم المختلفة ، والبحث فى الشئون الدينية ، والخلقية ، والسياسية ؛ كما يكون من أثرها ماتجود به قرائح الشعراء ، وما تفيض به أقلام الناثرين . أما المعنى الخاص فلا يطلق إلا على ما تعودنا أن نسميه الأدب ؛ ولا يراد به إلا أثر الرجال الذين ندعوهم أدباء ، ممن يجيدون قرض الشعر ، أو يبدعون فى تنميق النثر الفنى .

وليس يخفى أن الحياة الأدبية بمعناها العام تشمل الحياتين : العلمية ، والأدبية الفنية . كما لا يخفى ما بين هاتين الحياتين من تباعد شديد ، ومن تقارب شديد : تباعدان فى المبدأ والوسيلة والغاية ، وتتقاربان فى تأثير كل منهما فى الأخرى ؛ فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أثر الحياة العلمية فى ترقية الحياة الأدبية الفنية ، وتوسيع نطاقها ، وتوفير مقاصدها ؟ ومن ذا الذى يجحد تأثير الثانية فى الأولى وفى تهذيب أساليبها ، وإلباسها ثوبا قشيبا من السلاسة والانسجام ؟

الفلسفة والحياة الأدبية العامة

إن الأمة التى تركد فيها الحياة الأدبية العامة يسيطر الجهل على عقول أبنائها ، ويجعل بينها وبين الخوض فى مسائل عويصة كالمسائل الفلسفية حجاباً مستورا . وقد يتجه الإنسان الجاهل ، إذا ألقى نظرة على الكون فراعته جلالته ، إلى أن يسأل نفسه : « ما هذا الكون ؟ » فإن كان ذلك الإنسان ذا دين رأى فى دينه جواب سؤاله ، فيعرف أن هذا الكون مخلوق ، وأن خالقه إله قادر ؛ ويكتفى بهذا القدر ، ويقتنع به . وبهذا يذهب سؤاله الفلسفى أدراج الرياح ؛ أجل ، فإن هذا السؤال لم يتحرك به لسانه إلا لروعة بهرت فؤاده ، فلما وجد فى الدين شرح السبب ظفر بضالته ، وكفاه ذلك مئونة البحث والتفكير . وإن لم يكن ذلك الجاهل ذا دين يجيبه إجابة تطمئنه ، رجع إلى أساطير الجاهلين من أسلافه ، أو استعان بخياله يلتمس منه الجواب . وليس من المنتظر أن يكون جوابه فلسفة

لأنه جواب ليس له من القيمة العلمية نصيب كبير أو صغير. أنستطيع بعد هذا أن نحكم بأن الفلسفة تنشأ فى شعب فقير من الحياة الأدبية العامة ؟

وما لنا ولمثل هذه الحياة المجدبة نلتمس فيها الفلسفة ؟ إن الفلسفة لا تظهر ولا تنمو، ولا تزهو، ولا تؤتى أكلها إلا حيث الحياة الأدبية زاخرة جَيّاشة تتنافس فيها العقول، وتتسابق المواهب. وتصطخب العقائد المختلفة، والمذاهب المتعددة، والمبادىء المتباينة، وتتسع فيها حرية البحث. وتترامى فيها ميادين التفكير، فينشأ فيها العالم النحرير، والشاعر البارع، والكاتب الباهر؛ فى مثل هذه البيئة تَنبُتُ الفلسفة، وفى مثل هذه الحياة تجد المرتع الخصيب، فالمؤمن بوجود الله يتجه بفكره إلى البحث عن السنن المحكمة التى أجرى الله الكون على مقتضاها، والتى جعلها الله دعائم لبناء هذا الوجود البديع. وطالب الايمان يولى وجهه شطر الكون يفكر فيما أُودِعَه من ضروب النظام الرائع، ويبحث ويتعمق فى البحث حتى تفصح له الكائنات عن كثير من أسرارها، وتنطق له بوجود بارئها. والكافر يحاول بالبحث والتمحيص وإطالة النظر فى هذا الوجود أن يستشف من وراء هذه المظاهر الكونية أصلها وحقيقتها وكيف تحولت من ذلك الأصل إلى ما هى عليه الآن. والعَالِمُ يدفعه حُب المزيد إلى عدم القناعة بما يحصله العقل عن طريق الحواس، فيحاول أن يَنفُذ بهذا العقل إلى ما وراء الحس حتى يصل إلى الحقيقة فى أرُومَتِها. والناشدون للإصلاح الخلقى والاجتماعى يُرْخُون الأعنة إلى عقولهم لتجول فى أعماق النفوس البشرية حتى تقف على طباعها وغرائزها لتتخذ منها قواعد تبنى عليها صروح الأخلاق والنظم الاجتماعية وفنون الحكم والسياسة.

وهكذا تقود العقول المثَقَّفة أربابها إلى الولوج فى أمثال هذه المباحث الفلسفية، فتصبح الفلسفة مظهراً جلياً من مظاهر الحياة الأدبية بمعناها العام.

تلك الحياة تتطلب الفلسفة كما يتطلب الظمآن رِيًّا، والجوعان شبعاً، والناقص كمالا، والمقدمة نتيجة؛ ولعل خير مثال نسوقه لذلك، ما كان من أمر الفلسفة فى بلاد اليونان التى نَبَتَت فيها الفلسفة. فإن الفلسفة لم تظهر فيها،

ولم تستطع أن تبنى لنفسها هذه المكانة إلا بعد أن تقدمت الحياة الأدبية العامة فى البلاد تقدماً ظاهراً، فقد بَرَزَ فى الأدب الشعرى قبل ظهور الفلسفة فطاحلُ لا تزال العصور تردد ذكرهم كما تردد شعرهم، واتجهت العقول إلى الناحية العلمية فخطت فيها خطوات واسعة. وبجانب ذلك كان العقل اليونانى قد أخذه الشك فى الآلهة التى كان القدماء يعبدونها، وصار قَلِقاً حيران يَتَلَمَّسُ ديناً يروى به ظمأ هذه النزعة الدينية التى هي من خصائص النفس الإنسانية. ويتطلب تفسيراً صحيحاً لهذا الكون حتى يبنى فى نفسه أسساً جديدة لنظام الوجود على أثر انهيار تلك الأسس القديمة التى أقامتها عقيدته الأولى.

أضف إلى ذلك أن اليونانيين قد رأوا من النظم السياسية فى بلادهم، وفى الحكومات المختلفة التى كانت تقوم فى أمّهات مدنهم، ما أثار بينهم النّقاش فى أى أنواع الحكومة أفضل وأجلب للخير. كان كل ذلك جواً صالحاً لظهور الفلسفة: أدب بَلَغَ الذّروة، وعلم يقوم على تفكير سليم، وعقل هدم ديناً قديماً ليشيد له ديناً جديداً، وقلوب مَشْغُوفة بالبحث عن أفضل الحكومات. فليس بِدْعاً أن ينحو العقل اليونانى وهو فى مثل هذه البيئة منحًى جديداً فى تفكيره، يكون له عوناً على الظفر بما ينشده، ولم يكن هذا المنحى الجديد شيئاً غير الفلسفة.

الفلسفة من مظاهر الحياة الأدبية الخاصة

عسى أن تكون هذه النقطة أهم ما يُعْنَى به فى موضوعنا هذا؛ لاختصاصها بأدب اللغة، ولأنها ترينا ما بين هذا الأدب وبين الفلسفة من روابط وصلات، فأية صلة يا ترُى بين الشعر والفلسفة؟ وأيّة لُحْمة بينها وبين النثر؟ هذا ما نريد أن نميط عنه اللثام. على قدر ما يتسع المقام. أما الشعر فقد تعودنا أن نسمع، وتعودنا أن نعلم تلاميذنا ـ أنه فنّ الخيال والوجدان؛ فهو للشاعر ريشته التى

يصور بها على لوحة قصيدته كل ما يحوم بسماء فكره من صنوف الخيال الرائق فيطرب به ذلك لأنه استطاع أن ينتزع من مرآة الذهن تلك الصور الساحرة، وأن يبرزها للناس ماثلة مجسمة ناصعة الجمال؛ فيَطرَبون ويعجَبون؛ لأنهم يرون مثالا من الجمال النفسيّ الباهر كان مخبوءاً بين طيّات النفس فاهتدى إليه الشعر ونقله من ذلك الخفاء والاستتار، إلى ذلك الوضوح والجلاء. وكما يكون الشعر معرِضاً لآيات الخيال الجميل، يكون مُتنفسّاً للعواطف المعتلجة فى القلوب: فكم نحس فى القريض نسمة لطيفة من نسَمَات الرحمة التى تنبعث من فؤاد الشاعر، وكم نشعر بحرارة متوهجة تلفحنا بها ثائرة الحقد أو الغضب أو الحسد، وكم نحِسّ غير ذلك من العواطف المختلفة التى تجول بنفوس الشعراء إذا قرأنا قصائدهم. فالشعر حينئذ يعتمد على الخيال وعلى الوجدان: الأول سرُّ جماله، والثانى مبعث تأثيره. ولكننا ألِفنا أن نعتقد وأن نقول إن الشعر لا يعتمد على التفكير العقلى، كأنّ ذلك ينافى طبيعته. لا أدرى أنحن مصيبون فى ذلك أم مخطئون، ولعمرى لئن كان ما نسميه بالتفكير العقلى لا يثمر إلا كل ثمرة جافة، كالتفكير العلمي الصِّرف. من أمثال التفكير فى قاعدة نحوية، أو نظرية هندسية ـ لكان من الخطل أن نجعل هذا التفكير دعامة يقوم عليها الشعر بجانب دعامتى الخيال والوجدان؛ لأن ذلك لا يبعث فى النفوس تلك الروعة التى يجب أن يبعثها الشعر فيها.

ولكن هل كل صنوف التفكير العقلى مندرجة تحت هذا المعنى العلمى الجاف؟ إذا أجبنا بنعم فقد ظلمنا العقل ظلماً كبيرا؛ فان للعقل مجالا فى التفكير أوسع من هذا المجال. فمن ذا الذى يحول بينه وبين التفكير فى غرائز النفوس وأخلاقها وفى طبائع المخلوقات وأسرارها، وفى ملكوت السموات والأرض؟ ومن ذا الذى يمنعه الإمعان فى مثل هذا التفكير حتى يصل إلى كثير مما أودعه الله هذا الوجود؟ إن مثل تلك الأسرار الكونية الرائعة إذا استمد منها الشعر أكسبته روعة دونها روعة الخيال الفاتن والوجدان الفياض. فثمرات العقل من هذه الناحية يصح أن تكون مادة للشعر، وقاعدة من قواعده، ولا يحط ذلك من

شأنه ، أو يشين من روائه . بل إن مثل هذا التفكير إذا امتزج بالشعر رفع قدره وأغناه بالمعانى الراقية التى تطرب لها العقول ، وبخاصة العقول المثقفة . وليس هذا التفكير إلا التفكير الفلسفى ، فطبيعة الشعر تستلزمه ، لأن الشعر ككل فن ينزع إلى الكمال دائما ، ووقوفه عند حدى الخيال والوجدان نقص لا يليق به ، لأن فى ذلك إهمالا لأثمن قوة نفسانية وهى قوة التفكير ، فإذا لم يحفل بها الشعر وأشبع شره الخيال ، وأروى ظمأ العاطفة ، حتى جعل للخيال أدبا غنيا ، وجعل للعاطفة أدبا ثريا ، بقى فى النفس فراغ وأسع عاطل من الأدب ، وهو بطبيعته خصيب صالح لأن ينمو فيه أفخر ضروب الأدب ، وأكثر أنواعه فائدة . ولكن الشعر كما قلنا فن طموح لا يقنع بما يقنع به قائلوه من قصور . ولا بد أن يمد يده إلى تلك الثغرة ليسدها ، حتى يبدو فى ثوب الكمال . ولم يكن يغل يد الشعر عن ذلك إلا جهل الشعراء فى حياة الشعر الأولى ، وهى الحياة التى تتحكم فيها البداوة ويسيطر عليها ضعف الإدراك ؛ فلم يكن الشعر بقادر فى ذلك الوقت على أن يتجاوز حدود الخيال والوجدان إلا قليلا . لكن وقوفه هذا لم يكن إلا وقوف المتوثب الذى ينتهز كل فرصة سانحة ليبنى له فى ساحة العقل أدبا فلسفيا . لهذا كان ظهور الفلسفة فى الشعر مرهونا بقوة العقل ، وسعة المدارك ، وغزارة المعلومات العقلية ، وثراء الثقافة الفكرية . وعلى قدر حظ الشاعر من ذلك ، يكون حظه فى الشعر الفلسفى . وإنك إذا عرضت على ذاكرتك حالة الشعر العربى منذ البداوة وجدت أنه فى بداوته الأولى يكاد يكون خاليا من أثر التفكير الفلسفى . فلما نضجت العقول بعض النضج فى أواخر العصر الجاهلى ظهر أثر قليل لهذا التفكير . ألست ترى فى معلقة زهير بن أبى سلمى طائفة من الحكم الجليلة التى تدل على عمق الفكر ، وتمرس العقل بالتجارب والنظر فيما يحيط به من طبائع النفوس وأخلاقها ؟ هذه الطائفة الحكمية بلا ريب أدب فلسفى ، يتصل بفلسفة النفس الإنسانية وشمائلها. فلما جاء العصر الأموى جادت قرائح بعض الشعراء ببعض الحكم ، ولكنها أدق من حكم زهير ، وذلك كقول جرير يكشف عن بعض النزعات النفسية :

إنى لأرجو منك خيرا عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل

ولما عظمت الثقافة فى العصر العباسى ، ودرس الناس فلسفة اليونان ، وجد الشعر إذ ذاك ضالته المنشودة ، فاقبل على العقل يستوحيه أدبا فلسفيا يسد نقصه، ويبلغ به أوْجَ كماله . وقد ظهر هذا الأدب الفلسفى فى شعر الفلاسفة الذين قرضوا الشعر ، وفى شعر الأدباء الذين تاثروا بالفلسفة .

أنظر إلى ابن التلميذ يقول :

سُقِ النفسِ بالعلم نحو الكمال   توافِى السّعادة من بابها
ولا ترْجُ مالم تسّبب له   فإن الأمور بأسبابها

فجَعَلُهُ السَّعادة الحقّة فى العلم مقتبسٌ من رأى أفلاطون فى معنى السعادة ثم انظر إليه أيضاً يقول :

لولا حجابٌ أمام النفس يَمْنَعُها   عن الحقيقة فيما كان فى الأزل
لأدرَكتْ كل شىء عزّ مطلبه   حتى الحقيقة فى المعلول والعلل

هذا معنى يدل على أنّ هذا الشاعر يوافق فلاسفة اليونان الكبار فى أن الحقيقة هى الأصول الأولى لهذا الكون ، ويخالفهم فى أنه لا يمكن إدراكها ؛ لأن النفس محجوبة عن ذلك .

ولأبى بكر الرازى فيما يتصل باحوال الروح بعد الممات :

لعمرك ما أدرى وقد أذّن البِلى   بِعَاجل ترْحَالى إلى أينَ ترحَالى
وأينَ محل الروح بعد خروجه   من الهيكل المنحل والجسد البالى

وقال المتنبى :

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحل الثانى

أخذ هذا من قول أفلاطون : « إياك فى الحرب أن تستعمل النجدة وتدع العقل، فإن للعقل مواقف قد تتم بلا حاجة إلى النجدة ، ولا ترى للنجدة غِنى عن العقل »

وللمتنبى مما ابتكره ولم يقتبسه حكم فلسفية كثيرة كقوله :

من يَهُن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

ولأبى العلاء المعرى فى الشعر الفلسفى مَنَاح متعددة ، فمن ذلك قوله فى نشوء الحى من الجماد :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

وقوله فى الحكام وظلمهم وبيان منزلتهم من الرعيّة :

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعَدَوْا مصالحها وهم أجَرَاؤها

ومضى الشعر فى العصر التركى وهو مُجْدِب من الحكم الفلسفية ، لانصراف الناس عن دراسة الفلسفة ، ولركود الحياة العلمية التى أصبحت جمعاً لمخلفات السابقين ، وقل فيها الاجتهاد والابتكار .

ولما جاء عصر إسماعيل حفيد محمد على ، وراجت الحالة العلمية . وأقبل الناس على أدب الغرب وفلسفته يدرسونهما كثرت الحكم الفلسفية فى شعر بعض الشعراء ، وما شِعْرُ المرحوم أحمد شوقى عنك ببعيد .

ويجمل أن ننبهك هنا إلى أنه ينبغى ألا نطلق « الشعر الفلسفى » إلا على القريض الذى يتحقق فيه معنى هذه التسمية ؛ فلو قصد إنسان إلى النظريات الفلسفية . ينسجها فى أبيات موزونة مقفّاة ، كما نظم ابن مالك قواعد النحو والصرف فى ألفيته ، لم يكن ذلك شعراً فلسفيا ، ولكنه نظم فلسفى . يجب أن نعدّه مع النظم العلمى فى صف واحد ؛ كلاهما يصوِّر الحقائق عارية مجرّدة ، ولا يعنى بإبرازها فى ثوب جميل يخلب الألباب بلونه الزاهى ، ووشيه البديع . وكلاهما لايحفل بأن يفيض على المعانى شيئاً من الوجدان ، أو يَمَسَّها بنفحة من العاطفة ؛ فتفقِد بذلك رُوحَ التأثير الشعرى ، وتبدو للناس جافة ثقيلة قاسية لاتبعث فى نفوسهم إذا أطالوا الوقوف عليها إلا السآمة والملل

والشاعر اللبيب يعرف كيف يُبْرِزُ المعنى الفلسفى فى حلة شعرية أخاذة ؛ قد يتوسل إلى ذلك بخياله ، فيصوّر الأنانية وماهامن آثار ، بالوحش النَّهِم الذى أعماه نَهَمُهُ حتى مضى يفتك بكل ما يجده ، ويبطش بكل شىء فى سبيل إشباع نفسه ، غير شاعر بما يذيق ضحاياه من شقاء وآلام . وقد يتوسل إلى ذلك باللباقة فى استعمال المجاز ؛ كقول الأستاذ الجارم بك ، فى قصيدة رثائية

نأكل الأرض ثم تأكلنا الأرْ ضُ ، دَوَاليك أعصراً ودهورا

أو بالمهارة في استعمال التشبيه ، كقول الشاعر ، وقد أهدى هدية إلى عظيم من العظماء ، له عليه منن سابغة :

كالبحر يمطره السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه

وكقوله يفضل نفسه على أهل زمانه :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وقد يستعين على ذلك بصوغ المعنى الفلسفى فى قالب حكمة موجزة اللفظ ، تتصل بالموضوع الذى يتكلم فيه الشاعر اتصال السبب بالمسبب ، أو البرهان بالدعوى ، أو نحو ذلك . كما ترى فى قول الشاعر

خدَعوهَا بقولهم حسناء والغوانى يغرهنّ الثناء

وقد يسلك الشاعر طرقا أخرى للوصول إلى هذه الغاية ، على قدر ما تهيئه له مواهبه .

إلى هنا ننقل القلم إلى النثر ليرينا كيف تكون الفلسفة مظهراً من مظاهره :

قد أثبتنا آنفاً أن الشعر يبدأ خيالياً وعاطفياً ، ثم يصل به الكمال إلى أن يكون أيضا عقليا . فمظهره العقلى يأتى متأخرا ، وتابعاً للثقافة الفكرية . والأمر فى النثر على النقيض من ذلك ؛ فإن النثر وبخاصة ما كان منه كتابيا يبدأ عقليا ، يستمد معانيه من وحى المفكرة لا من وحي المخيلة ولا من وحى العاطفة . لذلك كان النثر الفنى لا ينمو ولا يزدهر إلا فى ظلال الحضارة ، حيث تبلغ العقول أشدها ، وتصبح على جانب عظيم من الثقافة والحصافة ، ولكن النثر كالشعر فن يتطلب حظه من الكمال ، ويتوق إلى إرواء غلته من معينى الشعور والخيال . وهذا سر ما نراه من ميل بعض الكتاب بالنثر إلى تينك الناحيتين ؛ فيدبجون من الرسائل البديعة ما لا يعدو أن يكون شعراً منثوراً . إلا أن ذلك المظهر من النثر يعد فى المرتبة الأخيرة فى عالم النثر . ولهذا كان أثر التفكير العقلى فى النثر من أخص آياته ، وأظهر خصائصه ، إذن يكون النثر أقرب فى الأدب رحماً بالفلسفة ؛ لأن التفكير العقلى هو الدعامة القوية التى يقوم عليها النثر ؛ وهو بعينِهِ الدعامة الراسخة التى تقوم عليها الفلسفة؛ ولا تحسبن أن كل تفكير يقال له فلسفة ؛ فإن

ـفكير لا يوسم بهذه السمة إلا إذا جرى على سـنة المنطق السليم، وغاص فى
ـاق المسائل لينتهى إلى أصولها، وينفذ إلى مكامن طبائعها ومخابىء فطرها،
ـرقا حجب المظاهر الحسية إلى غيوب الحقائق المجردة. فالنثر يعتمد فى أول
ـأته على التفكير العادى الذى هو أثر عقل متنور لم يصل به تنوره إلى المنزلة
ـلسفية. ولـكن سنة التدرج والترقى لا تلبث أن تأخذ بيد النثر إلى هذه المنزلة
ـصبح الفلسفة مظهرا من مظاهره. وهذا التدرج بلا ريب فى حاجة شديدة
ـ بيئة ملائمة لنشوئه ونمائه حتى يصل إلى غايته. ولا مرية أن أوفر البيئات
ـصبا، وأكثرها ملاءمة لذلك التدرج هو البيئة التى تروج فيها الفلسفة، وتجم
ـاحثها، وتذيع مذاهبها، وتنتشر طرق فحصها. فيكون من ذلك لعقول الكتاب
ـد تستمد منه ما هى بحاجة إليه، ومنهاج تسلكه فيما هى متوخية له.

ولا خفاء فى أن ضروب النثر قابلة لأن تمتزج بمادة الفلسفة وروحها.
ـدَ أن من النثر فنوناً لا تؤدى واجبها على الوجه الأكمل، ولا تصل إلى
ـاية المرجوة منها إلا إذا دَعَمَتْهَا الفلسفة. وكانت لها عوناً ونصيراً فالنثر
ـذى يؤلفه مؤرخ الأدب لا يكون ذا قيمة كبيرة إذا أفرغ فى قالب قصصى
ـض، يحدثنا عن حالة الأدب كما حَدَثَتْ ولا يزيد. ولـكنه يكون رفيع
ـنزلة إذا وقف المؤرخ على العصر الذى يصف أدبه وقفَـة تحصر خصائصه
ـرجع بها إلى الأسباب التى أنتجتها. وذلك يسوقه إلى البحث فى تأثر النفس
ـلإنسانية بمؤثرات البيئة والعلم والحكم وما إلى ذلك من المباحث العميقة التى تتجلى
ـها الروح الفلسفية فى صورة قوية. ونثر تراجم الرجال يستلزم من المترجم
ـن يستفرغ قصارى وسعه فى تشريح نفس المُتَرْجَم تشريحاً فلسفياً، حتى
ـربط خصائصه الفنية بخصائصه النفسية. ومثل ذلك يقال فى النثر النقدى،
ـالنثر الذى يحرره الـكتاب فى مقالات باحثة فى الحياة الاجتماعية، وما فيها
ـن عادات وأخلاق وشئون سياسية واقتصادية وما شابه ذلك. على أن
ـنظريات الفلسفية نفسها قد تعد نثراً أدبياً إذا صاغها الفيلسوف فى أسلوب
ـرشيق، وعبارات طلية، وروح ظريفة يتجلى فيها جمال الفن الأدبى، وسار

بها فى طريق بعيد عن التعقيد والغموض اللذين يباعدان ما بينها وبين الأدب فابو على ابن سينا ، الفيلسوف الإسلامى المشهور . لا يمكن اعتبار أسلوبه الذى جرى عليه فى كتابة فلسفته أسلوباً أدبياً ، ولكن أسلوب الأساتذة لطفى السيد باشا . والدكتور طه حسين بك . وأحمد أمين . إذا ساقوا اليك النظريات الفلسفية التى أثمرتها عقول الفلاسفة ، يريك مثالا رائعا للنثر الأدبى الفلسفى . ولقد كان أسلوب أفلاطون فى شرح آرائه الفلسفية من أبدع الأساليب الأدبية . ولم يستطع تلميذه أرسططاليس أن يجاريه فى ذلك ، لأنه سلك السبيل العلمى الجاف ولم يؤت من المواهب الأدبية ما أوتى أفلاطون

ومن أشهر الكتاب الذين مزجوا كتابتهم بالفلسفة عبد الله بن المقفع ، والجاحظ ؛ وسنريك مثلا من كلام الأول فى النقطة الآتية :

٣ — أثر الفلسفة فى تنظيم الفكر

عرضنا عليك فى صدر هذا المقال طائفة من المسائل التى تَعرِض لها الفلسفة . وإخالك لأول نظرة قد أدركت أنها أشد المسائل إشكالا ، وأبعدها مغاصاً . فهى لذلك تتقاضى الفيلسوف أن يجرد عزمه ، ويشحذ ذهنه ، ويكلف عقله الإمعان فى البحث والاستقصاء حتى يصل إلى الحقيقة فى قرارها البعيد . أضف لذلك أنها تحتم عليه اتباع خطة قويمة فى بحثه ، حتى يسير فيه إلى النهاية سيراً مأمون العاقبة ، ناجيا من الزلل ، وليست تلك الخطة إلا تنظيم التفكير وترتيبه ترتيباً دقيقا ، وجَعْلَه خطوات متتابعات مترابطات ينتقل العقل من أولاها إلى أخراها ، واحدة فواحدة ، حتى يجتلى وجه النتيجة ناصعا مشرقا . ولا ينتهى عمل الفيلسوف إلى هذا الحد ، فإنه مضطر بعد ذلك إلى الدفاع عن هذه النتيجة أمَامَ الفلاسفة الآخرين الذين أوصلهم بحثهم إلى ما يناقضها ، وأمَامَ كل من يوجه إليها أى اعتراض . والتجاء الفيلسوف إلى البرهنة على صحة رأيه يحمله على تنظيم الأفكار التى يتألف منها برهانه ؛ فيسوق المقدمات سوقا رفيقا يسايره الترتيب . ويتْبِــعُ بَعضَهَا بعضا على نهج يطابق المنطق ، حتى يلجىء خَصْمه إلى الاقرار بالنتيجة التى تستلزمها هذه المقدمات . فلا

غرابة بعد هذا أن كان تفكير الفيلسوف فى المشا كل العويصة من جهة ، وفى البرهنة عليها من جهة أخرى ، من أهم الأسباب التى تنظم فكره ، وترتب معلوماته ترتيباً محكما. وسرعان ماتنتشر المذاهب الفلسفية وأدلتها ، فيقف عليها أهل العلم والأدب ولا يمر ذلك على العلماء والأدباء بدون أن يترك فيهم أثره ويصبغ عقولهم بما اصطبغت به عقول الفلاسفة أنفسهم ، من اعتياد النظام فى التفكير إذا أرادوا أن يحاوروا أو يحاضروا أو يحرروا . وإذا رجعنا إلى المؤلفات العلمية والأدبية فى أوائل العصر العباسى الاول ، وجدنا أن الكثير منها يعوزه ترتيب الفكر بالقياس إلى المؤلفات التى ظهرت فى العصر العباسى الثانى ؛ وسر ذلك أن تأثر المؤلفين الأولين بالفلسفة كان أقل من تأثر الآخرين الذين عاشوا فى عصر رواج الفلسفة ونضوجها . فظهرت مؤلفاتهم مبوبة تبويبا دقيقا ؛ وتجد الباب مشتملا على فصول يختص كل واحد منها ببحث من مباحث هذا الباب ، وتجد المبحث مسوقا فى فكر مرتبة منظمة يسهل على المتعلم تناولها بيسر وسهولة

ولم يكن الشعر والنثر الفنى بأقل حظاً فى نظام الفكر من المؤلفات العلمية. وإن موازنة عاجلة بين الأدب قبل ذيوع الفلسفة اليونانية فى العصر العباسى الثانى وبين الأدب بعده لتسرع بنا إلى الحكم بأن أثر الفلسفة فى نظام الفكر الأدبى فى العصر العباسى الثانى واضح شديد الوضوح . وحسبك أن تقرأ معلقة امرىء القيس مثلا ، وبعض قصائد المتنبى لتتبين ذلك الأثر : إذ تجد المعلقة على عظم شأنها فى الأدب الجاهلى ينقصها كثير من ترتيب الفكر ، حتى لتجد الشاعر ينتقل من معنى إلى معنى لا تربطه به صلة ، فتنزعج لذلك نفسك ، وتنفر نفوراً شديداً ؛ على حين أنك إذا قرأت الكثير من قصائد المتنبى لا تجد إلا ترتيباً دقيقاً بين عناصر القصيدة . وكذا بين المعانى التى يشتمل عليها كل عنصر

اقرأ بعد ذلك حكم أكثم بن صيفى فى خطبته أمام ملك الفرس . ثم ارجع البصر إلى حكم ابن المقفع فى كتابيه : الأدب الصغير والأدب الكبير ، تجد البون فسيحاً ، يسرد الأول حكما فى معان شتى لا تلمها آصرة ، وينسج الثانى حكمه نسجاً متلاحماً يشد بعضه بعضا ، فى طراز خلاب . يسحر القلوب بحسن

ترتيبه وجمال نظامه . وما أبدعه إذ يقول : « إن لكل مخلوق حاجة . ولكل حاجة غاية ، ولكل غاية سبيلا ، والله قد وقّت للأمور أقدارها ، وهيأ إلى الغايات سبلها ، وسبب الحاجات ببلاغها . فغاية الناس وحاجتهم صلاح المعاش والمعاد ، والسبيل إلى دركها العقل الصحيح » .

ومجمل القول أن تأثر العلماء والأدباء بالفلسفة يدعوهم إلى تنظيم أفكارهم ، حتى يكون من أثر ذلك : أنهم ينتقلون من الجزئى إلى الكلى ، ومن المحس إلى المعقول ، ومن الواضح إلى الغامض ، ومن الأسباب إلى المسببات ، ومن الأهم إلى المهم ، ومن المقدمات إلى نتائجها ، وهكذا .

٤ — أثر الفلسفة فى ضبط التعبير الأدبى

إذا تأثر الأدباء بالفلسفة فى طريقها الفكرى ، وأسلوبها اللفظى فلا جرم أن يكون لذلك التأثر ثمرته فيما تنتجه عقولهم ، وفيما تجرى به أقلامهم ؛ فيستعير الأدب فى كثير من أساليبه ثوب المنطق الفلسفى ؛ حتى يكون التركيب فى دقة صوغه صورة ممثلة لاتّساق المعنى فى الذهن ؛ وبذلك يصبح التعبير مرآة صادقة للتفكير ولهذا نرى أن الأديب الذى يَحِيكُ أسلوبه على هذ المنوال يمتاز بالميزات الآتية :

(ا) اختيار اللفظ الذى يعبر عن المعنى تعبيراً دقيقاً ؛ فلا يستعمل اللفظ العام للدلالة على الخاص ، ولا يستعمل الخاص للدلالة على العام ؛ اللهم إلا إذا جرَى ذلك على سنة المجاز الذى تؤيده القرائن تأييداً قوياً .

(ب) تسلسل العبارات طبقاً لتسلسل المعانى الذهنية ، والسير بها حيث تسير

(حـ) تجنب الحشو الذى لا قيمة له

(ء) التحامى من الإطالة التى ليس لها كبير جدوى

(هـ) نبذ الاستطراد الذى لا يقتضيه انتظام المعنى فى الذهن ؛ لأن مثل هذا الاستطراد يوهن الارتباط بين المعانى المتصلة فى العقل ، ويذهب برواء المنطق

(و) ترك التكرار الكثير الذى يكون فى جل الأحيان تافها وحائلا دون استرسال العقل فى طريق التفكير المتصل

(ز) الزهد فى استعمال المحسنات البديعية التى كثيراً ما تحول دون وضوح الفكرة أو تمامها

(ح) اتقاء التعقيد اللفظى ؛ لأنه لا يستقيم مع اطراد المعانى فى العقل

(ط) السلامة من التعقيد المعنوى الذى يجعل الكلام صالحاً لاحتمالات مختلفة لا تتفق مع ما يستلزمه التعبير المضبوط من الدلالة على معنى محدود .

والقاعدة العامة لذلك أن تكون بنات اللسان صدًى لبنات الجنان ، وإذا قرأت دواوين الشعراء . ورسائل الكتاب ، الذى خلفها العصر العباسى ، رأيت ذلك واضحاً جليا فى كلام الأدباء الذين تركت فيهم الفلسفة أثرها ، من أمثال ابن المقفع فى الكتاب ، والمتنبى فى الشعراء ، لأن هذين وأمثالهما كانوا فلسفيي النزعة . حريصين على إيثار الأسلوب المنطقى

٥ — ترجمة أشهر فلاسفة اليونان

(١) سقراط

هو فيلسوف أثينى ، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد . ولم يكن أبواه من الأسر المعروفة بالجاه أو الثروة . فقد كان أبوه من صناع التماثيل ، وكانت أمه قابلة . وكان سقراط دميما قبيح الخلقة ، لم يمنح من الجمال الجسمى شيئا ، ولكنه كان مثالا لجمال الخلق ، ولطف النفس . أخذه أبوه منذ صغره بتعليمه صناعته حتى ألم بها ، وحذقها بعض الحذق . وكان سقراط كشبان أثينا فى زمانه ، يغشى المجالس العامة فى أوقات فراغه ، ويستمع إلى الفلاسفة ، ويجلس إلى طائفة السوفسطائيين ، يصغى إلى خطبهم ، ويتعرف مذاهبهم . وقد شعر منذ مفتتح شبابه بشغف عظيم إلى الفلسفة ، فأقبل على مذاهبها المختلفة يدرسها ؛ وكانت نتيجة ذلك أنه لم يسكن إلى واحد منها ؛ وأنه أحس رأياً خاصا يتغلغل فى أعماق فؤاده . يخالف هذه المذاهب جميعا ؛ كما أحس كأن وحيا من الآلهة يقتضيه القيام بنشر رأيه بين الناس . ولم يكن سقراط يعتقد فى نفسه أنه حكيم ، ولكنه يعتقد أنه محب للحكمة ، ولقد أخبره أحد العارفين به أن عرافة دلفى أنبأته بانه ليس

فى الناس أحكم من سقراط ؛ فلم يقابل سقراط ذلك النبأ إلا بالدهش والعجب ، وأخذ يختبر المعروفين فى زمانه بالحكمة ، فوجدهم على الرغم مما ظهر له من جهلهم يدعون أنهم حكماء ؛ ولكنه يرى فى نفسه أنه جاهل مثلهم ، ولكنه ليس مثلهم فى عدم الإقرار بالجهل ؛ فاعتقد من ذلك الحين أنه أحكم الناس حقا .

ولما كان يعتقد أنه مكلف من قبل الوحى أن يبلغ رسالته ، لم يتوان فى إبلاغ هذه الرسالة بكل وسيلة مستطاعة ؛ فكان يذهب الى المجتمعات العامة ، والأسواق ونوادى الألعاب ، وحوانيت التجار ، يحاور كل من صادفه لا يبالى أكان عظيما أم حقيراً ؛ ولم يتخذ لمحاوراته موضوعا خاصا ، بل كان يحاور فى أى موضوع تخلقه له المناسبات خلقا ؛ ولم يكن يشعر محاوره أنه أعلم منه ؛ وإنما كان يلقى فى روعه أنه مثله أو أجهل منه فى هذا الموضوع وأن مقصده أن يتعاونا بهذا الحوار على الوصول إلى نتيجة مقنعة يطمئنان إليها . وكان له أسلوب فى المحاورة غير مألوف الأثينيين ؛ فكان يمزجه بالتهكم ، ويقرنه بالهزل . ولكنه هزل ينطوى تحته جد عظيم . وقد افتتن به الشبان الأثينيون ، وأغرموا بأسلوبه . ومما جعل له من التجلة فى نفوسهم مكانا ساميا أنه لم يكن يطلب على عمله أجرا . ولا يبغى من ورائه مجدا ، على حين أن السوفسطائيين كانوا يتقاضون على تعليمهم الناس أجراً عظيما .

وكثيراً ما كان سقراط فى محاوراته يطعن فى النظم السياسية . وفى الأخلاق الموروثة ، والعادات التى يتناقلها الحاضرون عن الغابرين ، ويرى أنها ليست من الفضيلة فى شىء . فأغضب ذلك الطبقة المحافظة فى أثينا كما أثار حقد الطبقة « الارستقراطية » بما أصبح له من سلطان على نفوس الشبان . ولم يسلم من حنق الفلاسفة عليه وحسدهم له . وكانت خاتمة ذلك كله أن اتهمه بعض الناقمين عليه بتهم عدة ؛ فاتهموه بالإلحاد ، والثورة على الحكومة ، وإفساد الشبان . وحوكم سقراط على هذه التهم ، وأنف أن يلجأ إلى طريقة الاستعطاف ، بل تجاوز ذلك إلى السخرية بالقضاة ، فلم يكن ثمة بد من الحكم عليه بالإعدام ، وأودع السجن

حتى حل موعد التنفيذ . فقدمت إليه كأس السم فجرعها باسما ، وغادرته الروح ، ركان ذلك سنة ٣٩٩ ق . م .

ولم يكن سقراط فى أثناء تبليغ رسالته إلى الناس بمغفل واجباته الوطنية ، نقد اشترك فى الانتخابات ، وانتخب فى مجلس الشورى ، وكان من رؤسائه ، واشترك فى الحروب وأبدى فيها بسالة وكان له بلاء جميل .

فلسفته

أهم ما فى فلسفة سقراط ما يأتى :

(ا) نظرية المعرفة : فقد هدم نظرية السوفسطائيين ، وأثبت أن المعرفة ليست إلا إدراك العقل للمعانى الكلية ، وأن الإدراكات الحسية لا قيمة لها ؛ لأنها تختلف باختلاف الناس . وقد سبقت الإشارة إلى هذه النظرية فى أوائل هذا الموضوع .

(ب) مسألة الروح : كان الفلاسفة قبله مختلفين فى هذه المسألة ، فالأيونيون يرون أنها تأتينا من الهواء بطريق التنفس ، فإذا انقطع التنفس حيل بينها وبين الإنسان .

والإيليون ، وبخاصة الفيثاغوريون ، يرون أنها إله يسقط فى الجسم ويعتقل به ، عقابا له على ما اقترف من قبل . فلم يرض سقراط بهذا ولا ذاك ، وأثبت أن النفس التى هى موطن الحكمة والحق ، والفضيلة والرذيلة ، لم تأتنا من الهواء ولم تهبط إلينا من السماء ، ولكنها شىء باطن فينا ، ولنا القدرة على تهذيبها وتقويمها

(ح) مسألة الأخلاق : ذهب سقراط إلى أن الفضيلة ليست تختلف باختلاف الناس كما يرى السوفسطائيون الذين جعلوا الفرد مقياس الفضيلة ، فما يراه المرء فضيلة فهو كذلك بالنسبة له . وليس للفضيلة عندهم معنى ثابت . فقرر سقراط أن للفضيلة معنى ثابتا ، ودعا الناس إلى التحلى به . وذهب إلى أن سبيل التحلى بالفضيلة هو العلم بمعنى الفضيلة نفسها ؛ لأنه يرى أن العلم بها يكفى وحده لحمل النفس على اتباعها ، وأن الذين يقترفون الرذائل لم يرتكبوها إلا لجهلهم بمعنى الفضيلة . وقد خطأ أرسطو رأى سقراط هذا ؛ فقال إنه لا يلزم

من العلم بالشيء العمل به ، فكثيراً ما نرى الناس يعملون بخلاف ما يعلمون . وقد مات سقراط ولم يذكر للفضيلة تعريفا يبين حقيقتها ؛ ولذلك اختلف أتباعه من بعد موته فى تفسيرها ؛ فذهب بعضهم إلى أنها الزهد فى أقصى حالاته، ورأى بعضهم أنها اللذة والبعد عن الألم ، ومال آخرون إلى أنها التامل الفلسفى .

(٢) أفلاطون

ولد بأثينا سنة ٤٢٨ ق . م من أسرة « أرستقراطية » ثرية ورث عنها من المال ما كان له عونا على التفرغ لدراسة الفلسفة . وقد انصرف أفلاطون حينا من شبابه إلى الشعر ينظم فيه قصائد وقصصا . وقد دعاه إلى هذا الانصراف أنه رغب فى اعتزال الشئون السياسية ، لأنه أدرك حكم « الديموقراطية » المتطرفة التى كان الأمر فيها بيد الطغام الذين تقعد بهم مواهبهم عن حسن إدارة البلاد ، وأدرك أيضا حكم « الارستقراطية » المتعسفة التى أعقبت « الديمقراطية » عند ما أظهرت الحرب البيلوبونيزية فسادالحكومة « الديمقراطية » وعدم صلاحيتها لحفظ البلاد وصيانة كرامتها . فلم يَرُق أفلاطون هذا الحكم ولا ذاك . وقد اتصل بسقراط فى الأعوام الأخيرة من حياته ، وشهد محاوراته ، ووقف على جوهر فلسفته . فكان له من حوارسقراط ، ومن مذهبه الفلسفى عون كبير على تكوين فلسفته . ولقد تنقّل أفلاطون بعد موت أستاذه سقراط إلى بلاد مختلفة ؛ فزار آسيا الصغرى ، ومصر ، وبرقه ، وإيطاليا ، وصقلية . وفى الأخيرة أذاع شيئاً من آرائه ، وبلغ ذلك ملكها الطاغية ، فقبض عليه ، وعرضه للبيع وكاد يعد من الأرقاء لولا أن افتداه بالمال بعض عارفيه هناك : فعاد إلى أثينا يدرُس الفلسفة ويعلمها . وقد اختار لذلك مكانا منعزلا فى إحدى جهات أثينا يعرف بملعب أكاديميس ، وقد أطلق عليه فيما بعد لفظ « أكاديمية » ، ولم يكن كسقراط يتنقل ليعلم الناس ولكنه لزم هذه المدرسة ، وقصده الناس يتعلمون منه ؛ ولم يغادر أثينا إلى صقلية إلا مرتين استدعاه فيهما ابن طاغيتها المذكور لما تولى الحكم عقب والده ، لياخذعنه فلسفته ويحقق آراءه فى الدولة ؛ ولكنه كان

بضيق بفلسفته ذرعاً ، وَيَهُمّ بأن يناله بالأذى فيفر أفلاطون إلى أثينا ، ويلزم الأكاديمِيّة التى لبث يبث فيها آراءه الفلسفية إلى أن مات عن ٨٢ سنة .

فلسفته

اطلع أفلاطون على آراء الفلاسفة السابقين والمعاصرين ، واستخلص من كل ذلك فكرة أضاف إليها آراءه الخاصة ، وكون بذلك فلسفته .

(ا) نظرية المُثُل : لم يقف أفلاطون عند الحد الذى وقف عنده سقراط ن أن المعرفة هى إدراك العقل للمعانى الكلية ؛ ولكنه قال إن تلك المعانى لكلية لها وجود خارجى مستقل عن ذهن الإنسان ، وعن المحسوسات ، وإن ذى يدركه العقل منها ليس إلا صورها . فيقول مثلا إن فى العالم شيئا موجوداً سمه الانسانية ، والإنسانية مثال صالح لأن ينطبق على كل إنسان ، وقد صاغ الله ن المادة أفرادا من الإنسان على هيئة هذا المثال . فأنت مثلا لك وجود جزئى سى هو شخصك ، ووجود عقلى هو إدراك العقل للصورة التى تنطبق عليك على غيرك ، ووجود خارجى مستقل عن هذين الوجودين ، هو المثال الذى اغ الله على هيئته شخصك وشخص غيرك من الناس : وعلى ذلك يكون لكل جود حسى مثال معنوى خارجى . وكل طائفة من المثل يمكن أن يجرد منها ال يكون أصلا لها ؛ فيكون من وراء المثل القريبة مُثُل أبعد منها تجريداً ، هذه المثل الأخيرة يمكن أن يجرد منها مُثل أعلى منها وهكذا حتى تنتهى المثل بعها إلى مثال واحد تندرج تحته جميع المثل . وهذا المثال هو الوجود المطلق كل الموجودات ؛ وهو الحقيقة الكاملة ، وهو مثال الخير . وهذا المثال قديم لى صادر عن الله صدور المعلول عن علته . وقد صاغ الله من المادة صوراً سية تطابق المثل التى تندرج تحت هذا المثال

(ب) رأيه فى الطبيعة : يقسم أفلاطون عالم الطبيعة (وهو عالم الظواهر) ل قسمين : جسمانى ، وهو عالم الحس ، ونفسانى . ويعتبر أن عالم الحس فى حالة ين الوجود والعدم ، لأنه لكونه على صورة المثل يكتسب صفة الوجود ، لكونه مكونا من مادة حكمها حكم العدم يعتبر فى حكم العدم . فالموجودات

الحسية فى نظره أنصاف حقائق . ثم يقول فى عالم النفس إن أول ما خلق الله عند صوغ المادة على هيئة المثل نفس صنع منها دائرتين ، جعل الأولى مدار الكواكب السيارة ، والثانية مدار النجوم ، ثم كون من المادة عناصر أربعة : الماء والهواء والنار والتراب ، وبنى من هذه العناصر مخلوقات السموات والأرض على جوانب النفس المذكورة وبذلك يفسر كل حركات العالم ، إذ يرجع كلا منها الى النفس .

والنفس الإنسانية من هذا القبيل هى سبب حركة الإنسان . ويقسمها ثلاثة أقسام : أعلاها مركزه الرأس ، وهو قسم التفكير ؛ وثانيها مركزه القلب ، وهو قسم العواطف النبيلة ، وثالثها مركزه البطن وهو قسم الشهوات البهيمية .

(حـ) رأيه فى الأخلاق : نظرية الأخلاق عند أفلاطون مبنية على رأيه فى النفس وأقسامها . فجعل لكل قسم فضيلة . ففضيلة الجزء العاقل منها تتحقق بالفلسفة (وذلك بمعرفة عالم المثل وارتباطه بعالم الحس) وبالتثقف بالعلوم والفنون . أما فضيلة الجزء القلبى منها فالشجاعة ؛ وتتحقق فضيلة القسم البطنى منها بالتمتع باللذائذ البريئة بحالة تتجلى فيها العفة وضبط النفس ، ومجموع هذه الفضائل ينشأ عنه فضيلة العدل .

(د) رأيه فى الدولة : يقيس أفلاطون الجماعة على الفرد ، فيقسمها ثلاثة أقسام : الطائفة الحاكمة ولا تكون إلا من الفلاسفة ؛ وطائفة القوة وتتألف من الجند والشرطة ، وطائفة العمل وهى سائر الشعب . ومتى صدق تعاون الأفراد جميعاً على خير الجماعة تحققت فضيلة العدل . فالعدل فى الفرد تعاون قواه النفسانية على جلب الخير له ؛ والعدل فى الدولة تعاون الأفراد على جلب الخير للجماعة .

مؤلفات أفلاطون

له مؤلفات يغلب على أكثرها أسلوب الحوار ، ككتاب الجمهورية وتمتاز بان عبارتها أدبية جميلة . وكان يعد الحوار قبل إلقائه ، وكثيرا ما كان يجعل بطل المحاورة سقراط ؛ فيجرى على لسانه آراء سقراط نفسه ويضيف إليها آراءه هو .

قد كانت كتابته الفلسفية مثلا طريفا فى الأدب اليونانى يمتزج فيه التفكير
عميق بالأدب الرائع

(٣) أرسططاليس

هو ثالث الفلاسفة اليونانيين البارزين ، وأعظم فلاسفة اليونان جميعاً ، حتى
د لقب بالمعلم الأول . ولم تنل أية فلسفة ما نالته فلسفته فى العالم الإسلامى فى
مر الدولة العباسية ، فقد دارت الفلسفة العربية على قطبها . وإنك إذا قرأت
سفة ابن سينا لا تشعر فى كثير منها إلا أنك تتلو فلسفة أرسطو . ولم ينل
سطو هذه المنزلة عفواً . فقد امتاز عن غيره بنضوج فى التفكير الفلسفى وابتكار
ض العلوم : كعلمى المنطق والحيوان ، وعلى الاجمال نقول : إن أرسطو لم يترك
حية من نواحى الحياة إلا كان لتفكيره فيها مجال ، وكان لها من تفكيره فائدة .
ليس أرسطو أثينياً ، ولكنه مقدونى ولد سنة ٣٨٤ ق . م . وكان أبوه طبيباً
ك مقدونية ، فنشأ فى البلاط الملكى . ومات أبوه وهو فى السابعة عشرة من
ره ، فأرسله ولى أمره إلى أثينا ، فلحق الأكاديمية الأفلاطونية ، ولزمها عشرين
ة يتلقى دروس أفلاطون إلى أن توفى أستاذه ، فرحل إلى آسيا الصغرى وأقام
بضع سنين تزوج فى خلالها ونسل ، ثم استدعاه فيلبس ملك مقدونيا لتربية
(الإسكندر الاكبر) فأقام بها إلى أن تولى الإسكندر الحكم بعد أبيه ، فعاد
أثينا وأسس مدرسته (اللوقيون) ومكث بها ثلاث عشرة سنة يدرس
لم حتى خرجت أثينا من الحكم المقدونى ، فاتهمه بعض أعدائه بالإلحاد فخشى
نة وفر من أثينا ، ولكنه لم يلبث أن أصيب بالطاعون ، فمات سنة ٣٢٢ ق . م

فلسفته :

(ا) رأيه فى أصل العالم : أنكر أرسطو ما رآه أفلاطون من إثبات موجودات
رجية مستقلة تسمى المثل . وقال : إن حقائق الأشياء ليست خارجة عنها ولكنها
ة فيها ، وليس لها وجود غير ذلك وإن كان ثمة وجود خارجى لها فليس ذلك
جود سوى إدراكنا لها بالعقل .

ويرى أرسطو كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، أن أساس العالم شيئان متصلان منذ الأزل ، لم يكونا منفصلين ثم اتصلا ، ولكنهما متصلان قديما ولن يزالا كذلك ؛ وهذان الشيئان هما : الهيولى (المادة) والصورة (وهى مجموع الصفات المختلفة من لون وخفة وحرارة وغير ذلك) فكل هذه الموجودات على اختلاف أنواعها من حيوان ونبات وجماد ليست إلا نتائج ائتلاف الهيولى بالصورة . وكل اختلاف بين الكائنات يرجع إلى اختلاف نسبة الصورة فيها لا إلى اختلاف فى الهيولى ، لأن الهيولى واحدة فى الجميع .

ويرى أن كل مخلوق يحاول أن يترقى باستمرار ، ومعنى الترقى هو التخلص من الهيولى ، والصيرورة إلى صورة مجردة . ولكن هذا فى نظره مستحيل ، إذ الصورة المجردة هى الله . ولن تصل المخلوقات الى مرتبة الصورة المجردة مهما حاولت ، فالله صورة مجردة لاصورة لمادة ، وأما الصورة الكونية فهى الصورة التى تتصل بالمادة ، والتى تشكلت بها المادة إلى أشكالها المختلفة وهى المخلوقات .

(ب) رأيه فى الطبيعة : يرى أن الموجودات أنواع بعضها أرقى من بعض بنظام تدريجى بحيث يبدأ بأحط الأنواع ، وهو ما غلبت هيولاه صورته ، وينتهى بأعلاها ، وهو ما غلبت صورته هيولاه . ولا يذهب إلى ما ذهب اليه (دارون) فى عصورنا هذه ، من أن الأنواع أصلها نوع واحد نشأ منه نوع ثان ، ثم نشأ من الثانى ثالث أرقى منه وهكذا ، لأن أرسطو يعتبر أن جميع الأنواع قديمة أزلية ، ولكن كلا منها قابل للترقى . لا إلى نوع آخر ، ولكن إلى حالة أسمى من سابقتها مع المحافظه على حقيقته ؛ أما سر هذا الترقى فى نظره فهو أن كل نوع يحاول أن يكتسب من الصورة أقصى ما يمكن كسبه ، وأن يتناءى عن الهيولى بأقصى ما يستطيع ، فإذا نجحت محاولاته ترقى ، وذلك كما نشاهده فى الإنسان . وبهذا المعنى يفسر أرسطو كل مافى الوجود من حركة ، فيرجعها إلى محاولة الصورة تشكيل الهيولى .

وقد خالف رأى أفلاطون فى تقسيمه النفس الإنسانية إلى أجزاء ، واعتبرها شيئاً واحداً لا يتجزأ ، وجعل من خصائصها صدور أعمال مختلفة عنها . وللنفس

عنده ملكات : الإدراك بالحواس ، والحس المشترك ، والمخيلة ، والحافظة ، والذاكرة ، والعقل . ومجموع هذه الملكات هو النفس .

ويرى أرسطو أن الأفلاك أرقى من الإنسان ومن سائر المخلوقات الأرضية ، لأن لها عقلا ، ولا يلحقها الفساد والموت .

(ج) رأيه فى الأخلاق : يرى أن الإنسان كالحيوان ، لا يفضله إلا بالعقل ؛ وبنى رأيه فى الفضيلة على هذين الاعتبارين ، ولذلك جعل للفضيله ركنين : ركن عقلى ، ويتحقق بالتفكير الفلسفى ، وركن حيوانى ، ويتحقق بإمتاع النفس بالتغذى والحس على شرط أن يكون ذلك طوعا لحكم العقل . وله فى الأخلاق نظرية (الأوساط) المشهورة .

(د) رأيه فى الدولة : لم يهتم بخلق مثل عال للدولة كما فعل أفلاطون ، ولكنه بعد أن قسم أنواع الحكومة إلى استبدادية وغيرها ، قال : إنه لا يعتبر أن أحدها خير من سائرها ، فلكل نوع منها ظروف تجعله أفضل من غيره .

(هـ) رأيه فى الفن : يجعل أرسطو المنزلة الأولى للفلسفة ، لأنها تبحث عن الحقائق الكلية من حيث هى كلية . ثم يضع الفن فى المرتبة الثانية لأنه يبحث فى الكلى من حيث تحققه فى أحد أجزائه ، ويجعل للتاريخ المرتبة الأخيرة لأنه يبحث فى الجزئى من حيث هو جزئى ، غير ناظر إلى الكلى الذى يشمله .

مؤلفاته :

ألف فى المنطق ، وعلم الحيوان . وهو مخترعهما ، وألف فى الأخلاق ، السياسة ، وما بعد الطبيعة ، والبلاغة ، والفن ، والفلك .

ولم يكن أرسطو سقراطى الطريقة ولا أفلاطونيها ؛ فلم يكن الحوار سبيله فى درسه ولا فى كتابته ؛ ولكن كان أسلوبه علمياً بحتاً ، لذلك لم تتجل فيه تلك الصبغة الأدبية التى ازدانت بها ديباجة النثر الأفلاطونى .

تنبيه : المراجع التى اعتمدت عليها فى الكلام عن النقطة الأولى ، وعن النقطة الخامسة هى :

١ — دائرة المعارف الإنجليزية

٢ — دائرة المعارف للأستاذ محمد فريد وجدى .

٣ — كتاب قادة الفكر للدكتور طه حسين بك

٤ — قصة الفلسفة اليونانية للأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود .

ط. طه عبد الفتاح

الحركات الفكرية فى الإسلام

بقلم حسنين حسن مخلوف

المدرس بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية

تكونت الأمم وسياسة الملك أهم ما يشغل بال الحكام ، ثم ما عدا السياسة من دين وفلسفة ومذاهب فى الدرجة الثانية بعد السياسة مالم تعترض فى سبيلها . فترعرعت مذاهب وتضاربت عقائد قبل الإسلام . فلما جاء الإسلام صار الدين وتصحيح العقائد وإرشاد الناس إلى سبل السعادة فى المنزلة الأولى .

وصار الإسلام يلهب الشعور مع العقول ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانتشر الإسلام فى أقطار الأرض كما تمد الشمس نورها فى الآفاق ، وآمن الناس باصول العقائد الإسلامية ، وتحرجوا أن يختلفوا إذا أشكل عليهم أمر فى القرآن اتباعا لقوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .

وروى أن النبى خرج على قوم يتراجعون فى القرآن فقال لهم مغضبا : « أى قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم . إن هذا الكتاب لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكنه يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به » .

فتحددت عقيدة الإسلام بكلام الله وهدى رسوله ، وتفويض الأمر إلى الله فيما اشتبه ، وعلى هذا الطريق سار السلف الصالح فى حياة النبى وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولما كان عماد الإسلام العقل والمنطق والنقاش مع كفار قريش والنصارى واليهود ودحض حجتهم فقد وسع الدين الإسلامى نطاق الفكر للمسلمين ، ومدهم

بثقافة واسعة استطاعوا بها أن يسوسوا الأمم سياسة حزم وعدل . ولو أن المسلمين حرصوا على وحدة صفوفهم التى كانت فى عهد النبى وأبى بكر وعمر وشطر كبير من خلافة عثمان ، واستمروا على ذلك نحو قرنين من الزمان لكان لهم شأن وصَوْلة فى هذا العصر غير ماهم عليه . ولكن الخلاف نجمت رءوسه ، وامتدت عروقه ، وكان مظهره السياسة ممزوجة بالدين ، لأن دعائم الإسلام قامت على الدين ، فحرى بكل سياسة تقوم على غيره أن ينفض عنها المسلمون

انقسم المسلمون أحزابا بعد مقتل عثمان ، فحزب يرى أن علياً أولى بالخلافة وهم الشيعة ، وحزب يرى أن معاوية هو الذى يحقق وحدة الأمة ويسوسها ، وهم بنو أمية . وحزب يرى أن أحق الناس بالخلافة أصلحهم لها ولو لم يكن عربياً ولا قرشياً وهم الخوارج ، وحزب يرى السلامة لدينه ألا يدخل فى هذا الخلاف وسموا فيما بعد المرجئة . واصطبغ الخلاف بالصبغة الدينية ، وصار لكل حزب أدلته ، إن لم يكن من القرآن فمن الحديث الشريف . وكل فريق يتحكم فى عقيدة خصمه وعمله ، ويذهب فى الخصومة إلى أبعد حدودها بالنظر فى دين خصمه : ألا يزال مع خلافه على الإسلام ؟ أطرد من رحمة الله بعد الخلاف فأصبح كافراً ؟ وهذا منتهى النكاية . فالخوارج أثاروا المسألة من ناحية من اتبع علياً بعد التحكيم أو اتبع معاوية ، أكافر هو أم مؤمن ؟

والأمويون يردون عليهم بأن إمامة معاوية صحيحة شرعا إذ أن النبى ترك الأمر من حين وفاته للمسلمين . فلم يشر عليهم برأى خاص ، وقد اتفق أهل الحل والعقد فى نظرهم على أن إمامة معاوية لاشية فيها ، وأن ظله يجب أن يمتد على الأرجاء الإسلامية . والشيعة يرون أن النبى نصّ على إمامة علىّ وذريته ، وأن الخلافة حق لهم إلى أن تقوم الساعة . واتخذ الخلاف على مر الزمان شكل عقائد تركزت وتفرعت ، وأصبح لكل فريق آراء خاصة فى معنى كثير من آيات القرآن ، ونسبوا إلى النبى مالم يقله فى تأييد نحلتهم ، وزاد الأمر تفاقما أن كثيراً ممن دخلوا فى الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة نشئوا على تعاليمها ، ولما أسلموا أخذوا يفكرون فى دينهم القديم ، ويلبسون مسائله لباس الإسلام

ظم التجاذب الفكرى فى العصر الأموى ، وصارت البحوث الدينية رياضة كرية ومثاراً للجدل وميدانا لنقائض الآراء .

ومنذ تبوّأ الأمويون عرش الخلافة بعد الفتن الطاحنة بدت منهم روح رى مخالفة لتلك الروح التى كانت لسلفهم ، فكانت حياتهم فى قصورهم حياة ف وبذخ إلا ما كان من أمر عمر بن عبد العزيز . وقد مكنهم من البقاء فى كم الفتوح الإسلامية الباهرة ، واستعانتهم فى تأييد سلطانهم بالدين . وقد نضهم الناس فى الخفاء خوفا من بطشهم حتى قال ابن عمر : « ما أجدنى آسَى ى شىء من أمر الدنيا إلا أنى لم أقاتل الفئة الباغية » وكان سعيد ابن المسيب ول : « ما أصلى صلاة إلا دعوت الله عليهم »

ولقد زار الحجاج بن يوسف ابن عُمَر السالف فى مرضه الذىمات فيه فلم نفت إليه ابن عمر ، فغضب الحجاج وقال : « إن هذا يزعم أنه يريد أن نأخذ لعهد الأول » . ولما اشتهر ظلم الخلفاء الأمويين وعمالهم وسفكوا الدماء بغير ساب أخذ المفكرون يتساءلون عن « الإيمان والعمل » وهل يكون إيمان ير عمل ؟ .

أما من كانوا على رأى السلف وجماعة المسلمين فرأيهم أن من آمن وعمل ـير ما شرع الله مؤمن فاسق ، على حين كان الخوارج يكفرونه ويقولون إن تكاب الآثام والمعاصى يخرج المرء من حظيرة الإسلام . وهناك الحزب تسامح الذى يرى أن الإيمان هو معرفة الله فحسب وليست الأعمال داخلة فيه ، أن مرتكبى المعاصى مؤمنون كاملون ؛ وكما لا تنفع مع الكفر طاعة لا تضر ع الإيمان معصية ، هو حزب المرجئة ، من الإرجاء وهو التأخير ، لأنهم ؤخرون الحكم على العاصين إلى يوم القيامة ، أومن الرجاء ، لأنهم يرجون لأهل لمعاصى الثواب . وفكرة الإرجاء والوقوف على الحياد جاءت فى أوائل الخلاف ؛ نى الطبقات الكبرى أن بريدة الأسلمى الصحابى حينما عرض عليه أمر علىّ وعثمان وطلحة والزبير قال : « اللهم اغفر لهم . قوم سبقت لهم مع الله سوابق ، ان يشأ يغفر لهم بما سبق فعل وإن شاء يعذبهم فعل . حسابهم على الله »

وظهرت فى وسط المعمعان الفكرى هذه الفرقة تسالم جميع الفرق : لا تكفر طائفة . ويدخل فى هذا الحكم بنو أمية فليسوا إذاً كفاراً ولا مشركين، وينتج من هذا أن موقفهم من الأمويين موقف تأييد سلبى إذ لم يحملوا السيوف معهم، وقد اشتهر من شعراء بنى أمية بالقول بالإرجاء ثابت بن قُطُنة ومن قوله:

المسلمون على الإسلام كلهم والمشركون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أنّ ذنبا بالغٌ أحدا مِ الناس شركا إذا ماوحّدوا الصمدا

بجانب هذه المذاهب نشأ مذهب زاد الطين بِلّة هو مذهب (الجَبْرِيّة) الذين يغالون فى نفى الاستطاعة عن العبد : يجعلونه كالريشة فى مَهابّ الريح ، أو كأغصان الشجرة . فليس الإنسان إرادة ولا اختيار ، ولا تصرف فيما وهب الله له من نعمة العقل ، فكيف يكون له مطمع فى ثواب أو خوف من عقاب !؟ وما قيمة الديانات ، وما فائدة الوعد والوعيد ؟

لقد ضل الناس بمذهب الجبر ، فخارت منهم الهمم ، وانتقضت العزائم ، وأغرق بعضهم فى الفجور ، فإذا سئل عما يفعل قال : إنه (مُسَيّر) إلى غير ذلك من الأعذار التى لا يقيم لها الشرع وزنا .

ومن الجبرية طائفة (الجَهميّة) أتباع جهم بن صفوان الفارسىّ الذى قتل فى أواخر الدولة الأمويه .

كانت هذه المذاهب تضطرب فى العراق ، إذ هو مهد المذاهب الفلسفية قبل الإسلام ، ومن أشهرها مذهب مانى ومزدك ، وقد سبق العراق البلاد الإسلامية إلى احتضان الخوارج ، ونقاش أرباب النحل ، وكانت الدولة الأموية مشغولة بسياستها عن رعاية العلم والعلماء ، وتوجيه الثقافة الفكرية وجهة يرضاها الإسلام الصحيح بدل هذه المحن التى امتحنت بها العقول ، ولكن الإسلام الصحيح يسير بنفسه على ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، ويوفق الله فى كل عصر من يخدم الدين ، فظهر فى هذا المعترك فريق كبير من أحبار المسلمين فهموا القرآن وحديث الرسول ، وأخذوا يهدون الناس إلى الخير فى أمور دينهم ودنياهم . وكان بنو أمية لا يرعون فى أهل العلم أو غيرهم إلا ولا ذمة إذا انتقدوا سياستهم ، وقد يطيحون برءوسهم .

رأى الحسن البصرى زعيم العلماء فى العصر الأموى ذلك ، فابتعد عن الحكام وتخصص فى نشر العلوم الإسلامية وتزييف آراء المبتدعين وذوى الأهواء ، فتصدّر لتعليم الناس فى مسجد البصرة ، ودارس مستمعيه فيما عرض من الآراء وامتحان ذلك على كتاب الله وسنة رسوله ، فتنوعت الأفكار ، ومن ضمن ما عنوا به بحث « الإيمان وعمل المؤمن »

قال الحسن : إن من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مؤمن . فإن عمل بأوامر الدين كمل إيمانه . وإن لم يعمل كان إيمانه ناقصاً ، واحتج لذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » وإنما يريد النبى الإيمان الكامل . فالحسن لم يؤخر العمل عن الاعتقاد كما زعمت (المرجئة) ، ولم يكفر العصاة كما رأى (الخوارج) . ولم يخل العبد من التبعة بدعوى أنه مجبر كما ادعت (الجبرية)

كان الحسن يقرر هذا المذهب ويرد على المخالفين بقوله : إن مرتكب الكبيرة مؤمن عاص يدخل الجنة يوم القيامة بعد أن يعذب فى النار على عصيانه ؛ فردّ عليه تلميذه واصل بن عطاء قائلا : إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، بل فى منزلة بين المنزلتين ؛ فطرده الحسن من مجلسه فاعتزله وجلس إليه شريكه فى الرأى عمرو بن عبيد فقيل لهما ولأتباعهما (المعتزلة) لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن .

عظم حزب المعتزلة ورأوا ما فشا فى الاسلام من مذاهب وخروج على حدود الدين ، فأرادوا أن يضيقوا الأمر على العصاة بالقول (بالمنزلة بين المنزلتين) وألا يوئسوهم كالخوارج ، ثم اتسع أمر المعتزلة بزيادة من انضم إليهم وحملوا راية الدفاع عن الإسلام والنقاش الحر . فكان لا بد لهم من دراسة الأديان الأخرى للرد عليها ، وأن يعرفوا آراء الفلاسفة المعروفة بالعراق فى العصر الأموى ليملكوا عليهم أقطار الجدل . فدرسوا ذلك ، ورأوا الجبرية تبث فى الناس سمومها والمرجئة تسالم الظلمة ، فحاربوهم جميعاً بما يفل سلاحهم بالاعتماد على العقل ، إذ أعطوا أنفسهم حرية واسعة فى فهم الدين والحكم على الأحداث

الجارية فى أيامهم ، وأباحوا لأنفسهم نقد الخلاف بين على ومعاوية وسياسة عثمان ، وكان الناس يأبون الخوض فيما شجر بين الصحابة ، ثم نقدوا معاوية وعمرو بن العاص ، ولم يروا رأى الحسن البصرى فى الابتعاد عن الحكام ، بل أوجبوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا ، وأعطوا العقل سلطة واسعة حتى فيما يختص بالله ، فأوجبوا على الله فعل الصلاح والأصلح ، ونسوا أنهم بذلك يصفون الله بانه مكره على فعل الخير ، وعلى هذا الأساس أوجبوا على الله أن يثيب الطائع ويعذب العاصى ، وهدموا مذهب الجبرية بقولهم : إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية بالقوة التى أودعها الله فيه . وعظم أمرهم اتساعاً بمجىء العصر العباسى وإطلاق العنان لحرية الفكر ، فاستفادوا من الدراسات الجديدة التى شملت العالم الإسلامى فى العصر العباسى .

ولنبحث قليلا فى الثقافة الفكرية الجديدة فى العصر العباسى ، ثم نعود إلى المعتزلة : لما قام بنو العباس لم يروا فى العرب من الأنصار مثل من وجدوه من الفرس الناقمين على بنى أمية ، فقامت الدولة على عواتقهم ، وزادت الثقة بالأعاجم ، فاستخدمهم الخلفاء والأمراء فى كل شىء ، فدخلت العناصر المختلفة فى تكوين الدولة ، وامتزجوا بالعرب بالتناسل ، وترتب على هذا الامتزاج شيوع عادات وأخلاق واعتقادات بسبب منح الأعاجم حرية فكرية واسعة ، أظهرت منهم فرق الشعوبية والزنادقة .

وسبب قيام حزب الشعوبية أن العجم عزّ عليهم وقد صاروا عماد الدولة العباسية أن يحتقرهم العرب ، وطالما صبروا على مضض ، فثاروا للرد عليهم بتأليف الرسائل والكتب فى ذلك ، وثار العرب وبعض العلماء من الفرس يردون على الشعوبية حفاظا للعرب ، وأن النبى الذى نزل عليه القرآن عربى ؛ فذمُّ العرب كارثة قد تتناول التعرض لهؤلاء الهداة الذين يدين لهم كل مسلم . وفى الحق أن العرب تتغلغل فى دمائهم العصبية لدرجة مثيرة للشعور ، وذلك ما حرص الإسلام أن يهدمه بتعاليمه القوية ، فأحيته السياسة فى العصر الأموى .

كان نافع بن جبير أحد بنى نوفل بن عبد مناف إذا مرت عليه الجنازة

سال عنها فإن قيل : قرشى ، قال : واقوماه ، وإن قيل عربى ،قال : وامادّتاه ، وإن قيل مولى أو أعجمى ، قال : اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت ، وتدع من شئت ! كانت بغداد حاضرة الدولة العباسية فى قلب العراق ، وكان زاخراً بالعلوم والآداب من قديم الزمان ، فورث العرب علمه وعلم الأمم التى عرفوها ، وهو خلاصة بحوث رجال الفلسفة والأدب والطب والرياضات والنجوم وغيرها من أقدم الأزمنة إلى أيامهم ، وجمع الخلفاء أشتات تلك العلوم بنقلها إلى اللسان العربى ، فترتب على ذلك امتزاج المدنيات المختلفة بالإسلام ، ونقل الأجانب مذاهبهم إلى اللسان العربى ، وكان فى الفلسفة مايعارض العقائد الإسلامية ، وفى المذاهب الفارسية القديمة ماهو إباحى وما يخالف فى أصوله القرآن ، فنشر الفرس آراءهم بين الناس ، وألفوا فى ذلك الكتب سراً وجهراً حتى تنبه إلى ذلك الخلفاء ، فعقدوا له المجالس ، وقتلوا كثيراً من الزنادقة . وممن قتل على الزندقة صالح ابن عبدالقدوس . قالوا : مات له ابن فمضى إليه أبو الهُذَيْل العَلاّف من شيوخ المعتزلة ، فرآه حزيناً فقال : لاأعرف لجزعك وجهاً إلا إذا كان الإنسان عندك كالزرع : لا حياة بعد الممات فقال : إنما أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك . قال أبو الهُذَيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه كان .

قال أبو الهذيل : فشك أنت فى موت ابنك . وافرض أنه لم يمت وإن كان قد مات ، وشك أيضاً فى أنه قرأ ذلك الكتاب وإن كان لم يقرأ .

وقال الجاحظ فى الزنادقة : « يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من روايتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، فيشغبون على القوى ، ويلبسون على الضعيف . ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد . وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا شىء من كتب (مانى) وغيره ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها » وقال أيضاً :

« الزنادقة لم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

وشاعت الزندقة فى طبقات الأدباء ، وظهرت فى أشعارهم آثارها .

واختلفت كلمة المسلمين من الناحية الاعتقادية ، وتضاعفت المذاهب الفكرية بإضافة المذاهب الجديدة إلى المذاهب التى ظهرت فى العصر الأموى . فالمذاهب إسلامية وأجنبية . فمن المذاهب التى عرفها الناس فى العصر العباسى مذهب مانى الفيلسوف الفارسى ، وخلاصته : أن نظام العالم قائم على النور وهو مصدر الخير ، والظلمة وهى مصدر الشر ، ويرى تناسخ الأرواح على الصور المختلفة ، ومن قوله :

« إن أرواح أهل الضلال إذا أرادت اللحاق بالنور الأعلى ردت إلى أسفل فتنتقل فى الحيوانات حتى تطهر ، ثم تلحق بالنور العالى » . ومذهب الدّهريين أن ليس فى الأرض دين أو ملة ، ويرون الإباحة ، فلا تفريق بين حلال وحرام ، ولا يتوقعون العقاب على الإساءة أو الثواب على الإحسان ، وأن الإنسان والسبع سيان ، وليس القبيح إلا ما خالف الهوى .

والذى أدّى إلى الزندقة إنما هو التمتع بالحرية المطلقة كما ذكرنا .

كان لا بد لهذا الانتقال من بداوة إلى حضارة من عواقب واضطراب خلقى واعتقادى ، عند ذلك بالطبع يقوم ذوو الغيرة على الأمة والدين بإزالة الزّيف ، ومقاومة الزيغ الذى يضر كيان الدولة . ويهدم الدين ، والدولة العباسية قائمة على الدين قبل كل شى .

فى ذلك الحين كانت الحركة العلمية قائمة على ساق وقدم فى حواضر الإسلام : فى مكة والمدينة وبغداد والبصرة والكوفة والفسطاط ودمشق ، وبخاصة مقر الخليفة بغداد ، وقد جعل بنو العباس هجيراهم تشجيع العلماء فجمعوا أحاديث الرسول عليه السلام ، وألفوا فى المغازى ، وفسروا القرآن ، وقاموا بإرشاد الناس إلى الدين الصحيح ، وتدوين مسائل الأحكام ليرجع إليها القضاة والمفتون ، فظهر الأئمة الأربعة : مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد ، واشتهر تخريجهم لمسائل الدين ، وشرحوا للناس القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وذاع صيتهم فى الأقطار الإسلامية ، وصار لكل واحد منهم شيعة وأنصار .

بجانب هذه المعسكرات معسكر قوى جداً عَضْبُ اللسان فصيح البيان جعل واجبه حماية الإسلام من زيغ الملحدين ، وتطهيره من آراء الفلاسفة المناقضة لأصول الإسلام ، هو حزب المعتزلة . كان لابد لهذا الحزب أن يدرس الفلسفة ويفهمها ليعرف كيف يرد على الملاحدة ، فتأثر بطريقتهم فى الجدل ، وألف التعمق الفلسفى فى آرائه فترك المنهج الفطرى الذى سار عليه المسلمون الأولون . وقد بينا أن المعتزلة نشئوا فى العصر الأموى وأتموا رسالتهم فى العصر العباسى ، وبينا أن علماء الصدر الأول نظروا فى الآيات القرآنية التى توهم التشبيه فآمنوا بها ، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث أو تأويل ، ولكن شذ عنهم قوم اتبعوا ماتشابه من الآيات ، فأثبتوا لله اليد والوجه والعين من نحو قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، « كل شىء هالك إلا وجهه » ، « ولتصنع على عينى » . فلما رأوا أنهم وقعوا فى التجسيم الصريح ، ومخالفة آيات التنزيه ، أرادوا الفرار من ذلك فقالوا : لله جسم لا كالأجسام ، فخالفوا المعقول . وذهب فريق إلى التشبيه فى الصفات فقالوا بالجهة والاستواء والصوت فانتهوا إلى التجسيم أيضاً . ثم قالوا له جهة ليست كالجهات ، وصوت لا كالأصوات . فجاء المعتزلة ونفوا عن الله صفات المعانى من العلم والقدرة والإرادة والحياة ، وعللوا ذلك بأنه لو ثبتت هذه الصفات لله للزم تعدد القديم ، كما نفوا السمع والبصر عنه تعالى لكونهما من عوارض الأجسام ، وقد ردّ عليهم الجارون على مذهب السلف بأن ثبوت صفات العلم والقدرة وغيرهما لا يستلزم تعدد القديم لكونها ليست عين الذات ولا غيرها ، وكذلك قالوا فى الاحتجاج لثبوت السمع والبصر إن الغرض إدراك المسموع والمبصر فقط . أما صفة الكلام فهى أعظم مسألة قام عليها الخلاف ، إذ نفى المعتزلة عن الله صفة الكلام لئلا يتعدد القديم كما ذكرنا ، وأهل السنة يثبتونها ، فترتب على ذلك أن قال المعتزلة : مادام الله لا يتصف بالكلام فالقرآن مخلوق ، لأن الله يخلق هذه الحروف فى جسم محدث يسمعه النبى ، وهذا هو الوحى عندهم ، فسمى المعتزلة بالمتكلمين من ذلك الوقت ، وقال المعتزلة أيضاً : ثبت بالبرهان أن الله ــ ذاته وصفاته ــ وحدة لا تقبل التجزئة ، ومحال أن يكون القرآن كلام الله على معنى أنه صفة من

صفاته ، لأن فى القرآن أمراً ونهياً ووعداً ووعيداً ، ومن المحال أن يكون الواحد متنوعا إلى خواص مختلفة بعضها متضاد كالأمر والنهى ، وأن القرآن حروف وكلمات وسور لها أول وآخر ، والكلام الأزلى لا يوصف بهذه الأوصاف .

أما السلف فوقفوا عند النص لا يقبلون التأويل . وأما المعتزلة فقد منحوا العقل كل ما يمكن من السلطة والبرهان فيما يتعلق بالله ، فتأولوا آيات القرآن كما هدتهم عقولهم . والسلف يرون أن العقل أضعف من ذلك . فلما أثار المعتزلة القول بخلق القرآن : قال الذين يتمسكون بقول السلف : القرآن كلام الله ، لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق

أما فريق الحنابلة فقد بالغوا فى التورع حتى قالوا : إن القرآن قديم بحروفه وأصواته وقالوا : قد تقرر الاتفاق على أن ما بين الدفتين كلام الله .

كان المأمون الخليفة العباسى فيلسوفا عالما يجلس للعلماء ، ويعد نفسه منهم ، فزين المعتزلة له أن يعلن رأيه بخلق القرآن ، وأن يحمل الناس بسلطة الحكومة على اتباعه ، فأنكر ذلك عليه الفقهاء ، واتهموه بالابتداع ، فلم يزدد إلا تمادياً ، وكان فى أول أمره بهذه القضية يعقد مجالس للمناظرة ويترك الناس أحراراً ، ويجلس فى حضرته زعماء المعتزلة : بشر المريسى وثمامة بن أشرس ، وأحمد بن أبى دواد ، ويناظرهم خصومهم أشد مناظرة . وسأنقل من كتاب (الحيدة) قليلا من هذا النقاش لأوضح صورة من مقابلة الناس هذه المحنة :

« قال عبدالعزيز بن يحيي الكنانى : اتصل بى وأنا بمكة ما قد أظهره بشر المريسى ببغداد من القول بخلق القرآن ، ودعائه الناس إلى موافقته ، وتشبيهه على أمير المؤمنين المأمون وعامة أوليائه . وما قد وقع فى الناس من المحنة ، والأخذ فى الدخول فى الكفر والضلالة ، وترهيب الناس وتخوفهم من مناظرته ، واستتار الناس فى بيوتهم ، وانقطاعهم عن الصلاة فى الجماعات وفى الجُمعات خوفاً على أنفسهم وأديانهم ، فأزعجنى وأقلقنى ، فخرجت من بلدى متوجهاً إلى ربى (عز وجل) حتى قدمت بغداد ففزعت إلى الله (عز وجل) أدعوه أسأله إرشادى ، ورأيت أن أعلن أمرى فى المسجد الجامع فى يوم الجمعة ، ومَنع العلماء أن يعقدوا للناس فى المسجد

إلا بشرا المريسى ومحمد بن الجهم ومن كان على مذهبهما ، وكل من أظهر المخالفة قتلوه سراً أو جهراً ، وأيقنت أنهم لا يحدثون علىّ حادثة ولا يعجلون على بقتل إلا بعد مناظرتى . صليت الجمعة فى مسجد الرصافة ، وناديت بأعلى صوتى مخاطباً ابنى ، وكنت قد أقمته بحيالى عند الأسطوانة الأخرى وقلت : يا بنى ، ما تقول فى القرآن ؟ قال ابنى : كلام الله مُنَزَّل غير مخلوق ، فلما سمع الناس هربوا من المسجد إلا اليسير ، فجاء أصحاب السلطان واحتملونى وابنى فأوقفونا بين يدى عمرو بن مسعدة ، فقال لى : أمجنون أنت ؟ قلت : لا ، قال : فموسوس أنت ؟ قلت : لا ، إنى والحمد لله صحيح العقل جيد الفهم . قال فمظلوم أنت ؟ قلت : لا . قال : مروا بهما سحبا إلى منزلى (قال عبد العزيز) فحملنا على أيدى الرجالة حتى صرنا بين يدى عمرو بن مسعدة وهو جالس فى صحن داره فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قلت : طلبت القربة إلى الله . قال : فهلا فعلت ذلك سراً من غير مخالفة لأمير المؤمنين ؟ ولكن أردت الشهرة والرياء لتأخذ أموال الناس . قلت : ما أردت إلا الوصول إلى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه ، ثم صرنا إلى دار أمير المؤمنين ، وبعد ذلك قال لى عمرو : إن أمير المؤمنين أمر (أطال الله بقاه) بإجابتك إلى ما سألت ، والجمع بين المناظرين وبينك يوم الاثنين الأدنى ، ويكون هو الحاكم بينكم ، (وقال عمرو) : أعطنا كفيلا حتى تحضر يوم الاثنين ، وليس بنا حاجة إلى حبسك ، فقلت له : أدام الله عزك ، أنا رجل غريب ، ولست أعرف فى هذا البلد أحداً ؛ فمن أين لى من يكفل بى خاصة مع إظهارى مقالتى ، ولو كان الخلق يعرفوننى لتبرءوا منى . فوكل من يكون معى وانصرف .

وفى يوم الاثنين قال عمرو بن مسعده : قد حرصت على خلاصك جهدى ، وأنت حريص على سفك دمك ! فقلت : معونة الله أعظم وألطف من أن ينسانى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ! فلما اجتمع الناس أذن لى بالدخول وقال لى الحاجب : استخر الله وقم وادخل ، وأخذ بيدى ورفع الستر وجعل أقوام أيديهم علىّ فى ظهرى وعلى رقبتى ، وجعلوا يتعادون بىّ ونظرنى المأمون وقال : خَلّوا عنه . فخلوا عنى فقلت : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال : وعليك السلام ، اُدن مني . فدنوت ، وقال قائل : يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قبح وجهه ، ثم آنسني المأمون وسألني عن نسبي فانتسبت له . ثم قال : ياعبدالعزيز ، قد اتصل بي ما كان منك وقيامك في المسجد الجامع ، وقولك إن القرآن كلام الله الخ ، بحضرة الخلق ، وقد جمعت المخالفين لك لتناظرهم بين يدي . ثم قال : يا بشر ، قم إلى عبد العزيز . فوثب بشر كالأسد يثب إلى الفريسة فانحط عليّ ، ووضع ركبتيه على فخذي الأيمن فكاد أن يحطمه ؛ فقلت : مهلا ؛ إن أمير المؤمنين لم يأمرك بقتلي ، وإنما أمرك بمناظرتي وإنصافي . فصاح المأمون : تنح عنه . قال المأمون : بأي شيء تناظر؟ قلت بنص القرآن بالتلاوة . قال تعالى حين ادعت اليهود تحريم أشياء : « فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » وقال الله عز وجل : « قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا » فإنما أمر الله نبيه بالتلاوة ، ولم يأمره بالتأويل .

فقلت يابشر : ماحجتك أن القرآن مخلوق ، وانظر أحدَّ سهم من كنانتك فارمني به . قال بشر : ياعبد العزيز ، القرآن شيء أم غير شيء ؟ فان قلت شيء أقررت أنه مخلوق ، إذ الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل ، وإن قلت ليس بشيء فقد كفرت ، لأنك تزعم أن حجة الله على خلقه ليس بشيء . فقلت لبشر : مارأيت أعجب منك ؛ تسألني وتجيب عن نفسك ! فقالوا المأمون : صدق عبد العزيز . فقلت لبشر : سألت عن القرآن شيء أم غير شيء ، فإن كنت تريد أنه شيء إثباتا للوجود ونفياً للعدم فنعم هو شيء ، وإن كنت تريد أن الشيء اسم له وأنه كالأشياء ، فلا . قال بشر : ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا أسمعه ؛ فقلت لبشر : وصفت نفسك بأقبح الصفات ، قال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » وقلت : إن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ومن صفاته ، فلم يَتَسَمَّ بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه . ولكنه دل على نفسه أنه شيء ؛ قال لرسوله : « قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم » فدل على نفسه أنه شيء لا كالأشياء ، وقال : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » فأخرج نفسه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر ، وعدد أسماءه في كتابه

ولم يتسم بالشىء ، فقلت كما قال الله ، وتأدبت بما أدبنى الله .

وهكذا استمرت المناظرة وعبد العزيز ينتصر ويهزم خصومه حتى انتهى المجلس بظفره ، فمنحه المأمون جائزة عظيمة ، ومع ذلك ظل المأمون يقول بخلق القرآن ، لأنه صار مذهب الحكومة وليس من السهل الرجوع عنه ، وظل الناس فى فتنة عظيمة ، ومن قول المامون : « لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق » كان المأمون فى الغزو ، فأرسل لحاكم بغداد أن يجمع العلماء ، وأن يستجوبهم ويكتب إليه بإجابتهم ، وممن سألهم الامام أحمد بن حنبل قال له : ما تقول فى القرآن ؟ قال هو كلام الله ، لا أزيد عليها ؛ فسأله فى قوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، مامعنى قوله : السميع البصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه .

فرفع إسحاق كلامهم إلى المأمون فغاظته هذه المحاولة ، وكتب إليه أن يعيد امتحانهم ، ومن لم يجبه أوثقه فى الحديد ، ثم مات المأمون وأوصى المعتصم بالمعتزلة وبالقيام على مذهبهم فى خلق القرآن ، وظل الحال كذلك فى عهد المعتصم والواثق ، وانتقلت المباحثة إلى السأم والملالة . وكان زعيم الدعاة إلى خلق القرآن أحمد بن أبى دواد ، وهو الذى حمل المأمون على أن ينضم إلى المعتزلة مع أن الحكمة كانت تقتضى أن تكون الحكومة على الحياد . دخل على ابن أبى دواد شيخ مقَيَّد ، فسأله عن قوله فى القرآن ، فقال له الشيخ : أنا أسالك قبل أن تسألنى : هذا الذى تقوله فى خلق القرآن ، شىء علمه رسول الله والصحابة أم جهلوه ؟ قال : بل علموه . قال : ودعوا إليه الناس كما دعوتهم أم سكتوا ؟ قال : بل سكتوا . قال : فهلا وسعك ما وسعهم ؟ فأمر بإطلاقه . وكان من أبطال المعتزلة فى العصر العباسى أبو الهذيل العلاف والنظام والجاحظ وثمامة بن أشرس ، وأبلوا بلاء حسناً فى دفع الشبه التى يدعيها الملاحدة على الإسلام زمنا طويلا ، وسار أتباعهم على نهجهم . وقد قدم الزمن على العلوم الدخيلة ، وألف العرب فى الفلسفة ، وصاروا أصحاب مذهب فيها ، فردوا على الفلاسفة ، ولكن الناس ظلوا نافرين من المعتزلة بسبب فتنة خلق القرآن وغيرها من مسائل الصفات ، ثم جرأتهم فى تأويل القرآن لا يتوقفون ولا يتحرجون إلى أن جاء أبو الحسن الأشعرى فى حدود سنة ٣٠٠ ه وكان قد دام على الاعتزال

أربعين سنة . فخرج على شيخه أبى على الجبائى المعتزلى وكان يناقشه فى مسألة وجوب الصلاح والأصلح على الله . فاعتلى منبر البصرة وقال : أيها الناس ، كنت أقول بخلق القرآن . وأن الله لا تراه الأبصار ، وان أفعال الشر أنا أفعلها . وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم . وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبى هذا . ورمى بأحد ما عليه من الثياب .

وتصدر للتدريس وأثبت الصفات وأدخل الأساليب المنطقية والفلسفية وطرق إقامة الأدلة على علم التوحيد ، فسمى أتباعه أهل السنة من ذلك الوقت ، ظلوا إلى يومنا هذا ، وقام مذهبه على أنقاض مذهب المعتزلة إذ كرههم الناس وأخذوا بهذا المذهب الجديد ، ثم جاء الغزالى فى القرن الخامس ورد على الفلاسفة فيما يناقض العقائد الدينية ، وانتفع الناس ولا يزالون ينتفعون بكتابه (إحياء علوم الدين) وغيره وجاء ابن تيمية فى القرن السابع الهجرى وكان حنبليا ، فنصر مذهب الحنابلة ورد على الفلاسفة ، وأعاد الناس إلى مذهب السلف فثارت عليه الحكومة القائمة ، حكومة المماليك بمصر والشام وحبسته إذ قال فى تفسير قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » « القول الفاصل ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، وأنه سميع بصير ؛ لا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التى لعلم المخلوقين ، فكذلك هو (سبحانه) فوق العرش . واعلم أنه ليس فى العقل الصحيح ، ولا فى النقل الصريح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلا

فقام الفقهاء عليه ، ونسبه المتكلمون إلى التجسيم ، ولم يبال ؛ فقد رد على الصوفية وغيرهم وكلما استطاع نشر مذهبه . وكان سيىء الظن بفلسفة اليونان وفلسفة المسلمين . وكان يعتبر الفلاسفة مخالفين فى آرائهم لصريح العقل حتى فى غير المسائل الدينية . وظلت الأفكار تتضارب فى العالم الاسلامى . وكان يمثل هذه الروح القوية القديمة بعض علماء الأزهر إلى وقت قريب . أما الآن فالمفكرون المسلمون عيال على مفكرى أوربا ما لم يصلوا حديثهم بقديمهم ويتخذوا الفلسفة سبيلا إلى الرقى العقلى ممزوجة بالفلسفة الاسلامية ، كما فعل أسلافهم فاستفادوا وأفادوا .

حسنين حسن مخلوف

أثر علماء الكلام المسلمين
فى الأدب العربى

بقلم محمد أحمد برانق
المدرس بمدرسة الناصرية

مقدمة :

الإسلام دين الفطرة ، أوحى الله به على لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم) إلى قوم تغلب عليهم البداوة ، وتسودهم الأمية ، لم يعرفوا أقيسة المناطقة ، ولا تعمق الفلاسفة ؛ فليس لهم قانون جامع ، ولا قواعد وضعية تقيس الأشياء بأسبابها ومسبباتها . وعللها ومعلولاتها ؛ فكان طبيعياً أن يأخذهم الله إلى الهداية بظاهر الأمر فى شىء من الرفق ، ويبين لهم الرشد من الغى بأيسر الأدلة التى تتفق وفطرتهم ، فكان أن دخلوا فى دين الله أفواجا .

علت كلمة الإسلام ، وعم نوره الجزيرة كلها منبعثاً من منار القرآن الحكيم والحديث الشريف ، ثم تعداها إلى الفرس والروم فدخل فيه كثير منهم ؛ إما مخلصين ، وإما طامعين مرائين ؛ وهم قوم ذوو سلطان قوى ، وعز موروث ، وأهل دين قديم ، وكتب شريعة ، وعقائد كان لها فى أنفسهم شأن كبير .

أخذ كثير من زعمائهم الطامعين أو الكائدين يزنون بين ماضيهم وحاضرهم ، ودينهم الجديد والدين القديم الذى كان عليه آباؤهم وأجدادهم ، وينظرون إلى خضوعهم لسلطان العرب ، ويتحسرون على ما كان لهم من عز وسلطان ، فثارت فى نفوس كثير منهم الحفائظ ، وامتلأت صدور بعضهم غلا وحقدا ؛ ولكن أنى لهم أن يتنفسوا ويتخلصوا مما وقر فى نفوسهم ، ومما نفسوا على سادتهم العرب زعمائهم ، وأصحاب الحكومة عليهم ، وذوى الرأى النافذ فيهم ؟

***

مات النبي (صلى الله عليه وسلم) فانقسم المسلمون أحزابا ، وهوَى كلُّ حزب فى صحابى يعضده ، ويرى أنه أحق من غيره بالقيام على أمر المسلمين وولايتهم ، ولم يتعد هذا خلافهم ؛ فلم يختلفوا فى أمر يتصل بالعقيدة إذ ذاك ، ولم يتخذوا الخلافة سلما للمحاجة فى أمور إلهية ، ولكنها أسباب ساذجة ترجع فى الغالب إلى الاعتزاز بالعصبية .

كان الخلاف قائما دائما ، وإن ظهر فى بعض السنين اختفى فى بعضها الآخر إلى حين ، وكلما اشتعلت نار الحجاج تفتقت الأذهان عن أسباب جديدة ، وحاول أصحابها تدعيمها بالبراهين الجدلية ، واتسع المجال أمامهم للخروج من دائرة النقل . والاسترشاد بأدلة العقل .

ساعد القوم على ذلك من عاشروهم من مسلمى الفرس والروم ، وبخاصة من ألِفوا منهم القراع والمناظرة ، وتوفّروا كثيرا على مدارسة كتب السابقين من علمائهم ، وهى كتب نظرية ، إمامُهم فيها العقل ، وقائدهم الدليل ؛ ولم يكن الخلفاء أنفسهم بمنجاة من التورط فى الدخول فى نقاش المذهبِيين ، ولاسيما بعض خلفاء بنى العباس : كالمأمون والمعتصم والواثق ، فعقدوا مجالس المحاضرة والمناظرة ، وانتصروا للمعتزلة . وفرضوا مذهبهم على الجمهور فرضا ، واستحلوا فى سبيل ذلك سفك الدماء على ما سيأتى بعد .

علم الكلام [1]

ظل المسلمون متفقين على رأى واحد فى أبواب : العدل ، والتوحيد ، والوعد ، والوعيد ، وفى سائر أصول الدين ؛ وما اختلفوا أول الأمر إلا فى أمور فقهية

---

(١) سمى هذا العلم علم الكلام لأمور : إما لما فيه من المناظرة على البدع وهى كلام صرف ، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم فى إثبات الكلام النفسى (مقدمة ابن خلدون) . وأما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ؛ وإما لأنه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر ، وأبدل بالمنطق الكلام للتفرقة بينهما (رسالة الشيخ محمد عبده) . وإما لأن أظهر مسألة

فرعية اكميراث الجد مع الإخوة . والأخوات مع الأب والأم ؛ وهذه مسائل لا تجر إلى تضليل أو تفسيق . اختلفوا بعد ذلك فى أمر عثمان حتى قتلوه ، ثم فى شأن على وأصحاب الجمل ، وفى شأن معاوية وأهل صفين ، وفى التحكيم .

وما زال الخلاف يقوى ويزيد حتى تكلم القدرية فى القدر ، وأنكروا إضافة الخير والشر إليه ، وعلى رأسهم معبد الجهنى (١) ، ويونس الأسوارى ، وغيلان الدمشقى (٢) ، والجعد بن درهم ؛ فتبرأ منهم متأخرو الصحابة : كعبد الله ابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأبى هريرة ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعقبة بن عامر الجهنى ؛ وتشددوا فى التبرؤ منهم ، حتى إنهم أوصوا المسلمين أن يعاملوهم معاملة المشركين ؛ فلا يسلمون عليهم ، ولا يصلون على موتاهم ؛ وكان ذلك أيام الحسن البصرى (٣) ؛ وقد اعتزل الحسنَ والقدريةَ فى ذلك الوقت أيضا واصلُ بن عطاء (٤) الغزال بعد أن قال : إن مرتكب الجريمة ليس بمؤمن ولا كافر ، وأثبت له منزلة بين المنزلتين ، وأصر على ذلك حتى طرده الحسن من

تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هى مسألة الكلام فسمى النوع باسمها ؛ وإما لمقابلتهم الفلاسفة فى تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق والمنطق والكلام مترادفان (الملل والنحل للشهرستانى) . ولعل الأستاذ الامام نقل رأى الشهرستانى الأخير ، كما يتضح ذلك من الموازنة .

(١) تلميذ الحسن البصرى ، وكان قدريا ، ثم صار إمام المعتزلة بعد واصل

(٢) من أصحاب الحسن البصرى فى الفقه ، وأتباعه يسمون الغيلانية ؛ كان قبطيا قدريا وكان أول من تكلم فى القدر ، ودعا إليه بعد معبد الجهنى . صلبه هشام بن عبد الملك بباب دمشق ، وقيل إن ذلك كان بدعوة من عمر بن عبد العزيز

(٣) هو الحسن بن يسار من سادات التابعين ، كان فصيحا بليغا زاهدا ورعا جميلا ؛ تكلم فى شىء من القدر ، ثم رجع عنه وأنكر عليه ، ولد فى خلافة عمر (رضى الله عنه) ومات سنة ١١٠ ه

(٤) هو واصل بن عطاء المعروف بالغزال ، ولم يحترف الغزالة ، ولكنه كان يلزم الغزالين ، وكان ألثغ بالراء فتجنبها فى كلامه مع كثرة خطبه وطولها ، وكثير منها مشهور مذكور فى كتب الأدب ، وضرب به المثل كثيرا فى ذلك . أخذ الفقه عن الحسن البصرى . ولد سنة ٨٠ ه ومات سنة ١٣١ ه

مجلسه فاعتزله ؛ وبذلك كان واصل رأس المعتزلة (١)

كانت هذه الاختلافات الكثيرة سبباً في نشوء علم الكلام ، وعرفوه بانه « علم باحث عن ذات الله تعالى وصفاته والنبوة والمعاد على قانون الإسلام » (٢) ص ٢٧ مفتاح السعادة ج ٢

وعلم الكلام إنما ظهر بشكله العلمي الذي يشمل مسائل نظرية ، وقضايا منطقية ، زمن خلفاء العباسية : هارون الرشيد ، والمأمون ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل - لأنه وإن كانت هناك مسائل خلاف ومناقشات دينية زمن الأمويين -

(١) يقال إن الذي سماهم معتزلة هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري الأكمه ، كان تابعياً وعالما كبيراً ، وكان يدور البصرة أعلاها وأسفلها من غير قائد . دخل مسجد البصرة فاذا بعمرو بن عبيد ونفر معه ، فأقبل عليهم وهو يظن أنها حلقة الحسن البصري ، فلما عرف أنها ليست هي قال : إنما هؤلاء المعتزلة ، وقام عنهم ، فسموا بذلك من يومئذ (٣٢ ، و٣٣ مفتاح السعادة ج ٢)

(٢) وعرفوه أيضا بأنه « علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ورفع الشبه عنها » ص ٢٠ مفتاح السعادة ج ٢ . من ذلك نعلم أن علم الكلام أو علم التوحيد يبحث في أمور ثلاثة : الأول : ذات الله وصفاته ، الثاني : النبوة ، الثالث : المعاد . وقد عرفه المرحوم الشيخ محمد عبده بأنه « علم يبحث عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من الصفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب اليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم » رسالة التوحيد ص ٤ . فهو لم يذكر أنه يبحث في المعاد صراحة ، وإن كان ذلك مفهوما ضمنا ، لأننا لا نبحث عن ذات الله وصفاته ، ولا عن الأنبياء ، وما يجب عليهم ، وما يجوز لهم ، وما يستحيل في حقهم - إلا رغبة في الوصول إلى نور الهدى يضيء لنا يوم المعاد

وقد رأى ابن خلدون أنه « علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » مقدمة ابن خلدون . فأدخل في تعريفه أنه من موضوع علم الكلام الرد على المبتدعة والمنحرفين ، وهذا مفهوم أيضا من التعاريف السابقة ، لأن الانتصار لشيء يستلزم الاحتجاج له ، والرد على من يخالفه ؛ والرد على المخالف إنما يكون بمحاولة إبطال ما يدعيه

فإن خلفاءهم ما كان يعنيهم ذلك الأمر إلى حد بعيد ، فسكتوا على كثرة الخلاف والنزاع سكوت المستفيد ، فلم يزجروا أهل البدعة والضلال ، ولم يقفوا الناس عند حد محدود تذهب عنده الأهواء ، ص١٩ كتاب التوحيد للشيخ حسين والى .
نعم ، إن عبد الملك بن مروان قتل معبد الجهنى . وإن هشام بن عبد الملك قتل غيلان الدمشقى ، وواليه على العراق خالد بن عبد الله القسرى قتل الجعد بن درهم وإن عمر بن عبدالعزيز تشدد فى وضع خطة للأحاديث تقلل من غلو الوضاعين فإن هذا القليل كان لا يمكن أن يقف التيار الجارف الذى نشأ من تعدد الفرق ، وكثرة المبادى واختلاف الآراء .

***

تعددت الفرق وكان منها الخوارج . والقدرية . والمعتزلة ، والمرجئة ، والنجارية ، والجهمية ، والبكرية ، وغير ذلك [1] ؛ وانقسمت كل فرقة إلى طوائف استمر الجدل بينها حتى صارت كل فرقة منها تكفر الأخرى ، وكان أقوى هذه الفرق وأشدها المعتزلة الذين قال عنهم أبو حنيفة رضى الله عنه : « لم يكن من طبقات أهل الأهواء أحد أحذق جدلا من المعتزلة » (ص ٢٤ مفتاح السعادة ج ٢) .
ولذلك كان مبدأ شيوع الكلام بأيديهم ؛ وساعدهم على ذلك ما ترجم من الكتب اليونانية والفارسية زمن خلفاء بنى العباس الأولين ، وبخاصة المأمون بن هرون الرشيد . فإنه نظر فيها مع من نظر ، ولزمه أحمد بن أبى دواد شيخ المعتزلة فى عصره ، وأفتى بنظرية « خلق القرآن » وما زال به يحسنها عنده حتى قبلها ، وقال بها ، ودعا إليها ، وعذب من عارض فى أن القرآن مخلوق ، واستقدم العلماء من الأمصار وأرهبهم . فكان كثير منهم يوافقه خوف العذاب : لأنه كان يسألهم والسيف فى يمينه يتهددهم به ، وكان من هؤلاء يحيى بن معين ، ومن الذين لم يفزعهم إصلات السيوف أحمد بن نصر الخزاعى فقتل ، وأحمد بن حنبل وقد لقى من العنت والإرهاق زمن المعتصم ما كاد يكون سببا فى تلف نفسه [2] ، وممن صبروا

---

(١) ارجع إلى كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم لمؤلفه عبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

(٢) ارجع إلى نكبة أحمد بن حنبل فى كتب : الطبرى ، وابن الأثير ، وحياة الحيوان للدميرى ج ١ ، ومفتاح السعادة ج ٢

أيضا فى هذه المحنة أحمد بن نصر الخزاعى [١] وقد ضرب عنقه الواثق، ومحمد ابن نوح بن ميمون وقد مات فى فتنة المأمون، ونعيم بن حماد [٢] .

وظلت فتنة خلق القرآن قائمة بين المسلمين نحو ستة عشر عاما (٢١٨ — ٢٣٤ هـ) حيث رفعها المتوكل، ونهى عن القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى عماله، فاستروح الناس نسيم الراحة، ودعوا للمتوكل بالخير [٣] .

ومبنى مذهب المعتزلة على خمس عقائد يردون بها على من خالفهم من القدرية وهى : (١) وحدة الإله المخالف لجميع الحوادث (٢) عدله فى عباده وأنه لا يرضى لهم الكفر والفساد، وأنهم يفعلون أفعالهم بقدرة لهم خلقها فيهم يميزون بها الخير من الشر (٣) صدق وعده ووعيده (٤) كون مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المؤمن والكافر (٥) وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

***

أما مذهب أهل السنة الذى عليه أكثر المسلمين فى عصرنا فإنه شاع فى حدود الثلثمائة على يد رجلين : أحدهما أبو منصور محمد الماتريدى [٤] بخراسان،

(١) وقد علقت فى أذنه رقعة مكتوب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم، هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبد الله الامام هرون وهو الواثق بالله أمير المؤمنين إلى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه فأبى إلا المعاندة، فجعله الله فى النار .

(٢) مفتاح السعادة ص ٤٥ ج ٢

(٣) قيل : إن أول رفع هذه الفتنة كان فى زمن الواثق، وذلك أنه أتى بشيخ مقيد، فقال له ابن دواد : يا شيخ، ماتقول فى خلق القرآن ؟ . قال : هذا الذى تقول، شىء علمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى (رضى الله عنهم) أو جهلوه ؟ . فقال : بل علموه، فقال الشيخ : فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا ؟ . قال : بل سكتوا، فقال الشيخ : فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت ؟ ! . فسكت ابن أبى دواد، وأعجب الواثق كلام الشيخ، وأمر بإطلاق سبيله، وقام الواثق وهو يقول : فهلا وسعك ماوسعهم ! ويكرر هذه الكلمة . إلا أن رفع الفتنة كلها كان بيد المتوكل .

(٤) هو أبو منصور محمد بن محمد بن منصور الماتريدى، إمام حنفى سنى، وله مؤلفات كثيرة : منها كتاب التوحيد، وكتاب المقالات، وكتاب تأويلات القرآن، وكتاب الجدل . . . الخ مات سنة ٣٣٣ هـ

والثانى أبو الحسن الأشعرى البصرى [١] بالعراق، وقد انتشر مذهبه، واقتفى أثره من بعده تلاميذه. ومن أشهر رجال هذه الطريقة: ابن مجاهد. وأبو بكر الباقلانى، وإمام الحرمين أبو المعالى، والغزالى، وابن الخطيب، والفخر الرازى.

وهو مذهب وسط بين المعتزلة والفرق الإسلامية الأخرى.

***

وقد ألف العلماء على اختلاف آرائهم، وتباين مذاهبهم - كتبا كثيرة فى علوم الكلام، ينتصر فيها كل واحد لمذهبه، يحسنه ويزينه، ويدعو إلى اعتناقه، ويدفع عنه كل ما يوجه إليه من نقد، ويحاول أن يظهره للناس كأنه خير كله، وكأن ماعداه شر كله. ومن هذه الكتب: قواعد العقائد والتجريد لنصير الدين الطوسى، وقد شرح التجريد وعلق عليه ناس كثيرون. ومنها الطوالع للبيضاوى ونهاية العقول والمحصل للرازى. وأبكار الأفكار الآمدى. والمقاصد وشرحه لسعد الدين التفتازانى، وتهافت الفلاسفة للغزالى، وغير ذلك كثير.

علم الكلام والفلسفة

جاء الإمام أبو الحسن الأشعرى بطريق وسط لا غلو فيه ولا إبهام، وكثر أتباعه وتلاميذه حتى كان القاضى أبو بكر الباقلانى الذى تصدر لزعامة الطريقة الأشعرية، وهذبها، ونحا فى البحث نحوا جديدا. فوضع المقدمات العقلية ليتدرج منها إلى إثبات ما يريد، وكانت طريقته هذه فناً نظرياً جمل فى نظر الباحثين، إلا أن هذا النوع من البحث جعل علم الكلام يلتبس على الناس بعلم الفلسفة

(١) هو أبو الحسن الأشعرى، كان أول أمره جبائيا معتزلا، واستمر على ذلك أربعين سنة، احتجب بعدها فى بيته خمسة عشر يوما، ثم خرج إلى الجامع، وصعد المنبر، وقال: أيها الناس، إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة، ولم يترجح عندى شىء على شىء. فاستهديت الله تعالى، فهدانى إلى اعتقاد ما أودعت فى كتبى هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبى هذا. وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب التى ألفها فى مذاهب أهل السنة. ولد سنة ٢٦٠ هـ. ومات سنة ٣٢٤ هـ

الذى كانوا يعتقدون أنه مناف للشريعة جملة ، فجاء إمام الحرمين أبو المعالى [١] وأملى فى هذه الطريقة كتباً اتخذها الناس إماما لعقائدهم .

والواقع أن كلا من علم الكلام وعلم الفلسفة يبحث فى الكائنات ، ولكن لكل غاية ؛ فالأول : يريد أن يصل من البحث فى الكائنات إلى الاستدلال على وجود الله وصفاته ، والثانى ينظر إلى الجسم من حيث هو متحرك أو ساكن أو غير ذلك ، فهو نظر فى الوجود المطلق ، لا نظر إلى خالق هذا الوجود

لذلك جاء بعض المتأخرين : كالبيضاوى ، والغزالى [٢] ، وفخر الدين الرازى [٣] ومزجوا الكلام بالفلسفة ، وأخرجوا منهما علما واحدا لا يمكن فيه التمييز بينهما .

علم الكلام والأدب العربى

كان علم الكلام أعظم العلوم المستحدثة فى الملة أثراً فى الأدب العربى ، فتأثيره فى اللغة من حيث ألفاظها وأساليبها ومعانيها وأخيلتها ـ أقوى من تأثير الفلسفة والمنطق وغيرهما من العلوم الدخيلة ، ولعل ذلك راجع إلى أن علم الكلام يتصل بالعقائد اتصالا مباشراً ، فهو موضع عناية جميع طبقات الأمة ، يهتم به الكتاب والشعراء ، كما يهتم به العظماء والدهماء ، ويحاول كل منهم أن يتصل بهذا العلم ورجاله بالقدر الذى تهيئه له مواهبه ، ويقف من علمائه موقفاً قريباً أو بعيداً ، فيؤمن بقول هذا وينتصر له جهده ، ويخالف نظرية ذلك ويحاول إدحاضها ما استقامت له الحجة ، وطاوعته القريحة ، وواتته

---

(١) إمام الشافعية فى زمانه ، كان عالما بالفقه وأصوله ، خبيرا بفنون الأدب . مات سنة ٤٧٨ هـ بنيسابور (راجع وفيات الأعيان ج ١)

(٢) حجة الإسلام زين الدين أبو حامد الغزالى . نشأ بطوس من أعمال خراسان ومات سنة ٥٠٥ هـ أستاذ إمام الحرمين ، نبغ فى الفقه والكلام وعلوم الدين والفلسفة وهو أول من خلق الكلام فى الفلسفة ، واتبعه العلماء من بعده حتى ظنوا أنه لا فرق بين الفلسفة وعلم الكلام

(٣) هو محمد فخر الدين الرازى الشافعى ، تعلم العلم ، وبرع فى فنون كثيرة ، تولى الوعظ بالعربية والفارسية ونبغ فى الفلك والفلسفة . وله مصنفات كثيرة بالعربية والفارسية . مات بهراة سنة ٦٠٦ هـ (راجع مقدمة تفسيره الذى طبع حديثا . ووفيات الأعيان ج ١)

المعارف، بعكس الفلسفة والمنطق وغيرهما من العلوم الدخيلة، فإنها لا تعنى إلا الخاصة.

وأنا أورد هنا أنواعا مختلفة من التأثير الذى ظهر واضحا فى اللغة بعد أن عرف المسلمون علم الكلام، وبخاصة زمن العباسيين.

أولا:

أثر علم الكلام فى لغة التصنيف والأدب ولغة التخاطب أيضا، بإيجاده ألفاظا مستعملة فى حقائق عرفية واصطلاحية لم تألفها اللغة العربية من قبل فى هذه المعانى التى استعملت فيها، وصارت تدل عليها، وذلك مثل:

«الواجب» بمعنى الثابت وجوده بلا ابتداء ولا انتهاء، والذى لا يؤثر فيه غيره، ويسمى أيضا «واجب الوجود»، ومثل: «الممكن أو الجائز» و«المستحيل أو المحال». وهذه الألفاظ ذاعت فاستعملها الناس حتى العامة منهم فى معانيها أو فى قريب من معانيها من غير ملاحظة أنها كانت اصطلاحات خاصة، وما كانت العرب تعرفها بمثل هذه المعانى ومثل: «القدم» بمعنى عدم الأولية، و«البقاء» بمعنى عدم النهاية. ومثل: «الحدوث والحادث» بمعنى ضد القدم والقديم. ومثل: «القيام بالنفس»، و«صفات نفسية»، و«صفات معان»، و«وصفات معنوية»، و«وحدة الذات»، و«وحدة الصفات»، و«الأزل»، و«ما لا يزال»، و«العلة والمعلول»، و«السبب والمسبب»، و«التشبيه»، و«الحلول»، و«التناسخ»، و«الإرجاء»، و«القدرية»، و«المجبرة»، و... الخ الخ

ولم تجر هذه الألفاظ فى دوائر الجدل الكلامى فحسب، بل إنها تعدتها إلى الأدب، فجرت على ألسنة الشعراء، وذكروها فى قصائدهم: قال أبو العتاهية (١)

---

(١) هو أبو اسحاق اسماعيل الجرار بن القاسم الحجام، العنزى ولاء، الحجازى مولدا، الكوفى نشأة، اللبق الحصيف، كان مطبوع الشعر، غزير البحر، لطيف المعانى سهل الألفاظ، كثير الافتنان، قليل التكلف، كثير الساقط والمرذول. أكثر شعره فى الزهد والحكم والأمثال. اتصل بالخليفة المهدى، فحضر ناديه ونال بره وجوائزه وله أخبار مع الهادى والرشيد والمأمون. تزهد زمن الرشيد فحبس، وكان مجبراً بخيلا جداً مات سنة ٢٠٠ ﻫ فى بغداد (راجع مقدمة ديوانه طبع الآباء اليسوعيين وتاريخ ابن خلكان ص ٧١ ج ١)

والله يقضى فى الأمور بعلمه والمرء يُحمد مرة ويلام
والخلق يَـقْدُم بعضه بعضا ، يقو د الخالقَ منه إلى البلى القَدَّام
كل يدور على البقاء مؤملا وعلى الفنـــاء تديره الأيام
ولدائم الملكوت رب لم يزل مَلِكا تَقَطّع دونه الأوهـــام
والناس يبتدعون في أهوائهم بدعا فقد قعدوا هناك وقاموا
وتَخَيّرَ الشبهات من لم يَنْهَهَ عنهن تسليم ولا استسلام
ما كل شىء كان أو هو كائن إلا وقد جفت به الأقلام
فالحمـــد لله الذى هو دائم أبداً وليس لمـــا سواه دوام
والحمد لله الذى لجـــلاله ولحلمه تتصاغر الأحلام
والحمد لله الذى هو لم يزل لا تستقل بعلمه الأفهام (١)

فالكلمات : يقضى ، البلى ، البقاء ، الفناء ، دائم الملكوت ، الشبهات ، تسليم واستسلام ، كان وكائن ، دائم أبداً ـ كلمات فنية ، لها تراكيبها واستعمالاتها عند علماء الكلام ، كثيرة الدوران على ألسنتهم . وأنت تراها قد اتخذ كل منها فى هذا الشعر مكانا مقبولا مستساغا ، وما كان يتهيأ لشاعر قبل شيوع علم الكلام أن يجمع مثل هذه الألفاظ بما تدل عليه من معان لغوية أو عرفية فى عشرة أبيات .

وقد وضع علماء الكلام هذه الكلمات لأن اللغة لم يكن فيها ألفاظ تدل على المعانى الحديثة التى أصبحت تدل عليها ، وما كان ذلك بدعا فى صناعة الكلام ، وإنما هى سنة سار عليها العرب عند ما يواجهون شيئاً جديداً لم يكن مألوفا عندهم من قبل . فإن ألفاظ : الصلاة والزكاة والحج والركوع والسجود ـ دلت على معانيها الاصطلاحية بدل معانيها اللغوية الوضعية ، وإن كان بين المعنيين نسب . ومصطلحات العلوم كالعروض والنحو ـ حدثت فى اللغة عند حدوث تلك العلوم فيها ؛ فقد وضع الخليل بن أحمد أسماء البحور والزحافات والعلل وغيرها مما يتصل بعلمى العروض والقافية ، ولم تكن العرب تتعارف وضعه

(١) ديوان أبى العتاهية طبعة الآباء اليسوعيين ص ٢٤٥

من قبل . وكذلك وضع النحاة أسماء كثيرة شتى ، لم يضعها العرب لما وضعها له النحاة ، فكان كذلك الحال فى علم الكلام ، بل المتكلمون أحوج إلى وضع الكلمات التى تنضبط معها حدود نقاشهم وجدلهم . قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٦ رواية عن بشر بن المعتمر ما نصه :

« ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات فإن كان الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه إن عبر عن شىء من صناعة الكلام ، واصفاً ، أو مجيباً ، أو سائلا ـ كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحن ، وبها أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء . وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم ، فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع . ولذلك قالوا : العرض ، والجوهر ، وأيس ، وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشى ، وذكروا الهَذيّة والهُوِيّة والماهية ، وأشباه ذلك » .

من ذلك تعلم أنهم وضعوا كلمات فنقلوا بعضها من معناه الأصلى إلى معناه الاصطلاحى ، واشتقوا البعض الآخر من أصل كان مستعملا .

قال الجاحظ : « وإنما جازت هذه الألفاظ فى صناعة الكلام ، حين عجزت الأسماء عن اتساع المعانى ، وقد تحسن أيضاً ألفاظ المتكلمين فى مثل شعر أبى نواس (١) ، وفى كل ما قالوه على جهة التظرف والتملح ، كقول

(١) هو أبو الحسن بن هانىء ، الشاعر المتفنن ، الجاد الماجن ، فارسى الأصل ، خراسانى المولد ، بصرى النشأة ؛ تلميذ والبة الخليع ، مدح الرشيد والأمين ؛ أدى به مجونه إلى السجن . مات فى بغداد سنة ١٩٩ هـ . وكان ظريف المحضر ، لطيف المعشر ، خفيف الظل ، كثير الدعابة ، فصيح اللسان ، عالما بالشعر واللغة والأخبار ؛ افتن فى مطالع القصيد ، وحول الغزل إلى المذكر ، ووصف الخمر بما لم يصفها به أحد قبله .

أبى نواس:

وذاتِ خدٍّ مورَّدْ قوهِيّة المتجرَّد (١)
تأمل العين منهـــا محاسنا ليس تنفد
فبعضها قد « تناهى » وبعضهـــا « يتولد »
والحسن فى كل عضو منها معـــاد مردد

وكقوله:

يا عاقد القلب منى هلا تذكرت حلا
تركت قلبى قليلا من القليل أقلا
يكاد لا « يتجزا » أقل فى اللفظ من لا

وكقول العباس بن الأحنف:

إذا أردت سلواً كان ناصركم قلبى، وما أنا من قلبى بمنتصر
فأكثِروا أو أقلوا من إساءتكم فكل ذلك محمول على « القدر »

ومن أجل هذين البيتين كان أبو الهذيل العلاف يبغضه ويلعنه ـ الأغانى ج ٨ ص ٣٥٥.

ثانياً:

أثر علم الكلام فى إيجاد التعريفات والحدود المنضبطة فى لغة التصنيف كما فى لغة الفقه، وأصول الفقه، بل إنه تعدى ذلك إلى لغة النحو أيضاً، وامتاز الفراء (٢) من الكوفيين بأنه من أول من طبق علوم الكلام والفلسفة

(١) قوهية المتجرد: بيضاء الجسم بضنه حتى لتكاد تشبه المقانع القوهية، المنسوبة إلى قوهستان.

(٢) هو أبو زكريا يحي بن زياد الديلمى، ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هـ تتلمذ للرؤاس ويونس والكسائى، وأخذ عن الأعراب؛ نظر فى علوم الطبيعة والنجوم، وأخبار العرب وأشعارها. كان معتزليا يحب النظر فى علم الكلام فأثر ذلك فى نظام تفكيره فى وضع كتاب الحدود. أدب ولد المأمون وألف كتابا أيه معان للقرآن وهو مخطوط، وأعرف أن بعض الجهات المعنية بإحياء الكتب القديمة بدأت فى طبعه (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان ج ١)

على النحو ، فسمى كتابه الذى ألفه فى دار الخلافة بأمر الخليفة المأمون بكتاب « الحدود » ، وكان النحويون من قبل لا يعنون بالتعريفات الدقيقة التى يسميها العلماء « الجامعة المانعة » ، وإن من يقرأ كتاب سيبويه[١] يتبين صدق ذلك .

ثالثاً :

كان علم الكلام سببا فى اتساع الميدان أمام الشعراء ، فالذى كان يعتنق مذهبا من مذاهب المتكلمين من ذوى البصر بالشعر ، والقدرة على قرضه ، كان يتخذ من لسانه وقريضه سيفاً يدفع به عن مذهبه ، ويذود من يهجمون عليه ، ويحاول أن ينشر بين الناس مبادىء الفرقة التى ينتمى إليها ويحبها . فأبو العتاهية مثلا كان جبرياً [٢] ، ولذلك ضمن كثيراً من شعره مبادىء الجبرية ، اقرأ قوله :

ألا طال ما حال الزمان وبدلا　　وقصر آمال الأنام وطولا
أرى الناس فى الدنيا معافى ومبتلى　　ومازال حكم الله فى الأرض مرسلا
مضى فى جميع الناس سابقُ علمه　　وفصّله من حيثُ شاء ووصّلا
ولسنا على حلو القضاء ومره　　نرى حَكَما فينا من الله أعدلا
بَلاَ خلقه بالخير والشر فتنةً　　ليُرغب مما فى يديه ويُسألا
ولم يبغ إلا أن يَبوء بفضله　　علينا ، وإلا أن نتوب فيقبلا
هو الأحد القيوم من بعد خلقه　　وما زال فى دَيْمُومة الملك أولا
وما خلق الإنسانَ إلا لغاية　　ولم يترك الإنسان فى الأرض مهملا
كفى عبرةً أنى وأنك يا أخى　　نصَرّف تصريفاً لطيفاً ونبتلى
كأنا وقد صرنا حديثاً لغيرنا　　نخاض كما خضنا الحديث لمن خلا

(١) هو أبو بشر عمرو بن عثمان ، إمام البصريين ، فارسى الأصل ، بصرى النشأة ، لازم الخليل بن أحمد . ألف كتابه فى النحو ، وذاع صيته . وفد على البرامكة ، وناظر الكسائى ، فى مجلس يحيى بن خالد . مات فى العقد الخامس من عمره سنة ١٧٧ هـ . (راجع بغية الوعاة للسيوطى)

(٢) الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب . والجبرية أصناف ليس مقامو ضع الكلام عنها ـ راجع الملل والنحل المطبوع على هامش المفصل ص ١٠٨ ج ١

توهمت قوما قد خلَوْا فكأنهم باجمعهم كانوا خيالا تخيلا
ولست بابقى منهمو فى ديارهم ولكن لى فيها كتابا مؤجلا
وما الناس إلا ميت وابن ميت تأجل حىّ منهمو أو تعجلا
ولا تحسبن الله يخلف وعده بما كان أوصى المرسلين وأرسلا
هو الموت يا ابن الموت والبعثُ بعده فمن بين مبعوث مُخِفًّا ومُثقَلا
ومن بين مسحوب على حُرّ وجهه ومن بين من يأتى أغرّ مُحَجَّلا (١)

فقد ضمن أبو العتاهية شعره هذا مبادىء الجبرية ، ونسب فيه كل شىء إلى الله تعالى فهو الذى خلقنا ، وهو الذى بلانا بالخير والشر فتنة لنا ، ونحن ليس لنا فعل ، ولا قدرة على الفعل .

ومن ذلك أيضا ما رواه صاحب الأغانى أن ثابت قطنة (٢) جالس قوماً من الشراة (٣) وقوما من المرجئة (٤) كانوا يجتمعون فيتجادلون بخراسان . فقال

---

(١) ديوان أبى العتاهية طبعة الآباء اليسوعيين ص ٢١١ وهذا النوع من الشعر كثير جداً فى ديوان أبى العتاهية ، ولزوميات المعرى .

(٢) هو أبو العلاء ثابت بن كعب ، شاعر فارس شجاع ، عاش فى زمن بنى أمية وصحب يزيد بن المهلب ، وكان يوليه أعمال الثغور ، فيحمد فيها مكانه لكفايته وشجاعته (راجع الأغانى ج١٣ ص٥٠)

(٣) الشراة هم الخوارج ، ويقال لهم المحكمة أيضا ، واختلفوا فى أول من تشرى منهم ، فقيل : عروة بن حدير ، وقيل : يزيد بن عاصم ، وقيل رجل ربعى (راجع الفرق بين الفرق ص٥٦ . و ج١ من الملل والنحل ص ١٥٧)

(٤) قال الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل ج ١ ص١٨٦ : الإرجاء على معنيين : أحدهما التاخير ، قالوا أرجه وأخاه ، أى أمهله وأخره ، والثانى إعطاء الرجاء ، أما إطلاق إسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ؛ لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد ، وأما بالمعنى الثانى فظاهر ، فإنهم كانوا يقولون : لاتضر مع الإيمان معصية كما لاينفع مع الكفر طاعة ، وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة ، فلا يقضى عليه بحكم مافى الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار ، فعلى هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان ، وقيل : الارجاء تأخير على (رضى الله عنه) عن

بقول المرجئة وأحبه . فلما اجتمعوا بعد ذلك أنشدهم قصيدة قالها فى الإرجاء :

يا هند إنى أظن العيش قد نفدا ... ولا أرى الأمر إلا مدبرا نكدا
إنى رهينة يوم لست سابقه ... إلا يكن يومنا هذا فقد أفدا
بايعت ربى بيعا إن وفيت به ... جاورت قتلى كراما جاوروا أحُدا
يا هند فاستمعى لى : إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن صار أو عندا
والمسلمون على الإسلام كلهمو ... والمشركون استووا فى دينهم قِدَدا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا ... م الناس شركا إذا ما وحّدوا الصمدا
لا نسفك الدمَ إلا أن يراد بنا ... سفك الدماء طريقا واحدا جددا
من يتق الله فى الدنيا فإن له ... أجرَ التقىِّ إذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له ... رد وما يقض من شىء يكن رشدا
كل الخوارج مخط فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما على وعثمان فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب ، وقد شهدا ... شق العصا ، وبعين الله ما شهدا
يجزَى على وعثمان بسعيهما ... ولست أدرى بحق أية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفردا (١)

ضمن ثابت قطنة قصيدته مبادىء الإرجاء ، وهى مع ذلك فى باب الشعر قصيدة جميلة ، وعند ماتقدم الزمن بعلم الكلام وعلمائه ، ونظروا فى علوم الفلسفة والمنطق ، وكان لهذين العلمين شأن كبير فى وضع الأقيسة ، واستنباط النظريات كما قدمنا ، واختلط الكلام بالفلسفة ، وصار كثير من الناس لا يفرقون بينهما ـ أثر ذلك فى الأدب تأثيرا كبيرا ، ونظم الشعراء قصائدهم ، وضمنوها كثيراً من

الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة ، فعلى هذا المرجئة والشيعة فرقتان متقابلتان . (راجع كتاب الفرق بين الفرق ص١٩٠ ، وكتاب الفصل لابن حزم ج ٢ ص١١٢)

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥٠ طبعة الساسى

نظريات علم الكلام ممزوجة بالفلسفة الصوفية . اقرأ قول شهاب الدين السهروردى (١) وهو يجود بنفسه

قل لأصحاب رأونى ميتا فبكوني ـ إذ رأوني ـ حزنا :
لا تظنونى بأنى ميت ليس ذا الميت ـ واللهِ ـ أنا
أنا عصفور وهـذا قفصى طرت عنه فتخلى رهنا
فاخلعوا الأنفس عن أجسادنا ترَوُنّ الحق حقا بيَنا
لا ترُعكم سكرة الموت ، فما هى إلا انتقال من هنا
عنصر الأرواح فيها واحـد وكذا الأجسام جسم عمنا
ما أرى نفسىَ إلا أنتمو واعتقادى أنكم أنتم أنا
فمتى ما كان خـيرا فلنا ومتى ما كان شرا فبنا
فارحمونى ترحموا أنفسكم واعلموا أنكمُ فى إثرنا
من رآنى فليقوى نفسه إنمـا الدنيا على قرن الفنا
وعليكم من كلامى جمـلة فسلام الله مدح وثنا (٢)

ومن ذلك أيضاً ما قاله سديد الدين بن رقيقة (٣)

يانفس جـدى وادأبى وتمسكى بعرا الهدى وعرا الموانع فافصمى

---

(١) هو أبو حفص عمر ، كان حكيما فيلسوفاً فقيها ، فصيح العبارة ، بز مناظريه ، وأربى على مباحثيه . اتصل بالسلطان الظاهر فى الشام ، وكان مكيناً عنده ، فحقد عليه العلماء وكفروه وأوغروا صدر صلاح الدين منه ، فكتب إلى ابنه بحلب فى شأنه فترك منفرداً فى مكان حتى مات صبرا سنة ٥٨٦ ﻫ راجع ترجمته فى طبقات الأطباء ج ٢ ، ووفيات الأعيان ج ٢

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ١٧٠ ج ٢

(٣) هو أبو الثناء محمود بن عمر الشيبانى ، ويعرف بابن رقيقة ، كان طبيباً أديبا شاعراً حكيما رجازا ، وكان عالما بالنجوم والكيمياء ، متقدما فى النحو واللغة . اتصل بالملوك والأمراء ، وعالجهم فنفعهم بطبه ، لأنه كان له من حسن التأنى فى معرفة الأمراض ومداواتها الشىء الكثير . مات سنة ٦٣٥ ﻫ بالقاهرة

لاتهملى يانفس ذاتك إن فى نسيانها نسيان ربك فاعلمى
وعليك بالتفكير فى آلائه لِتبَوَّئى جناته وتنَعَّمى
وتيممى نهج الهداية إنه منج وعن نقم الضلالة أحجمى
لاترتضى الدنيا الدنية موطنا تعلَّي على رتب السوارى الأنجم
وتعُاينى مالا رأت عين ولا أذن وعت ، فإليه جدى تغنمي
وتشاهدى ما ليس يدرك كنهه بالفكر أو يتوهم المتوهم
قدس يجل بأن يَحُلّ جنابَه يا نفس إلا كلُّ شهم أيهم
وهو المنزه أن يكون مركبا من رابع أو ثالث أو توأم

رابعا :

كان لكل فرقة من فرق علم الكلام شعراء ينفحون عنها ، ويمدحون زعماءها ، وينتصرون لهم ، ويهجون نظراءهم من علماء الفرق الأخرى ؛ لأن الشاعر يؤثر بشعره ما لا يؤثر زعيم المذهب الكلامى : فهذا عماده الخيال ، والأسر باستمالة العاطفة ؛ وذاك عماده الجدل والنقاش العقلى ، والنظريات القائمة على أسباب ومسببات ، وعلل ومعلولات ، فكان هذا أساس التناظر بين كثير من الشعراء ، كما كان سبب التناظر بين كثير من العلماء والمؤلفين

لولا التنافس فى الدنيا لما وضعت كتب التناظر : لا المغنى ولا العُمَد(١)

من ذلك أن كثير عزة والسيد الحميرى كانا شاعرى الكيسانية ، الداعيين إلى مذهبها القائل بإمامة محمد بن الحنفية ، وأنه لم يمت ، وفى ذلك يقول كثير :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على ، والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء

(١) البيت للمعرى . وقال شارح لزوم ما لا يلزم : العمد: اسم كتاب لعبدالجبار القاضى من رؤساء المعتزلة ، وكذلك المغنى اسم كتاب

تغيب لا يُرى فيهم زماناً برضوى عنده عسل وماء (١)

ومما رد به الشعراء مذاهب غيرهم ماقاله صفوان الأنصارى يهجو بشار بن برد، ويرد على الكاملية وهم أتباع رجل رافضى يعرف بأبى كامل ، وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة على ، وكفر على بتركه قتالهم ، وكان يلزمه قتالهم ، وهم يعتقدون رجعة الأموات إلى الدنيا ، ويفضلون النار على الأرض :

زعمتَ بأن النار أكرم عنصرا وفى الأرض تحيا فى الحجارة والزند
ويخلق فى أرحامها وأرومها أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفى القعر من لج البحار منافع من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد

واستمر يذكر فضل الأرض على النار فى كلام طويل ثم قال :

فذلك تدبير ونفع وحكمة وأوضح برهان على الواحد الفرد
فيابن حليف اللؤم والشؤم والعمى وأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجو أبا بكر وتخلع بعده علياً وتعزو كل ذاك إلى برد
كأنك غضبان على الدين كله وطالب ذحل لا يبيت على حقد
تُواثب أقماراً وأنت مشوه وأقرب خلق الله من نسب القرد (٢)

من ذلك تعلم أن شعراء الفرق كانوا كثيراً ما يتلاحون ويتهاجون ، ولم يكن ذلك مقصوراً على شعراء الزمن الواحد ، بل كان الشاعر يرد على قول شاعر آخر ، وبينهما فى الزمن أجيال ، فكثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ ه حين يقول فى رفضه .

برئت إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنينا

يجيبه رداً عليه عبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ ه ، أى بعد كثير بأكثر من ثلاثة قرون بقوله .

برئت من الإله بغض قوم بهم أحيا الإلهُ المؤمنينا

(١) الفرق بين الفرق صفحة ٢٨

(٢) الفرق بين الفرق صفحة ٣٩ ، والبيان والتبيين ص ٣٩ ج ١

وما ضر ابن أورى منك بغض ... وبغض البر دين الكافرينا
أبو بكر به جذلى إمام ... على رغم الروافض أجمعينا
وفاروق الورى عمر بحق ... يقال له أمير المؤمنينا

ومن ذلك ماهجا به شاعر الإمامية (١) فرقة الزيدية (٢)

يأيها الزيدية المهملة ... إمامكم ذا آفة مرسلة
أنتِ ضماث الحق تبالكم ... غصتم فأخرجتم لنا جندله

فأجابه شاعر الزيدية بقوله :

إمامنا منتصب قائم ... لا كالذى يطلب بالغرْبلة
كل إمام لايُرى جهرة ... ليس يساوى عندنا خردلة

وقد أجاب الفريقين أحد شعراء السنية (٣) فقال :

يأيها الرافضة المبِطلة ... دعواكم من أصلها مبَطلة
إمامكم إن غاب فى ظلمة ... فاستدركوا الغائب بالمشعلة
أو كان مغموراً بأغماركم ... فاستخرجوا المغمور بالغربلة
لكن إمام الحق فى قولنا ... من سنة أو آية منزلة
وفيهما للمهتدى مقنع ... كفى بهذين لنا منزلة

وقد يتعرض الشاعر أيا كان لصاحب المذهب ويهجوه ويعيره مذهبه ، كما فعل العباس بن الأحنف (٤) مع أبى الهذيل ، فإنه قال يهجوه ـ وما سمع للعباس هجاء غير هذين البيتين :

---

(١) هم القائلون بإمامة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) بعد النبى (صلى الله عليه وسلم) نصاً ظاهراً ، ويقيناً صادقاً من غير تعريض بالوصف ، بل إشارة إليه بالعين (الملل والنحل ج ١ ص ٢١٨)

(٢) هم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على ، ساقوا الإمامة فى أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوت إمامة فى غيرهم (ج ١ الملل والنحل ص ٢٠٧)

(٣) أتباع أبى الحسن الأشعرى

(٤) هو العباس بن الأحنف من بنى عدى بن حنيفة ، شاعر مطبوع عباسى

يامن يكذب أخبار الرسول، لقد أخطأت فى كل ماتأتى وما تذر
كذبت بالقدر الجارى عليك، فقد أتاك منى بما لا تشتهى القدر

وقد يسجل الشاعر بشعره مايجرى من الجدل بين بعض المتكلمين وبعض كالذى قيل : إن أبا حنيفة سأل يوما : ممن المعصية ؟ فنظر إليه المسئول وقال : اجلس حتى أخبرك . فجلس، فقال : إن المعصية لابد أن تكون من العبد، أو من ربه ، أو منهما جميعا ؛ فإن كانت من الله فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده ويأخذه بما لم يفعله ، وإن كانت منهما فهو شريكه والقوى أولى بإنصاف عبده الضعيف، وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر، وإليه توجه النهى، وله حق العقاب والثواب، ووجبت الجنة والنار .

هذا المعنى سجله أحد الشعراء فقال :

لم تخلُ أفعالنا التي نذم بها إحدى ثلاث خلال حين نأتيها
إما تفرد بارينا بصنعتها فيسقط اللوم عنا حين ننشيها
أو كان يَشركنا فيها فيلحقه ماسوف يلحقنا من لائم فيها
أو لم يكن لإلهى فى جنايتها ذنب، فما الذنب إلا ذنب جانيها (١)

خامسا :

كان زعماء الفرق، ومن يلون أمرها من بعدهم . من بلغاء الملة، وفصحاء رجال الدولة، ملكوا ناصية اللغة . وحذقوا فنون الادب، وتصرف كثير منهم فى فنون الشعر، أو هز أعواد المنابر، أو ملك الزمام فى حلق الدرس، أو تبوأ المنصة فى مجالس المناظرة، وكثيرا ما كان يحدث ذلك أمام الخلفاء أو الولاة ؛ فأثر ذلك كله فى اللغة .

وحسبك أن يكون من زعماء الفرق الحسن البصرى، وواصل بن عطاء،

غزل شريف عفيف ، ظريف اللسان، حسن المذهب، فى ديباجته رونق وماء، وفى معانيه عذوبة ولطف، وهو وإن كان غزير الفكر، واسع الكلام - فإنه لم يكثر التصرف فى غير الغزل، فلم يكن هجاء، ولا مادحا (الأغانى ج ٨ ص ٣٥٢)

(١) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٠٥

وأبو الهذيل العلاف ، وإبراهيم النظام ، وبشر بن المعتمر ، والجاحظ ، وأحمد ابن أبى دواد ، وثمامة بن أشرس ، وأبو الحسن الاشعرى ؛ وآثار هؤلاء فى كتب الأدب مذكورة مشهورة ؛ وحسبك أيضا ماخلفه لنارجال الخوارج[1] من الخطب والقصائد التى خلدت مع العربية .

من يتهيا له مثل ما تهيأ للحسن البصرى حين تلا قوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال . . » الآية ، فإنه قال :

إن قوما غنوا فى المطارف العتاق ، والعمائم الرقاق ، يطلبون الإمارات ، ويضيعون الأمانات ؛ فيعرضون للبلاء وهم منه فى عافية ، حتى إذا أخافوا مَن فوقهم من أهل العفة ، وظلموا من تحتهم من أهل الذمة ـ أهزلوا دينهم ، وأسمنوا براذينهم ، ووسعوا دورهم ، وضيقوا قبورهم ؛ ألم ترهم قد جددوا الثياب ، وأخلقوا الدين ! تبكى عين أحدهم على شماله ، ويأكل من غير ماله ؛ طعامه غصب ، وخدمته سخرة ؛ يدعو بحلو بعد حامض ، وبحار بعد بارد ، ورطب بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكظة تجشأ من البشم ثم قال : يا جارية ، هاتى حاطوما ، يعنى هاضوما يهضم الطعام . يا أحمق ، لا والله لن تهضم إلا دينك . أين جارك ! أين يتيمك ! أين مسكينك ! أين ما أوصاك الله به ! [2]

هذا كلام جرى على لسان الحسن البصرى حين تلا هذه الآية ، جرى لسانه بالآيات البينات ، والمواعظ البالغات ، وما ظنك بصاحب هذا المقول يوم يجرده للجدل والمناظرة

إنه وأصحابه من فصحاء الدولة ، وبلغاء الملة ، ذوو محل لطيف فى نفوس خاصة الأتباع وعامتهم ، حاجوا على علم غزير ، وأدب بارع ، فانبثق من أدبهم شعاع أنار ظلمات الشبه بما فيه من أسر فزادت اللغة ثروة ، وعلا الأدب منارا

ومن الذين جمعوا إلى رياسة الفرق الخطابة والشعر الفضل بن عيسى الرقاشى

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ص ٣٨٠ ومابعدها ج ١ ؛ وأخبار الخوارج تملأ كتب التاريخ والأدب وليس المقام هنا الاستقصاء

(٢) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٠٨

وابن صديقة ، والضحاك بن قيس الشيبانى ، وعمران بن حطان الخارجى ، وكان مع تقدمه فى الشعر والخطابة عالماً ومفتياً ؛ وحبيب بن حدرة الهلالى ، وأبو عبيدة الإباضى

ومن كبار خطباء الخوارج يحى بن المختار المشهور بأبى حمزة الخارجى ، وكان إباضياً

صعد يوما منبر مكة متوكئا على قوس له عربية ، وخطب خطبة بليغة ، استعرض فيها الخلفاء واحداً بعد واحد ، مبديا رأيه فى كل منهم ، بحسب عقيدة فرقته ، ثم عقب بخلفاء بنى أمية وأخذ يلعنهم إلا عمر بن عبد العزيز ، وذكرهم بأقبح العبارات وأفحشها ، مما كان لا يتورع عنه أكثر أهل الجدل فى عصره ، فهو يلعن ويكفر ويفسق ، ويفوه باشنع مما نراه بين الجدلين السياسيين وغير السياسيين فى زماننا ، ثم أخذ يخاطب أهل الحجاز يتهددهم ويتوعدهم ، ويفخر بأصحابه فقال :

« يأهل الحجاز ؛ أتعيروننى بأصحابى ، وتزعمون أنهم شباب ؟ وهل كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا شبابا ، أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم . شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم فى جوف الله منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار ؛ قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت — استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير

طال ما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ؛ وكم من كف زالت عن معصمها طال ما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله ،

وبعد أن ختم أبو حمزة خطبته على هذا النحو قال : أوه أوه أوه . ثم بكى ثم نزل .

فإذا كان هذا الكلام قد أبكى صاحبه فما ظنك بسامعه ! إنه ليبكى ويبكى ، ونحن نقرؤه اليوم ونقرأ كثيراً غيره من كلام زعماء الفرق الكلامية فيفعل فى نفوسنا مثلما فعل فى نفوسهم ، ويسيل شئوننا كما كان يجرى شئونهم .

وإن لى عودة قريبة إلى هذا الموضوع إن شاء الله بعد ذلك الإجمال، بتقسيمه إلى ثلاث شعب : الشعبة الأولى أثر علم الكلام فى الشعر ، والشعبة الثانية أثر علم الكلام فى الخطابة ، والشعبة الثالثة أثر علم الكلام فى التدوين والتصنيف . ليكون مجال القول والاستقصاء أوسع ، والله الهادى إلى الصواب .

محمد أحمد برانق

رسم الكلمات العربيـــة

الصعوبة التى يلاقيها النشء فى ضبط النطق

حديث لوزير سابق

حضرة صاحب العزة الدكتور محمد بهى الدين بركات بك هو من وزراء المعارف السابقين وله شغف بالتجديد وبالبحث فى كثير من النواحي العلمية والاجتماعية المفيدة . وقد أذاع حديثه الآتى ، وهو فى موضوع له باللغة العربية وتدريسها صلة وثيقة . وقد جالت فيه أقلام بعض الكتاب فى أوقات متفرقة ، ونشرت مجلة المجمع اللغوى بعض الاقتراحات فى ناحية منه . ولكن البحث لم يستق ولم توضع له الأسس التى تخرجه إلى حيز العمل .

ويقيننا ان هذا الحديث سيثير البحث في هذه المشكلة من جميع نواحيها ، والصحيفة ترقب من الكتاب والباحثين أن يدلوا بآرائهم فى هذا الموضوع لنشرها فيها استعدادا للمناقشة وتمحيص الفكرة حتى نصل إلى رأي حاسم يكون من ورائه الخير للغة وللمتعلمين إن شاء الله . (التحرير)

إلى الآباء
إلى الأمهات
إلى المعلمين
إلى المجمع اللغوى
إلى الحكومة المصرية
إلى جميع من يهمهم نشر التعليم والثقافة فى البلاد المصرية خاصة ، والعربية عامة ، أوجه كلمتى

منذ نحو ثلاثين عاماً ، وكنت إذ ذاك أدرس الحقوق ، قرأت لقاسم أمين كلمات أعجبت بها أشد الإعجاب ، وكلمات لم أدرك مغزاها تماماً ، ومن هذا القسم الأخير قوله :

« فى اللغات الأجنبية يقرأ الإنسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فيجب أن يفهم الإنسان ليقرأ »

وقفت عند تلك الكلمة مقدراً أنه مبالغ فى طلبه تسهيل القراءة والكتابة

ولكنى لم أكن أدرك حينذاك أنى سأغير رأيى بعد نحو عشرين عاما ، وسأرجع إلى رأى قاسم وأرى من كلمته مبدأ يجب أن يكون أساساً لعمل جديد هام ؛ ذلك أنى كنت في ذلك الوقت متأثراً بالجو المدرسى ، وما تلقيته وما كنت لا أزال أستذكره من قواعد النحو والصرف ، والمستوى العلمى الذى وصلت إليه . فلما أن صار لى أطفال أحرص على تعليمهم وأتعهد تربيتهم ، تفتحت عيناى ، ورأيت المجهود العنيف الذى يتكبده الطفل لقراءة أى كتابة ترسم أمامه

شاهدت البون الشاسع بين أطفالنا الذين يتعلمون اللغة العربية ، والأطفال الأجانب الذين يتعلمون اللغة الطليانية أو الانجليزية أو الفرنسية . رأيت أن الولد الأجنبى يعرف للكلمة الواحدة طريقة واحدة للنطق . فهو بمجرد وقوع بصره على كلمة يعرف ما هى ، فهو كأنه يسمعها فيفهم مدلولها كما لو كانت تلقى عليه

بل إننا قد نجد بعض الكلمات ترسم بطريقين مختلفين وأحيانا بثلاث طرق أو أربع تبعا لما تحويه من المعنى . فكأنهم حرصوا على أن تكون لغة الكتابة أدق فى مدلولها وأقرب فى فهمها من لغة المشافهة مثال ذلك mére بمعنى أم و méres بمعنى أمهات و mer بمعنى بحر و mêrs بمعنى بحور أو ami بمعنى صديق و amie بمعنى صديقة و amis بمعنى أصدقاء و amies بمعنى صديقات وغير ذلك من الألفاظ التى تكتب على عدة أشكال تبعا لمدلولاتها المختلفة

أما اللغة العربية فإننا نكبد الطفل مجهوداً فوق طاقته ، لأننا نضع أمامه طلاسم وألغازاً نكلفه حلها . فإذا وجد الطفل أمامه لفظ (ع ل م) مثلا حار فيما إذا كانت عَلَم أو عِلْم أو عَلَّمَ أو عَلِم أو عُلِّم

وإذا وجد لفظ (أن) تحير هل يقرؤها أنْ أو أنَّ أو إنْ أو إنَّ . وإذا وجد لفظ (م ص ر) حار هل هى مِصْر أو مُصِرٌ أو مَصَّرَ ، أو غير ذلك من كلمات وأوزان قد لا يكون لها وجود فى اللغة

نشأ عن ذلك أيها السادة أننا لا نجد حتى من بين من تفوقوا فى اللغة وفى الاطلاع من لا يخطىء فى ضبط الكلمات ، لأن طريق الضبط وعر يحتاج إلى

أبحاث ومجهودات قل من يستطيع التفرغ لها أو الوصول إليها

كما تنج عن ذلك، وهو الأهم فى نظرى، أن الطفل الأجنى إذا بدأ القراءة والكتابة كان ذلك مدعاة لتنمية قوة ملاحظته وتوسيع ملكة الإدراك فيه، وتعليمه كل يوم شيئاً جديداً، لأنه يستطيع فى وقت قصير أن يقرأ، فكلما وقع نظره على كتابة سواء كان ذلك فى الطريق أو المنزل أو فى الإعلانات أو فى جريدة سيارة، استطاع أن يدرك معناها وأن يزيد فى معلوماته عن طريقها

أما عندنا فإن الطفل لا يستطيع ذلك لأنه محتاج لشارح يكون بلغ من الخبرة ما يستطيع معه أن يرشده إلى طريقة قراءة الكلمة، وبلغ من البيان ما يستطيع أن يفسر معه للطفل لماذا يختار للنطق بالكلمة طريقا دون آخر، وهكذا من العقبات التى تجعل الطفل عندنا يزهد القراءة لأنها لا تنيره، بل الواجب أن يكون مستنيراً ليقرأ

ولذلك أيضاً نجد جميع الأشخاص الذين لا تسمح لهم الظروف بالاستمرار فى الدراسة، لا يستطيعون أن يتمموا معلوماتهم بالقراءة إلا بمجهود شاق لا يتيسر إلا للأفذاذ النبغاء. فأما باقى الأمة، فأما باقى الشعب، فينسى لأنه لا يستطيع الاستفادة من تعلمه القراءة والكتابة، لأن ما حوله لا يشجعه عليها، فيبقى من غير أن تتسع مداركه، لما فى ذلك من مجهود لا يطيقه

وهذا بخلاف الفرنسى مثلا. فإنه يستفيد وتتسع معلوماته حتى عن غير قصد، دون أن يشعر بالمجهود الذى يبذله، لأنه يكاد يكون ميكانيكيا وطبيعيا

ولقد كان من نتائج ذلك أن الواحد منا لا يستطيع أن يتعلم اللغة، أو أن يضبط ألفاظها، إلا إذا عرفها من طريق السماع. أما تعلم القراءة فلا يمكن أن يكفى إلا إذا وجد اللفظ مشكولا، أو إذا عرف جميع قواعد النحو والصرف واستذكرها وطبقها بالاستمرار. وهذا فى حالة الأوزان التى توجد لها قواعد فى الكتب دون جميع الألفاظ غير القياسية التى تكون العمدة فيها على السماع وحده

ولقد اقتُرح لمعالجة تلك الحال على ما أعلم طريقان: الأول الشكل. وهو طريق غير عملى، لأنه متعب فى الكتابة جداً، ولأن الشكل أدق من الحروف

المعتادة ، فهو أيضاً متعب للبصر ، وليس من المستطاع تمييزه بسهولة

أما الطريق الثانى ، فهو الاستعاضة عن الشكل بحروف العلة ، وهو طريق ترد عليه اعتراضات عدة . وليس مقصودى من هذه الكلمه أن أشير بطريقة معينة ، فذلك شأن الفنيين ، وإنما الذى أريد الإشارة إليه والمطالبة به ، هو وجوب الأخذ فى الإصلاح ، وهو عبء يقع على عاتق الحكومة المصرية ووزارة المعارف والمجمع اللغوى بصفة خاصة ، وعلى المعلمين بصفة عامة . فعلى الحكومة أن تقرر المبدأ ثم تشكل اللجان وتعقد المسابقات للوصول إلى أحسن الطرق التى يمكن اختيارها لتنفيذه من طريق التطور لا من طريق الثورة . فكتابتنا يجب أن تظل عربية ، ولكنها يجب أن تتكيف بما يلائم مقتضيات الزمن الحاضر . وليست صعوبة الشكل أو النطق الصحيح هى وحدها التى يقوم عليها الاعتراض فى الكتابة العربية . بل إن الهمزة أيضا وطرق رسمها من المسائل المعقدة التى يبذل تلاميذ المدارس مجهوداً شاقا فى فهمها وحفظ قواعدها . ومع ذلك فكثيراً ما يقع الخطأ فيها حتى من جهات لا ينتظر أن تقع فيه . وإلا فما القول فى أن وزارة المعارف تحتفل بعيد المدرسة الخديوية المئينى وتوزع على طلبتها السابقين استمارات تكتب فيها لفظ « يملؤها » خطأ ، إذ ترسمها على ألف بدل الواو ؟ أليس ذلك دليلا على أننا لم نصل بعد إلى هضم قواعد رسم الكلمات لما فيها من تعقيد ومجهود شاق ؟

أو ليس من المعقول أن يتقرر رسم الهمزة حسب شكلها ، فإن كانت مكسورة رسمت على ياء ، أو مضمومة رسمت على واو ، أو مفتوحة رسمت على ألف ، وبذلك نحل صعوبتين فى وقت واحد : صعوبة الشكل وصعوبة الرسم

بقيت نقطة أخيرة أوجه إليها النظر ، وهى ما قد يظنه البعض من أن ذلك قد لا يتفق تماماً مع وجهة النظر الدينية ، لارتباطنا برسم المصحف الشريف . ولكن هذا الاعتراض مردود

أولا : لأن رسم الكلمات فى تطور مستمر . فمن ذلك أن المصاحف والرسائل الموجودة بدار الكتب ، والتى يرجع تاريخها إلى القرن الأول والثانى من الهجرة ، تكاد تكون خالية من النقط خلواً تاماً

فمصحف عثمان من غير نقط أصلا . فتصور صعوبة قراءة تلك الآية :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً »

وتصور قراءة هذه الآية من غير نقط أصلا ومن غير وجود همزة أيضا . وفوق ذلك فإن ألفاظ : الباطل والظالمين وخساراً تكتب فى جميعها من غير ألف .

وكما نلاحظ ذلك فى مصحف عثمان فإننا نلاحظه أيضاً فى الرسائل التى كتبت فى هذا العهد

فتخيل لفظ حنين أو جبين أو جنين أو خبين أو جبن أو جبين إلى غير ذلك من الألفاظ غير المتشابهة فى لفظها ولا معناها . بل من ألفاظ قد لا يكون لها وجود فى اللغة . ثم قدر النعمة الكبرى والفائدة التى لاحد لها التى كسبناها بابتداع النقط حتى صرنا لانتصور كتابة تخلو منه . فكما خطا أسلافنا تلك الخطوة المباركة . كذلك يجب علينا أن نقتدى بخطواتهم الموفقة حتى تكون القراءة سبيل الفهم والاستنارة

ثانياً : إننا فى يومنا هذا لانتقيد فى كتابتنا العادية برسم المصحف الشريف فكثير من الكلمات ترسم بغير الرسم المعروف فى المصحف . إذ ليس فينا اليوم من يكتب الصلاة والزكاة بالواو . ولا من يرسم فسواهن أو أدراك أو ألها كم بالياء . ولا من يحذف الألف فى سماوات والملائكة . ولا من يزيد الألف قبل الهمزة فى مَلَئِهِ أو ملئهم (ملائه أو ملائهم) ولا من يضيف ياء بعد نبأ فى كتابة (من نبأى المرسلين) ولا من يضيف ألفا بعد أمرؤ فى (إن امرؤا هلك)

فرسم الكلمات يجب أن يتطور ليتفق مع الروح التى تسود العالم اليوم من ضرورة التبسيط والتسهيل . فبذلك وحده نستطيع مجاراة العالم فيما وصل إليه من التقدم ، ونصرف قوانا ومجهوداتنا فيما يجدى من العلوم والفنون التى تقوم عليها المدنية فى العصر الحاضر . بل هذا وحده هو سبيل الديمقراطية حتى لا تكون الاستزادة من المعرفة وقفا على طبقة الأغنياء وحدهم . ؟

فهرس العدد الرابع

للسنة الثالثة